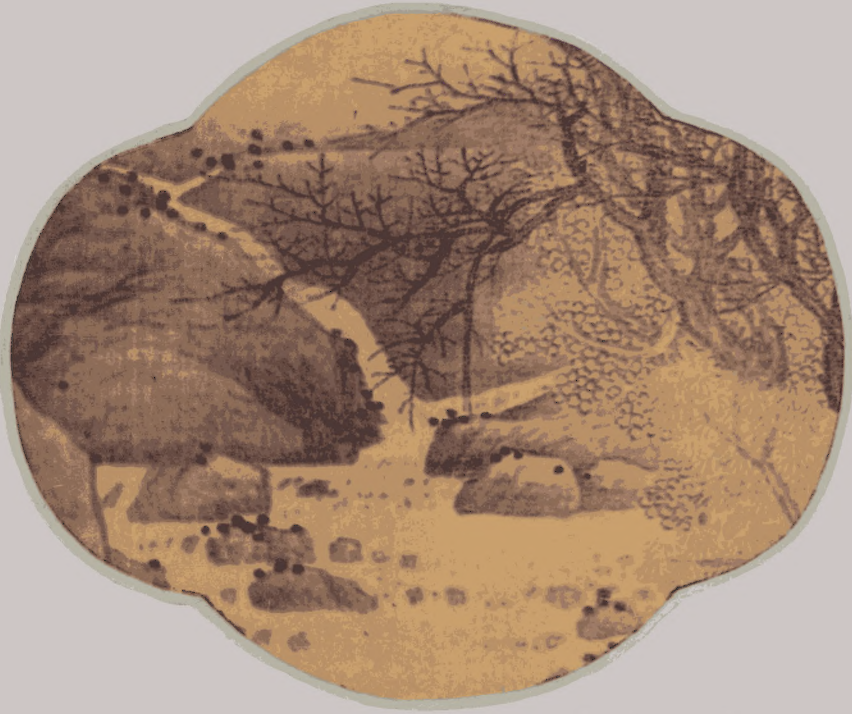
في الفلسفة الصينية

لاوتسه/تشوانغ تسه

老子/庄子

كتاب التاو



ترجمة و دراسة

هادي العلوي

老 海

دار الكنوز الأدبية

كتاب التاو

لاوتسه/ تشوانغ تسه

كتاب التاو

ترجمة ودراسة
هادي العلوي

دار الكنوز الأدبية

كتاب التاو
لاوتسه / تشوانغ تسه
ترجمة ودراسة هادي العلوي
الطبعة الأولى ١٩٩٥

دار الكنوز الأدبية
ص.ب ٧٢٢٦ ـ ١١ ـ بيروت ـ لبنان

الإهداء

إلى نبيهة
رفيق التعاود القلق على تخوم التاو

تصدير

قد يفاجأ القارئ العربي حين يخوض في بحار الفكر الصيني بذلك العالم المجهول الذي ترجع اولياته الى القرن الثامن قبل الميلاد ليتساءل عن سر هذا الانقطاع عن ثقافة عريقة عاشت في جوارنا متزامنة مع مكتبة آشور بني بعل ثم مكتبات الكلدانيين فالآراميين فالمسلمين. ولئن كان ما قبل الاسلام معدود في التاريخ المتقطع الذي يسم مدنيات وحضارات الغابر فإن القرابة القريبة التي جمعت بين الحضارتين الصينية والاسلامية تزيد من عنصر المفاجأة ومن ثم التساؤل عن هذا السر الذي جعل المسلمين يبحثون عن مصادر اضافية لمعرفتهم فلا يجدون غير فلسفة اليونان. ان الجواب المعتاد في حالة كهذه هو الحاجز اللغوي، إذ لم يتهيأ للفلسفة الصينية "سريان" يقومون بالوساطة بينها وبين الفكر الاسلامي. لكن السؤال يبقى مطروحاً للاجابة مع الاتصال الوثيق بالصين على جبهات السياسة والتجارة والعلوم ومع تدفق المسلمين على الصين بعد مدة وجيزة من وصول جيوش قتيبة الى كاشغر لترسم خط الحدود المشترك ما بين امبراطوريتي الارض في ذلك الحين.

أما بقاء هذه الفلسفة مجهولة عندنا في العصر الحديث فمفهوم. فالغزو الثقافي الذي اجتاحنا في هذا العصر، كان من جهة واحدة هي اوروبا، التي غزت الصين في نفس الآن لتشكل بالتالي حاجزاً يزيد على الحاجز اللغوي ويمنع اهل الصين من غزونا بثقافتهم بوتيرة لو تمت لكانت معرفتنا الحديثة اكثر توازناً وربما اتزاناً.

ان ما عرفناه من فلسفة الصين لا يزيد حتى الآن على هوامش مكتوبة على متون الاغريق والميديفال يمر عليها القارئ العربي من غير ان يعلق في ذهنه منها شيء ينافس مفردات الغزو الاوروبي . ولعلنا سننتظر ردحاً أطول من الزمن قبل ان تزحف الهوامش على المتون لتوفر مادة فاعلة تتماسك في الذهن العربي مع روافد ثقافته الاخرى. فما يزال عصرنا عصر الهيمنة الاوروبية المعمَّدة أمريكياً وما يزال جمهرة مثقفينا تستريح لنبرة جان انكلش التي لازمتها طيلة القرنين المنصرمين، فلم تزاحمها نبرة حتى من اغوار تاريخنا الحضاري المتصل في تأوجه بأواسط العصر الحجري الاوروبي.

على ان لكل اوج حضيض، تنعطف منه الاشياء الى مصائر مغايرة. وقد تأوجت الهيمنة الغربية الى حدود لم يعد بالمقدور تجاوزها الى ذروة اعلى واستكمل الغربيون حلقات حصارهم ففرضوا على المحصورين أن يبحثوا عن منافذ للافلات. ولعل هذا هو ما اراده كاتب صيني تنبأ بانحسار الثقافة الغربية وصعود الثقافة الشرقية ولكن في سياق ملتبس، متأثر في الجوهر، بتعميمات الغربيين انفسهم حيث

يستظهر الكاتب الصيني دخول الفكر العلمي الحسابي (علم الغرب) نفق الازمة، الذي سيفتح الباب لفاعلية الفكر الشرقي المتنافر مع جمود الحقائق العلمية... ولم يدخل العلم الغربي نفق ازمة فهو في نمو مطرد يتساوق مع التطور الهائل في المدنية التكنلوجية.. وما نشكو من هيمنته علينا ليس العلم الغربي، اعني ليس آنشتاين او فرويد، بل الاديولوجيا الغربية، اعني مارغريت تاتشر وفرانسوا ميتران وبيل كلينتون وسلمان رشدي. كما ان ما يعنينا اليوم ليس الفكر الشرقي المتنافر مع جمود الحقائق العلمية بل الفكر الشرقي في تدامجه مع الطبيعيات وتراث الفكر الشرقي الذي اتسع لكونفشيوس وتساي لون كما اتسع للغزالي والخوارزمي. وسيخدم الكشف عن منابع جديدة لثقافتنا في اعماق آسيا هدف انفلاتنا من هيمنة الثقافة الغربية، التي نريدها ان تكون احد روافد ثقافتنا وليس النبع الوحيد الذي يتزاحم عليه الرواد. وسوف يساعدنا ذلك على تلقي منتجات الذهن الغربي بقدر اكبر من النقد بعيداً عن وسائل التلقين المستعملة في اوساط مثقفينا.

ترجع أولى محاولات العودة الى تراث الشرق الى الستينات حينما بدأ المؤرخ العراقي الماركسي فيصل السامر الكتابة عن العلاقات العربية الصينية ليضع القارئ العربي امام ساحة مجهولة من تاريخه، وقد نشر بعض هذه الدراسات في مجلة "كلية الآداب" ببغداد وكان من اساتذة التاريخ فيها. ثم عاد الى معالجة هذه المسألة في كتابه "الحضارة الاسلامية في الشرق الأقصى" ليوفر بذلك مرجع اساس لمن سينطلق

للبحث في هذه المجاهيل. وفي وقت لاحق اصدر عبد المعين الملوحي ترجمته للجزء الأول من "تاريخ الشعر الصيني" وكان ذلك عام ١٩٦٨ ثم الجزء الثاني عام ١٩٧٩ . ويواصل الملوحي ترجمات الادب الصيني شعراً وقصة لنشرها في الدوريات الثقافية، وأصدر الكاتب المصري محمد شبل مجلداً عن "حكمة الصين". ويتصدى الطلاب والباحثون العرب المتصينون والطلاب والباحثون الصينيون المستعربون لهذه القضايا في اطروحاتهم كما في كتاباتهم اللاحقة. ومن بين الاطروحات الهامة واحدة قيد الاعداد للطالب السوداني جعفر كرار الذي اطلعني في بيجينغ على الفصل الأول منها. وهي مستوفاة وموسعة. وقد وقف الطالب المذكور على مراجع أمهات لم اطلع عليها عند معالجتي لنفس الموضوع. وردَّ في اطروحته على مزاعم استشراقية سعت لتضييق نطاق العلاقات العربية الصينية ضمن اتجاه سائد في الغرب لإبقاء الحواجز القائمة بين طرفي آسيا. وتحت الطبع كتاب عن الادب الصيني للصديق زكريا الشريقي سفير سوريا السابق الى الصين. وفي رسالة من قريب لي ببغداد ان كتاباً صدر لطالب عراقي عن العلاقات الصينية العربية رجع بها إلى العصر البابلي وتضمن اضافات هامة على ماكتبه الرائد فيصل السامر. ولم يوزع الكتاب خارج العراق بسبب الوضع الاستثنائي القائم في وطننا العريق الذي ترادف صدام حسين والغربيون على إبعادنا عنه منذ ثمانية عشر سنة خلت..

ضمن هذا الخط، المحكوم بهاجس التوجه المشروع نحو الشرق،

كانت دراستي للفلسفة الصينية التي اسفرت اولاً عن مباحث متفرقة في الدوريات الثقافية والسياسية تم عن ترجمة لكتاب التاو الأول تمت بالتعاون مع الدكتور سامي مسلّم وصدرت طبعتها الأولى ببيروت عام ١٩٨٠ . وتحت الطبع كتاب يتضمن دراسات ومنتخبات ثقافية عنوانه: "المستطرف الصيني" يصدر عن مركز الدراسات الاشتراكية الكائن بدمشق. ثم هذه الطبعة الموسعة لكتاب التاو في جزأيه الاساسيين اللذين يحملان اسم لاوتسه، مؤسس الفلسفة التاوية، وتشوانغ تسه معلمها الثاني. وقبل ان نقدمها لقرائنا نجد من المفيد أن نأخذ بهم في دروب التاو كي يستبصروه قبل ان يواجهوا مهمة قراءة نصوصه الاصلية كما نطق بها المعلمان العظيمان او استنطقهما اتباعهما اللاحقون.

هادي العلوي

دمشق اوائل تموز ١٩٩٤ م

اوخر محرم ١٤١٥ هـ

ويصادف منتصف الشهر السادس

من سنة الديك في التقويم الزراعي

الصيني

مدخل إلى التاوية

تنتسب المدرسة التاوية (تاوجيا) الى لاوتسه. وهو لقب التشريف للسيد لي تان المولود في دويلة تشو من اعمال مقاطعة هونان الجنوبية اليوم. وهو معاصر اسن لكونفشيوس يقال انه يكبره بخمسين سنة. وبهذا الاعتبار يتمسك الكثير من الدارسين الصينيين بكونه، لاوتسه، هو الفيلسوف الأول وليس كونفشيوس، وقد نجمت مع ظهور لي تان موجة فلسفية مديدة استمرت طوال عصر الفلسفة الاغريقية والهللينية فالعربية الاسلامية. ويضع العلاّمة فونغ يولان ثلاث أطوار للتاوية في تزمين ملتبس يكون فيه الفيلسوف ياو تشو العائش مع اختلاف تواريخه ما بين القرن الخامس والثالث ق.م. اول فلاسفة التاو ويكون فيه لاوتسه الذي عاش قبله ثاني الفلاسفة. والخلاف كبير حول الزمن الذي عاش فيه الاثنان مع ان الميل السائد يتجه الى معاصرة لاوتسه لكونفشيوس كما ذكرنا. ومهما يكن فإن الاطوار الثلاثة التي تكلم عنها فونغ يولان تتقوم في طور الهروب من الناس واعتزالهم في الجبال والغابات على طريقة النساك خلاصاً من شرور الدنيا كما ترد عن ياوتشو، ثم في استظهار لاوتسه للنواميس الحاكمة في الاشياء بوصفها، اي النواميس، ثابتة والاشياء متغيرة. ودعوته الى فهم هذه النواميس وتنظيم حياة الفرد والمجتمع بموجبها لتجنب الاضرار التي نجمت

عن معاكسة الطبيعة من طرف الانسان المتمدن. وفي الطور الثالث يدعو تشوانغ تسه الى نسيان التمييز والفروق بين الاشياء والتمسك بالمساواة بينهما بما في ذلك المساواة بين الموت والحياة والمطابقة بين الذات والآخر من اجل تجاوز العالم الكائن إلى عالم آخر تتروحن فيه النفس البشرية من غير أن يحتاج المرء للهروب الى الجبال والغابات.

وللتاوية على أي حال اطوار اخرى يتأوج احدها مع الفيلسوف كوو شيانغ، الذي اوصل التاوية الى ذروة تطورها في القرن الثالث الميلادي كما سيشرح فونغ يولان في التذييل المركز الذي ألحقه بترجمة كتاب تشوانغ تسه.

وهناك طور آخر انقسمت فيه التاوية بين الفلسفة والدين، فكانت التاوية الفلسفية (تاوجيا) والتاوية الدين (تاو جياو). والاخير قام على اصول لاوتسه بعد تحويرها لتصبح طقوساً مشوبة بالعقائد والاساطير. ويتساءل جوزيف نيدهام عالم الصينيات الانجليزي الجليل عن السر الذي جعل فلسفة راقية تتحول الى دين. ثم يلتمس لها عذراً في رد الفعل ضد الدين الجماعي في الكونفوشية بقرابينه وطقوسه المفرطة التي اتسعت مع اتساع الدولة فلم يعد مقدوراً لكل الناس ان يؤدوها فجاءت الديانة التاوية لتكون ديانة الخلاص الفردية لأهل الصين، فتحررهم من فروض الكونفوشية الباهظة وترفع عنهم الاغلال التي كانت عليهم[1]. لكنها وقد تحولت الى دين لم تعد قادرة على ان تفعل هذا كله ففزعت إلى الاباطرة وسلك لاهوتيوها للتأثير على هؤلاء الحكام سبل الشعوذة فاجترحوا اكسيرا لاطالة العمر شربه اربعة منهم فماتوا. وجربت التاوية ان تصبح دين الصين الوطني ضد البوذية المجلوبة من الهند ولما نجح التاوي تشاو قوي تشين* ان يستصبيء

الامبراطورين "تشنغ" و"وو" استطاع ان يحمل الآخير على تحريم البوذية بمرسوم عدّد فيه ما فعلته ديانة الهند من تعطيل للانتاج وتشويش في عقائد الناس واستغلال الثروات لبناء الاديرة والمعابد الفخمة التي عاش فيها الرهبان مرفهين على حساب غيرهم[٢]. الاتهامات نفسها التي برزت في حملة ماوتسي تونغ، وهي الثانية في تاريخ الصين، وانتهت بالثورة الثقافية الى اغلاق المعابد. ولم تتوقف التاوجيا مع ظهور التاو جياو بل تزامنا في ساحات منفصلة حتى النهاية.

وما يعنينا الآن هو التاوية الفلسفة وليس التاوية الدين.

ولكن من هو التاو؟ اصل الكلمة في اللغة الصينية هو الصراط ثم استعملت في الفلسفة لتخرج من مدلولها الملموس الى مدلولها المطلق. وتبعاً للفرنسي ويغر أخذ لاوتان هذه الكلمة من ارشيفات الوزارة الثالثة وهو الفهرس الادبي لعترة الهان [٣]. وينمو التاو عند لاوتسه وتلامذته فيصبح هو المبدأ والمآل. المبدأ الذي تأتي منه كل الاشياء والمآل الذي ترتد اليه كل الاشياء. ويقول "محيط الكلمات الصينية" ان التاو هو القانون الطبيعي او الكيان الذاتي للاشياء[٤]. أهو الجوهر اذن؟ ربما انطوى التاو على شيء من ذلك فالمفهومات التي اكتسبتها هذه المفردة تجعلها قابلة لتفسيرات شتى قام بها التلامذة العظام وشراحهم وحاولها مؤرخو الفلسفة في هذا العصر. لكن الاساس يبقى ان التاو هو مطلق التاويين: مبدأ الاشياء، جوهرها، طبيعتها الذاتية، محركها، وربما رانت عليه من بعض الوجوه ملامح روحانية توحي بها بيانات الفلاسفة المشوبة بنزعة صوفية والمكتوبة بنفس شعري لكنه لا يخرج في كل الأحوال عن مقتضى الكون والطبيعة الكونية. ولا يخفي لاوتسه نفسه حيرته امام هذا المطلق اذ يقول[٥].

مظلم، محير، عسير الوصف.

ولكي لا يتراجع للحيرة يعطي وصفاً عاماً يتناول منتجات التاو، افعاله، وآثاره:

النور جاء من الظلمة، النظام من اللاصورة.. التاو ينتج الطاقة الحية وهي التي تعطي النفَس للصورة العضوية.

أما تشوانغ تسه فيحد التاو دون ان يلمسه [٦]:

"للتاو واقع ودليل، ولكن لا فعل له ولا صيغة. هو ممكن الارسال غير ممكن الاستلام، ممكن التحقق غير ممكن الرؤية".

والتاو مجرد عن الاسم اي انه عار عن الصفات ويشبهه لاوتان بلوحة غير منقوشة: "هو بداية كل الاشياء، وبداية البدايات، هو ليس شيئاً وانما بداية الاشياء" [٧].

التاو اذن هو البسيط الذي هو مبدأ كل الاشياء، إذا استخدمنا لغة الفلاسفة المسلمين. وهو بهذا التحديد يمكن ان يكون مقابلاً لـ: الباري، العقل الأول، المحرك الأول. مع فارق اساسي هو ان الفيلسوف التاوي لا يميل الى تحميل مطلقه بعداً مفارقاً لانه لا يتعامل مع الالوهية.

أيمكن ان يكون اذن هو القوة الكامنة في الاشياء؟ يحدد تشوانغ تسه ان التاو تنتج الملاء والخلاء لكنها ليست ملاء ولا خلاء، تنتج الذبول والهلاك لكنها ليست ذبولاً ولا هلاكاً، تنتج الجذور والاغصان لكنها ليست جذوراً ولا اغصاناً، وتنتج التراكم والتفرق لكنها بنفسها ليست متراكمة ولا متفرقة.. اي شيء هنا غير القوة؟ التاو ليس شيئاً وهو مبدأ الاشياء ومبدأ الشيء هو طبيعته كما تقول الفلسفة الاسلامية، بمعنى آخر هو تلك القوة

السارية في الموجودات والتي تعطيها الحركة والسكون. واذ يكون قد وجد قبل التشكل وقبل البداية دون ان يكون قديماً، وفي اعلى الاشياء دون ان يكون عالياً وفي ادناه دون ان يكون سافلاً فهو ذلك الأمر الذي لا تتعين له جهة، ولازمان. وليس ذلك غير هذه القوة المنزهة عن الصفات ولكن القادرة على ان تتحقق، أي على ان تفعل. والنص على تحققها هو ما يعطيها صفة الفاعل دون قصد ومن هنا يرفض تشوانغ تسه ان يعطيها صفة الفعل رغم اضطراره الى استخدام العبارة المشعرة بذلك، وهو اضطرار ناتج عن محدودية اللغة.

يرى باحث غربي ان التاو قريب من لوغوس فيلون فيلسوف اليهود المعاصر للمسيح الذي تحدث عن روح إلهية، كونية غير متشخصة [٨]. وهو على جانب كبير من الصواب. لكن التاو يمكن كذلك ان يشبه "عقل" افلوطين الأول لأن المؤسس نص على تسلسل (فيضي؟) يولد فيه التاو واحداً، ومن الواحد يأتي اثنان ومن الاثنين ثلاثة ومن الثلاثة تأتي كل الاشياء. لكن التاوية تتحدث عن الصدور، عن المبدأ دون ان تدخل في متاهات "الواحد لا يصدر عنه إلا واحد" لانها بصدد البحث عن الظهور المعلل للاشياء الطبيعية وليس عن الكائن البسيط المتميز الذي لا يصح له الاختلاط بموجوداته كما اراده افلوطين. وفي كل مرة يتحدث فيها التاويون عن تاوهم لا نجد هذا التوجس الذي سيطر على الافلاطونية الجديدة ومن بعدها على فلاسفة الاشراق المسلمين من ان يتكثر الواحد ويتركب البسيط فيفقد طبيعته الذاتية ويتوقف بالتالي عن ان يكون روحاً للكون او خالقاً او واحداً فياضاً، لأن التاو يستقر في صميم الكون، داخل الفلك وليس خارجه.

على أننا لا نلبث ان نصطدم بفكرة محيرة حين يتحدث التاوي هواي نان(١٢٢ ق.م) عن استجابة الاشياء تلقائياً للتاو[٩] فهي تذكرنا بمحرك ارسطو الأول الذي لا يتحرك وانما تتوجه اليه الاشياء بحاسة العشق التي في داخلها. فهل يريد صاحب "التوهج العظيم" ان يقول بأن التاو معشوق الكائنات وان فعله لا يتجاوز هذا الدور السلبي؟ ليس لدينا جواب قاطع. لكنا نعرف من الجهة الاخرى ان التاو مبدأ في داخل الطبيعة يفعل فيها بالمباشرة والملامسة لا بالايحاء ولا بالعشق. ومن هنا ليست الاستجابة التلقائية في ذات التاو بل في الاتجاه الذاتي الى الحركة من خلال المبدأ، وبالتالي فهذه الاستجابة التلقائية للتاو لا يمكن حملها على غير الارتباط بالمبدأ المحرك، الذي تصدر عنه الاشياء بحكم طبيعته صدوراً تلقائياً طبيعياً، أي لا قصدياً ولا صنعياً، والتاوية ضد الصناعة والصنعة ليس في الطبيعة فقط، بل وفي المجتمع ايضاً. على ان التاو يملك بدوره بعض شمائل المحرك الذي لا يتحرك، بقدر ما تعنيه الحركة من وقوع التغير في ذات الكائن، فالتاو باق وسط المتغيرات اي أنه لا يزول لأن مناط خلوده هو ديمومة الفعل المتساوقة مع ديمومة الوجود، فلكي تبقى يجب ان تواصل الحركة، حقيقة راهنة حتى في الزائل الذي يرتهن زواله بتوقفه عن الفعل، عن الحركة، وما يميز الخالد عنه انه دائم الفعل، ومن هنا اذ يبقى التاو وسط المتغيرات فلانه لا يكل عن التغير وليس لأنه ثابت كماهيات ارسطو.

التاو مبدأ للطبيعة، وعليه مبنى التاويين في تفسيرهم للوجود. ولهذه النِحلة شغف بدراسة الطبيعة وضعها في معارضة الكونفوشيين الذين لم يجدوا في الطبيعة ما يغريهم بالاستطلاع، وجعلها موضع انتقاد فلاسفة المجتمع، وطليعتهم شوون تسه، لانهم اعطوا الطبيعة اكثر مما تستحق. التاوية

اول فلسفة طبيعية في الصين، اول محاولة لدراسة العالم دراسة فيزيائية ولكن من خلال الفلسفة. واذ توصل رائدهم لاوتان الى فرضية التاو كمبدأ للموجودات فقد ترتب عليهم البحث عن الكيفية التي تخرج بها هذه الموجودات من رحم التاو.

يتساءل الاب لاوتان عن منشأ التاو فيقول لا أدري من أين هو؟ على أنه لا يلبث ان يقول مرجحاً:

يبدو انه كان قبل المهيمن.

وماذا يفعل؟

ينتج ويوفر دون ان يتزود.

وكيف يفعل؟

هو والموجودات كالبحر والترعة. ان المبدأ لا يرهن نفسه في حالة تستهلكه بل ينتج باستطالة لا تنفصل عنه. والكائنات هي استطالاته التي لا تنقص منه شيئاً[١٠].

والاستطالة قريبة جداً من معنى التمدد في الكيمياء. ويلجأ "لاو" الى هذا الفرض لئلا يعّرض المبدأ للنقص والاستهلاك، أي للاندثار والزوال. وربما شممنا في هذا التقرير رائحة الثبات في كمية المادة.

وفي نص اخر ينسب الى لاوتان نفسه بيان ايضاحي لسيرورة الاستطالة، يشبّه فيه المبدأ بزق ذي طرفين على شكل منفاخين ينفخان دون استنزاف نفسيهما بشكل متناوب ودون توقف[١١]. ويعترف لاو بالعجز عن استكناه هذا الفعل فيقول ان محاولة فهمه بالكلام لا جدوى منها. لكنه يعود فيشرح ان قوة الاستطالة في المبدأ هي الام الخفية لكل الاشياء

وبهذا الفعل المتناوب الخفي تنشأ السماء والارض، وهما طرفا المنفاخ، ومن المبدأ نفسه تكون قوة الانتاج الشاملة التي تعمل بواسطة السماء والارض، بين السماء والارض، اي في وسط الزق وهو الفضاء الوسيط، فتنتج كل المحسوسات، عملاً طبيعياً متناوباً ومتصلاً بشكل ارتدادي لا ارهاق فيه ولا استنزاف. وأول ما ينتج عن الفعل هو الهواء الأوسط (التشي) وهو المادة العماء، ومن هذه المادة وبتدخل قوتي الايجاب والسلب الصينيتين (الين واليانغ) تنشأ المحسوسات كلها.

يضع الأب لاو بهذا التقرير شيئاً قبل المادة هو المبدأ الذي يتحرك على شكل منفاخ ذي متناقضين. ولا مجال للافتراض مع ذلك بأنه يقصد شيئاً خارج العالم من طبيعة غير مادية، فهذا التصور لا مكان له عند التاويين. ان المبدأ كما ينص عليه لي يوكو (٣٩٨ ق.م) ومن بعده تشوانغ تسه وليه تسه ليس روحياً بل مادي وهو لا يُدرَك ليس بسبب تعاليه بل لأنه في غاية الدقة والضآلة [١٢] ومن البين ان هذه هي صفة البسيط الذي منه كل الموجودات، كما يقول الشيرازي، لكن ما الذي دفع الى هذا البحث عن كائن مادي سابق للمادة الأولى؟ انه الحاجة الى تشخيص القوة المنتجة في الكون تلك الحاجة التي شغلت الفلاسفة من الصين الى ملطيا دون ان تبلغ بهم الى شاطئ الحل.

وقد ارتهنت هذه الحاجة عند التاويين بالبحث عن البداية، فمادام هناك كائن مادي سابق للمادة فلا بد ان تكون لهذه الاخيرة نقطة انطلاق شرعت منها بالوجود. هذا ما يوحيه بيان التاويين الثلاثة تشوانغ وصاحبيه[١٣]:

"في البدء كان ثمة كائن فرد، ليس عاقلاً بل قانون قدري، ليس روحياً

بل مادياً. لا يُدرك بفضل ضآلته. لا متحرك. ومنه اشتقت حميع الموجودات. وجاءت هنيهة، لا ندري لماذا، بدأ فيها هذا المبدأ يصدر فضيلته التي اتخذ فعلها حالين متناويين هما الين واليانغ ـ الذكر والانثى، الموجب والسالب، او القوة التي تتضمن كلا منهما. وهذان انتجا بالتكثيف السماء والارض والهواء بينهما والقوى غير العاقلة التي انتجت الكائنات الحساسة. (الأحياء)".

والتاوية تتحدث كثيراً عن البداية ضمن حاجتها هذه الى تصور الكون والقوة المنتجة فيه، وفي مجرى التأمل الذي يسوق انطلاقاً من الجزئي، الى افتراض اول واخر لكل ما في الكون. لكن التاوية تعرف ان هذه البداية نسبية فهي بداية بالقياس لما بعدها فقط. لنقرأ هواي نان(١٤).

" ***كانت هناك البداية.***

كانت هناك بداية تسبق هذه البداية.

كانت هناك اسبقية بداية حتى قبل اسبقية هذه البداية.

كان ثمة الوجود.

كان ثمة اللاوجود.

كان ثمة ليس بعد بداية للاوجود.

كان ثمة ليس بعد بداية لما هو ليس ثمة بعد بداية للاوجود.

البداية اذن ليست بداية، وهي لذلك متعددة متناوبة، ولم يكن العربي محمد الباقر مغالياً حين قال: قد انقضى قبل آدم الذي هو ابونا الف الف آدم أو أكثر(١٥). وآدم هو بداية الانسان الحاضر في الفكر الديني لكن امام الشيعة حولها بداية تاوية فهي مسبوقة بألف الف بداية.. والعدد للتكثير لا

للتحديد ومن المعتاد ان يستعمل لهذا الغرض أعلى رقم يعرفه اهل اللغة المعنية، ومنه استعمال أهل الصين للوانغ ـ عشرة آلاف ـ لما لا ينتهي من الاعداد لأن الوانغ اعلى رقم في لغتهم.

مهما يكن الحال فإن الفلسفة مضطرة للبحث عن بداية العالم الذي تعيش فيه وهي معترفة رغم ذلك بأنها ليست بداية إلا بالنسبة لسكان هذا العالم او هذه المرحلة من العالم. وتدرك التاوية شأن معظم فلسفات الشرق والغرب ان البداية تتشكل من شيء سابق، هو عندها العماء الناتج من استطالات المبدأ الأول. وليس في علم التاويين نشأة من العدم، وهم مع الملا صدرا، في تقريره:

"الليس المطلق ليس قابلاً لشيء".

فالعماء التاوي هو "ليس نسبي"، تتحدد ليسيته في كونه لا متشكلاً:

في البدء تكون السماء والارض رتقاً، نص عليه القرآن فيما بعد[١٦]، والفصول الاربعة، هذا ما يقوله هواي نان ءلم تنفصل بعد وعشرات الوف الاشياء لم تولد، والصور غير منظورة. ثم يبدأ كل ذلك بالظهور مع استطالة التاو فتتميز السماء عن الارض وتظهر الفصول الاربعة وتتوالد الاشياء. ولهذه السيرورة العظمى يضع ليه تسه اربع مراحل كبرى[١٧]:

مرحلة القفزة الكبرى وهي تسبق ظهور المادة العماء وتتصل بالكائن اللامتناهي، وهي الصورة المنفية في المبدأ والنابعة من سكونه المطلق.. وينبثق من هذه المرحلة:

الاصل الأكبر ـ مرحلة المادة العماء (اللطيفة).

وتنبثق من هذا الاصل:

البداية الكبرى ـ مرحلة المادة الملوسة.

ثم: التدفق الاكبر ـ مرحلة المادة اللدنة، الجواهر العينية، الكائنات المادية الحقيقية.

وتنتج الكائنات نفسها بهذه الطريقة: المادة الانقى تصعد فتكون السماء والاقل نقاء والاثقل تهبط فتكون الارض. ومن المادة الافضل مزاحاً، المتبقية في الخلاء الوسيط، يكون الانسان ـ"الانسان مصنوع من افضل مادة اولية في الكون؟. " لاحظ تكريم التاوية للانسان، لكي تتذكر ما يقوله المسلم فخر الدين الرازي:النفس الانسانية اشرف النفوس في هذا العالموالبدن الانساني اشرف الاجسام في هذا العالم.

ويكاد ليه تسه في هذا المسلسل ان يبدأ من خارج العالم اذ يتحدث عن الصورة المنفية في المبدأ الذي يتمتع بالسكون المطلق، وهو تصور تاوي لاحق ربما كان متأثراً بالفلسفات التي ظهرت بعد التاوية وحملت نزعات ميتافيزيقة مختلفة.

ويصب مسلسل ليه تسه في نفس نزعة البحث عن البدايات لدى التاويين. وكان المؤسس قد وضعها في مسلسل شبه فيضي:

من التاو يأتي الواحد. من الواحد يأتي اثنان. من الاثنين يأتي ثلاثة. من الثلاثة يأتي كل الاشياء.

ويعتبر فونغ يولان هذه العبارة مرموزاً للقول بأن من الكائن تأتي كل الاشياء فالكائن واحد، والاثنان والثلاثة هي بدايات لما هو اكثر [١٨]. ونعود الى لاوتسه وتشوانغ تسه فنجدهما يتحدثان عن قوة تفيض من المبدأ الاوحد فتتولد منها الاشياء. هذه القوة هي الـ تي . وهي الاقنوم الثاني في

التاوية وتولّد الاشياء بالتركيز والاتساع المتعاقب وفي الاشياء المتولدة منها خطوط معينة تحدد صورها الجسمانية التي تتضمن المبدأ الحيوي. يعني ذلك ان الـ تي يعطي الوجود للاشياء، اما الماهيات فتنشأ في داخل الاشياء: كل كائن يؤلف بطريقته الخاصة طبيعته الخاصة كما يقول تشوانغ. والفلسفة الصينية لا تفرق بين الماهية والوجود، شأن الفلسفة الاغريقية، لكن تشوانغ تسه يضع بهذا التقرير اساساً للتفريق بينهما. واذا شئنا ان نتوسع في ارتياد افق هذه العلاقة بين الوجود المعطى من الـ تي والصورة المعطاة من الذات فإننا بازاء الاوليات التي شكلت نظرية الملاصدرا الشيرازي عن اصالة الوجود. وهي فكرة يمكن فقط استخراجها بالتضمن لان الفيلسوف التاوي لم ينظر الى المسألة بنفس العين التي نظر بها فيلسوف شراز.

ذكرنا في السطور السالفة أن الين واليانغ تتدخلان في توليد الاشياء من المبدأ. والين رمز الذكورة والايجاب، واليانغ رمز الانوثة والسلب. ويدخل هذان الزوجان في فلسفة الطبيعة الصينية ليفسرا تقابل الاشياء وازدواجها وتعاقبها. وتبعاً لتشوانغ تسه، يصدر الين واليانغ عن المبدأ وهما يؤثران في بعضهما ويدمران وينتجان بعضهما وبهذا الفعل المتبادل الذي يقومان به تتعاقب الاشياء وتزدوج بعد ان تكون قد تركبت بفعل الـ تي.

ويمكننا ان نفهم من ذلك ان وظيفة هذين الزوجين هي، اذا استعملنا لغة المسلمين، اعطاء الصور النوعية للموجودات. وهل هما خارج الاشياء ام داخلها؟ يستفاد من افادة تشوانغ التي اوردناها للتو انهما ليسا كائنين متشخصين وانما قوتان متناوبتان تتكون التشكيلات المختلفة للعالم المادي من فعلهما المتبادل، لا سيما وقد نص على ان الاشياء تملك في ذاتها طبيعتها الخاصة فلا تحتاج إلى أن تستعير قوة من الخارج لكي تتصور. هنا اذن فرض

اخر، يكمّل فرض التاو والـ تي، للقوى التي تعمل في داخل الكائنات فتمنحها وجودها وماهيتها. وقد وضع هواي نان هذه الحقيقة في نصابها الاكثر مادية، ففي مشروعه للنشأة يتقدم الين واليانغ نحو الملوس حين يكوِّنان النار والماء، التعبير الارضي عن الين واليانغ، وهذان ينتجان سائر الاشياء المحسوسة.

هذه السيرورة الكونية خالدة، بمعنى انها مستمرة، متصلة مادامت التاو ممتدة مع الكون امنة من التغير والفساد. واستمرارها افقي لا عمودي، دوار، لا ينتقل من الادنى الى الأعلى كجوهر الشرازي بل يتحرك حركة مستديرة ارتدادية. والارتداد هو حركة التاو، كما يقول الاب لاو، والتقدم نحو موقع جديد يعني الارتداد الى الموقع السابق في حركة دوارة تستمر مادامت المادة، ومادام التاو، وهما بذلك ينتجان نفس الاشياء من خلال ما يسميه "التعاود" في حركة التاو. ومن هنا يستمر الوجود، ولكن في وتيرة واحدة، لا جديد فيها.. والكون التاوي متشابه لا ينتج إلا نفسه، ولذا تنعدم فكرة التقدم عند التاويين، لكن فيرغسون ينفي ان التاو رجعي. وهو ما يتأكد في فلسفة كوو شيانغ (انظر التذييل في آخر الكتاب).

نأتي الى التغيرات على الارض، مخلوقات الارض وكيف تتشكل ومن أين تأخذ صورها البالغةالتنوع.

ليه تسه:

"الارض اصل كل الاشياء، جذ ر وبستان كل الحياة"

كائنات الارض اذن من الارض وليس من خارجها. لم ينزل الى الارض طاريء يضيف اليها مادة او صورة تكمل نقصها الذاتي. فالارض كاملة في ذاتها.

ومن أية هيولى تشكلت هذه الموجودات؟

من الماء.الماء هو دم ونَفَس الارض يجري في جسدها كما يجري الدم في العروق، وله من السجايا ماليس لغيره، فهو يحب ان يغسل شرور الانسان وهذا يمكن ان يسمى حبه للخير. وهو يتلون بحسب موقعه، يكون حينا اسود وحينا ابيض، وهذا يمكن ان يسمى جوهره. وعندما تقيسه لا يمكنك ان ترغمه على الاستواء في القمة فهو يفعل ذلك بنفسه متى ما امتلأ الاناء، وهذا يمكن تسميته: سجية اعتداله، وليس من فراغ لا يمكنه الانصباب فيه حتى إذا بلغ مستواه توقف، وهذا يمكن تسميته: سجية انصبابه. والناس كلهم يحبون الصعود لكن الماء يسرع الى القعر، ومبدأ الذهاب الى القعر هو "قصر التاو" واداة الحاكم الحق (التاوية كما سياتي تدعو الى التقلل والكفاف).

وللماء سجايا الاساس: اللاطعم، وهو اصل الطعوم الخمسة، اللون الأبيض، وهو اصل الالوان الخمسة. وهكذا فالماء هو المستوى المعياري لكل الاشياء والقاسم المشترك لكل الحياة، والوسط الذي يتبوأه كل مفقود ومحصول. وليس من شيء لا يمكن للماء ان يملأه ويقيم فيه، فهو يَنتُج بين الصخور والمعادن ويتجمع في كل الكائنات الحية. وهو أخيراً القوة التي تستمد منها النباتات والحيوانات شكلها ونموها وبالتالي فلا شيء يمكنه ان يقوم بما يقوم به الماء.

هنا نجد انفسنا أمام قاسم مشترك للاستذهان السومري وامتداداته في فلسفة طاليس ثم في الاسلام: كان الماء ولم يكن شيء. هكذا افادت اساطير التكوين السومرية، وهكذا قال اول فلاسفة الاغريق. وهو ماقاله القرآن فيما بعد: "وكان عرشه على الماء... وجعلنا من الماء كل شيء حي".

وجدير بالالتفات هنا التحري الاستقرائي لسجايا الماء التي تميزه عن غيره وتعطيه الملكة التي توصله الى ممارسة الخلق، الفيلسوف التاوي هنا ذو نزعة تجريبية واذا لم يكن قد نجح في اقناعنا بأن الماء هو الخالق فلا بد لنا ان نعترف له بصواب المنهج وهو يستقرئ، قبل ان يستنتج. وينبغي لذلك ان لا نتهم الحكيم ليه تسه بالتبسيط وهو يشرح لنا أوصاف الماء التي نشاهدها بالعين المجردة فهو ينطلق من هذه الأوصاف ليستخلص جوهراً فاعلاً يستمد قدرته على الخلق من المعاني التي تجسدت فيه وليس من محض حقيقته المتوارية السارية في الطبيعة. ونيد هام على حق حين يقول: انها مسألة جوهر وروح الماء ذو القوة السحرية. ولننظر في هذا المثال لنرى كيف يمارس الماء عملية الخلق من خلال تصيراته.

يقول الحكيم: "***الكائنات البشرية تتكون من الماء: الجوهر المنوي للرجل والتشي للمرأة يتحدان ويفيض الماء ليصوغ شكلاًجديداً، ولكن بعد ان يكون قد تخثَّر وتصلب حيث ينشأ الكائن ذو الفتحات التسعة والأعضاء الخمسة:***".

والتشي هو الجوهر الصيني، المونة التي تدخل في اصل الاشياء، واختصاص المرأة به في هذا النص ربما يعبر عن قناعة ما بأنها مصدر كينونة الانسان، وعلى اية حال فالمطلوب هو دور الماء. وكيف تتشكل الاشياء من مونتها؟، يتحدث تشوانغ تسه عن سيرورات تخلخل وتكاثف وانفصال واتحاد تقف وراء الكون والفساد: التكاثف منشيء والتخلخل مفسد، وكذلك الانفصال والاتحاد. وهي حركة ابدية للين واليانغ تذكرنا بالحركة الابدية لهواء انكسيمانس وابيرون انكسماندرس، تذكرنا فقط، فليس في طوقنا الادعاء بأن الفيلسوف التاوي قد سمعها من احد وهو يعتكف داخل السور العظيم، ولا يعرف شيئًا عن "البرابرة" الذين يعيشون فيما وراءه. وتتأكد

لدى تشوانغ من خلال سيرورتي التخلخل والتكاثف علاقة الاشياء ببعضها، اعتمادها على بعضها في الكون والنمو والانحلال. فليس هناك خلق مستقل، وليس هناك نشأة دفعية. التخلخل والتكاثف متدرجان، متناوبان، تبدأ الكينونة، من اللاصورة ثم تتصور بالاتحاد حتى تبلغ الصورة ذروة اكتمالها، وهي في هذه الاثناء خاضعة لعشرات الوف التأثيرات، متعلقة بعشرات الوف الاشياء، ثم تأخذ عند نقطة الاوج في الانحدار حيث يبدأ التفكك والانفصال فالتلاشي الذي يسمح بدروه لشيء اخر بالظهور عبر سيرورة اتحاد جديدة. لكن هذا محض افتراض لتسيهل الفهم، والا فالحدود بين البداية والنهاية من الضآلة بحيث لا تدرك، وبين نقطة البدء ونقطة المنتهى عدم تميز يصعب معه تخصيص احدهما بالاشارة، لأن الكينونة لا تجري وقف ناموس الميكانيك بل هي شبه سيرورة ديكالتيكية. يقول تشوانغ تسه: الين واليانغ يؤثران ببعضهما يدمران وينتجان بعضهما. الفصول الاربعة يتخلى بعضها لبعض ينتج بعضها بعضاً وينهي بعضها بعضاً.... ومن هنا يأتي الانفصال والاتحاد للذكر والأنثى في تغير متبادل... التعاسة والسعادة ينتج بعضهما بعضاً. السيرورات الوئيدة والمسرعة تتدافع، تتداخل الاشياء بتأثيراتها المتبادلة، الأن تمضي صعداً، الآن تدور، وحيثما تتلاشى تنبعث ومهما انتهت تبدأ..

وتداخل الاشياء هو مناط وحدتها:

كل شيء هو بعض شيء

ليس من شيء لا يكون بعضاً لشيء"

ويغالي تشوانغ في ديالكتيكه فيتساوى عنده البدء والمنتهى حتى ليفقد القدرة على تمييز الاشياء:

"ان تقوم بتمييز هو ان تقوم ببعض التركيب. لكن البناء كالتخريب. وبالنسبة للأشياء ككل لا يوجد بناء او تخريب: انها تميل الى الاتحاد وتصبح واحدة.".

لكن الديالكتيك ليس وحدة فقط وإلا وقعنا في احادية برمنيدس، في كونه المصمت الذي لا يقبل التعدد ولا التضاد. فهل يريد تشوانغ من هذا التوحيد الصارم للموجودات ان ينكر تمايزها، ان يتجاهل ان الكون الواحد اشياء وليس شيئاً واحداً؟

ليس لدينا اجابة جاهزة، لكن تشونغ يقول بنسبية الاشياء حيث ينعدم الفرق بين الكبير والصغير والشاهق والغائر وحيث يتسع منبت شعرة واحدة لما يتسع له جبل تايشان. وبين نسبية الكائنات ووحدتها رحم ماسة: ان ذوبان الفروق بين الشيء والشيء هو عين الوحدة، التي تضع منبت الشعرة في مكان جبل تايشان وجبل تايشان في منبت الشعرة. لكن النسبية لا تلغي الهوية، وإلا لم تكن نسبية بل وحدة برمنيدية مطلقة، وهذا مالا يصرح به تشوانغ الذي يتحدث عن الاشياء بوصفها اشياء اي كتلة من الكائنات المتمايزة بالاسم والهوية. ان ما يريدنا ان نفقهه لا يتعدى في الحق هذه السيرورة الديالكتيكية للكون والفساد، وهو مالم يخطر على بال ارسطو الذي تصور للسعادة شروطاً من جنسها، اذا اكتملت كانت السعادة واذا لم تكتمل لم تكن، اما ان تأتي السعادة من التعاسة فتلك هي الهرطقة التي يأباها منطق الثالث المرفوع وقانون عدم التناقض.

هذه الوحدة التبادلية تلف موجودات الارض كلها. وهي سر ديمومتها في هذا المسار البعيد، اللابدئي واللانهائي. لكن الارض ليست الا جزءاً من الكون من هذه المادة المنبسطة التي تملأ فراغ العالم. وهي بالتالي في وحدة مع الكل:

السماء والارض، وانا جئنا الى الوجود معاً وكل الاشياء معي واحدة.″

ولا يذهبن وهم القاريء الى الكون الدفعي فالحكيم التاوي لا يعنيه، لانه لا يعرفه، وليست المعية هنا الا وحدة الاصل والمنشأ، وحدة الشروط والعلاقات التي يوجد الشيء مرهوناً، مشروطاً، بها، وهي في اخر المطاف: نشوء الكل من المبدأ، وعودته الى المبدأ.. التوحد في التاو. ها نحن امام وحدة الوجود: ليس التاو، عرشاً يحمله ثمانية، بل مطلق داخل في تخوم النسبي. وهو كما علمت فيما سلف حاضر في الكائنات لا يفصله عنها مسافة في الزمان ولا في المكان، ذلك مايقوله تشوانغ: هو في كل مكان. وعندما سئل: مثله لنا قال:

انه هنا في هذا النمل، في الادغال، في الآجر والقرميد.. وفي الروث ايضاً.

ان ما تطير منه حنابلة الاسلام يصرح به تشوانغ بلا حياء. لقد هالهم ان يدّعي المتصوف ان ربه، حالّ في كل شيء وكل مكان: "وهو معكم اينما كنتم" وما دام قد توحد في موجوداته فأي شيء يخلو منه؟ ذلك هو مقتضى الوحدة في الوجود بصرف النظر عمن يكون المطلق، رب ابن عربي ام تاو تشوانغ تسه. وهو في هذا الحلول لا بد ان يفقد تفرده مكتفياً من مطلقيته بالخلود في الحركة، أي بالثبات وسط التغيرات، من اجل ان يبقى رافداً للموجودات. وبهذه الطريقة يتمودد المطلق ليصبح القوة الكامنة في الشيء، المحركة له، وليكن هذا الشيء ذهباً او روثاً فحركات الطبيعة واحدة في كل مخلوقاتها.

ولكن لماذا نشم من تشوانغ رائحة التسبيح لهذا المطلق الذي احله في الروث؟ يمكن في الحقيقة ان نبصر في هذا تكريماً للوجود والا فقد انكرت

التاوية ان يكون للعالم صانع من خارجه. يقول شيانغ فو، من تاويي القرن الثالث للميلاد:

"أريد ان أسأل ما اذا كان الخالق ام لم يكن؟ اذا لم يكن فكيف خلق الاشياء؟ واذا كان فمعنى ذلك انه واحد من هذه الاشياء، وكيف يستطيع شيء ان ينتج اخر؟"

ويخلص شيانغ من هذا التساؤل:

"من هنا ليس من خالق. ولا شيءُ ينتج شيئاً. كل شيءُ ينتج نفسه ولا ينتج من الغير. هذا هو النهج السوي للكون".

لكن الاستاذين لاوتز تسه وتشوانغ تسه تكلما عن التاو بوصفه موجوداً ولعلهما فكرا بالتعويض به عن الخالق الشخصي باحلال مبدأ غير شخصي محله. فماذا يقول التلميذ شيانغ؟ هو طبعاً يقول بالتاو جريا على سنن الاساتذة، لكنه يقوم بطفرة، من اجل ان يضع التاوية في نصابها المادي، حين يؤول التاو الى "اللاشيء". يقول شيانغ: ان قول التاويين الاوائل بأن الاشياء تنشأ من التاو يعني ببساطة ان كل الاشياء تنشأ من انفسها. ومن ثم قالوا ان التاو قادر على اللاشيء." ويستطرد مؤكداً:

"ان القول بأن أي شيء منبثق من التاو يعني انه منبثق من نفسه".

مادية خالصة، يريد شيانغ ان يجرد فلسفة الاساتذة من اي هاجس ميتافيزيقي فيضع التاو مرادفاً للاشيء على ان التاو ليس الها بحال، ولم يكن لا المؤسس ولا تلامذته الاقربون مقرين بخالق فوق الاشياء وان تساءلوا عنه احياناً. لكن ما ينكره المادي شيانغ هو هذا البخور الميتافيزيقي الذي احاطوا به المطلق، وكأنه خاف من ان يصبح معبوداً فأمر بقطعه، كما

فعل عمر بن الخطاب من بعده بالشجرة. ان شيانغ فو احد الملحدين الكبار في تاريخ الفلسفة.

واذ تنكر التاوية وجود المهيمن فانها لا تقول بالصدفة، ان احساس الحكيم التاوي بحكمة الوجود واتساقه وانتظامه، مرهف جداً، ومن هنا كان التاويون اقدم من استبصر الضرورة في العالم واقدم من قال بالترابط بين الاشياء وقنون تحولاتها كما قنن حدودها وفاعلياتها:

"لم نأت الى الحياة بغتة، ولا بالصدقة. الكون ممتد للغاية، الاشياء عديدة للغاية ونحن بينها مانحن عليه تماماً. مالسنا نحن لا نستطيع ان نكونه. ما نحن عليه لا يمكن الا ان نكونه ماليس لنا ان نفعله لا نستطيع ان نفعله. ما يسعنا ان نفعله لا يسعنا الا ان نفعله."

وهذه ضرورة تقرب من الجبرية، لولا ان التاويين يخرجون منها بالنقيض:

".. دع كل شيء يكون ما هو عليه فسيكون السلام".

واذ تقر التاوية بالضرورة فهي تنكر الغائية. وعن الغائية يرد في كتاب ليه تسه حكاية ظريفة لها مدلول عميق نختتم بها هذا القسم من التاو:

اقام السيد تيان، من دولة تشي مأدبة في قصره حضرها الف ضيف. وكان يجلس في وسطهم فصارت اصناف السمك والطرائد تمر من امامه فقال باستمتاع شديد:

"كم هي سخية السماء على الانسان! تصنع السماء خمسة اصناف من القمح للنمو وتجلب قبائل مزعنفة ومريشة، مخصوصة لمتعتنا."

صفق جميع الضيوف ما خلا ولدا للسيد باو في الثانية عشر قال: ***"انها***

ليست كما قال سيدي. ان العشرة آلاف (الوانغ) مخلوق في الكون ونحن انفسنا ننتمي الى نفس الفصيلة. وفي هذه الفصيلة لا يوجد نبيل ووضيع. انه فقط بسبب الحجم والقوة او المكر، يسود احد الانواع على الاخر ويتغذى احدها بالاخر.. ولا واحد منها أُنتج لخدمة اغراض الاخرين. الانسان يمسك ويأكل ماهو مناسب لطعامه، ولكن كيف يمكن اعتبار ان السماء انتجتها له تماماً؟ ان البعوض يمتص من دمه والنمور والذئاب تلتهم لحمه، لكنا لا نستطيع القول ان السماء انتجت الانسان لمنفعة البعوض والذئاب والنمور".

التاو في المجتمع

بساطة التاو هي بساطة الجوهر المحرك للاشياء، وكما قال الملا صدرا الشيرازي فالبسيط هو اصل الكل. نقطة مشتركة بين الفلسفات: الاغريقية والصينية والمسلمة، وهي على تقادمها مقبولة من الفيزياء الحديثة التي ارجعت الاجسام الى اجزاء متناهية في الصغر تدخل في عداد الجزء الذي لا يتجزأ (أي الجوهر البسيط).. لكن بساطة التاو لها تعلقاتها في المجتمع لا في الطبيعة وحدها، ولعل الفيلسوف التاوي لم يكن يقصدها كحالة طبيعية الا من خلال حالتها في المجتمع، فأصل التاوية هو الموقف الاجتماعي المرتكس في فلسفة الطبيعة، وهي بذلك لا تختلف عن فلسفة كونفوشيوس وان كانت تتخطاها، فقد بدأ الاول من المجتمع وانتهى الى المجتمع، اما لاوتسه فقد بدأ مثله في المجتمع، ثم ارتقى الى الطبيعة، ومن هنا نعى التاويون على منافسيهم الكونفوشيين اهمالهم الطبيعة. مهما يكن الحال فان بساطة التاو كمبدأ للوجود، ترتهن في بساطته كموقف اجتماعي. وليس من خلاف بين تاو المجتمع وتاو الطبيعة الا في السجية المخصوصة لكل منهما، وهي خصوصية تقوم على الموضوع الذي يستمد تفاصيله في حالة الطبيعة من ماهية العالم، وفي حالة المجتمع من ماهية الانسان بوصفه كائناً اجتماعياً.

يستمد التاو الاجتماعي، تاو الانسان، بساطته من حالة اللافعل، وهو الاية الاولى في كتاب التاو وعليه تنبني نظرة لاوتسه واتباعه في مضمار المجتمع. واللافعل هو الصفة المشتركة للتاو ومنتجاتها: العشرة الاف شيء، ومنها الانسان. يقول **لاوتسه**.

"العشرة الاف شيء تعلو وتهبط بلا توقف، تخلق ولكن لا تمتلك، تشتغل لا لحسابها، تنجز العمل ثم تنساه، ومن هنا فهي تدوم الى الأبد" (فصل ٢).

اللافعل اذن هو سبب الابدية، ومنه فقط تستمد الاشياء خلودها. على ان سلب الفعل عند التاويين يتسع ليشمل سُلوباً اخرى:

"***باللارغبة يصل المرء الى المحجوب.***

وبالرغبة يصل المرء الى المشهود."

فمن سلب الرغبة تنفذ الى الغيب، جوهر الوجود وحقيقته، مخترقاً حجاب المشهود. و:

"اللااسم هو بداية السماء والارض".

أي انه بداية الوجود كله. فالوجود يبدأ من السلب مثلما ينتهي اليه، بل والسلب هو جوهر الوجود وحقيقته... وفي حياة البشر:

"عدم جمع الكنوز يمنع السرقة

عدم رؤية المرغوبات يمنع تشوش القلب"(فصل ٣).

أي ان يتعرى الانسان من الرغبة والثروة حيث يصبح سلب الملكية وفاء دون الاضطراب والانتهاك. ويشبه التاو اناء فارغاً تستعمله دون ان تحتاج الى ملئه. ولما كان التاو هو السلب المطلق فهو لا ينفد، ولا يستهلك. ان سر العالم هو الخلاء، وهو سر بقائه ولا تناهيه. ومن هنا، يقول **لاوتسه:**

"يتجول الحكيم دون ان يفعل شيئاً. ويعلّم دون ان يتكلم" (فصل ٢).

وفي الحكيم يبلغ التاو اقصى تجلياته، يندمج فيه اندماج المتصوف في السر الالهي ساعة الكشف. والحكيم لذلك هو بدوره سلب مطلق: لا يفعل. لا يرغب. لا يتكلم. لا يمتلك. لا يأخذ. لا يفتقر ولا يحتاج ولا يتظاهر.. ولا يتبجح ولا يفاخر... فارغ كالتاو، بل هو فارغ لانه مجلى التاو وتجسيدها البشري. وهو اذ يبلغ هذه المرحلة لا بد ان يلغي ذاته، وعند ذاك يتحقق فيه ماهية السلب المطلق:

"تخلوا عن الحكمة. تخلصوا من الفطنة يسعد بكم الناس اكثر مئة مرة". (فصل ١٩).

وهكذا فالحكيم لكي يؤدي رسالته كمجلى للتاو يجب ان يتخلى عن كونه حكيما، فوجود الحكمة مضاد لطبيعته كسلب مطلق. لكن هذا التخلي لا يتم رأساً. فهو يفترض المرور بمرحلة وسطى يكون فيها الحكيم حكيماً، اي يمارس الحكمة ويتعلمها ثم يعلّمها. والتاوية تعترف للحكيم بدور في العالم، اي انها تعترف به، بوجوده، وربما بضرورته فلا تنفيه قبل ان يكون وانما تنتظر كينونته لتنقله الى حالة اللاشيء المرتهنة بحالة اللافعل. ومن هنا تعترف التاوية بالتعليم، يقول تشوانغ تسه.

" في الاشياء المتولدة خطوط معينة تحدد صورها الجسمانية التي يتضمن فيها المبدأ الحيوي. كل كائن يؤلف بطريقته الخاصة جبلّته الخاصة. ومن هنا تحدره من المبدأ. وهي تعود الى المبدأ بالثقافة الاخلاقية والذهنية التي تقود الكائن الجزئي الى التطابق مع القوة الكونية الفعالة والاتحاد مع المبدأ الاول ـ الفراغ العظيم، الكل العظيم[١٩].

لكن التعليم هو الأخر بسيط، فهو يتم بلا كلام كما يحدده لاوتسه.

وهذا هو شرط ابلاغه الغرض المطلوب حيث يتحد بالمبدأ الاول الذي يعطيه تشوانغ ماهية الفراغ العظيم: اللاشيء وهي ماهية التاو الابدي المعرى من الأسماء والصفات والافعال.

ولكي تكون تاوياً يجب ان تكون بسيطاً في كل شيء. فالتاو يتعارض مع التركيب والغلو والافراط. والانسان التاوي هو الذي يعمل بلا فعل، أي انه ينتج ماهو خصيص به وينسحب دون ضوضاء او ادعاء او لجاجة. وهذه هي حالة الانسان العادي، لكنها ايضاً شروط الدولة المثالية. وفي هذا الصدد يدعو تشوانغ الى ترك الناس للطبيعة وتحريرهم من الخوف، اي من القمع ـ سياسياً او اخلاقياً ـ وهو يرى ان كل انسان قادر على ممارسة وضعه الطبيعي اذا ترك وشأنه. يعني ذلك ان تفعل الدولة اقل ما يمكن من الفعل، وان يصدر من القوانين اقل ما يجب. فمع كثرة الاوامر والنواهي كما يقول لاوتسه يكون الاضطراب والتشوش.. على ان تشوانغ لا يكتفي بتقليص الدولة الى هذا الحد الادنى، وانما هو يصرح بإمكان الاستغناء عنها. يقول: [٢٠]

"اذا لم يدنس الناس جبلّتهم ولزموا جانب الـ تي، فهل من حاجة الى الحكومة"؟

وسنجد هذا القول يتردد في الفكر الاسلامي على لسان فريق من الخوارج والمعتزلة بصيغة اكثر تحديداً: اذا اتفق الناس على التناصف ورد العدوان استغنوا عن الامام ـ أي عن الدولة... وعلى لسان اعمى المعرة الذي انكر كل سلطة غير سلطة العقل:

كذب الظن لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء.

ويتخيل الفيلسوف التاوي عصراً ذهبياً للحكم المثالي الذي ينشده وفق الصورة التي يرسمها صاحب "التوهج العظيم" الامير التاوي ليو آن: [٢١]

"دخل القدماء في حكم التاو: الرغبة منضبطة والعاطفة مسيطر عليها، فلم تسقط الروح في الغربة. استمدوا الراحة من سكون الخلق، فلم يزعجهم تاثير المذنبات ولا ذيل بنات نعش.. خلال هذه الحقبة كان الناس في حالة من البساطة التامة، يأكلون ويتنزهون، يمتعون بطونهم ويتمتعون، ينعمون معاً في بركات السماء ويأكلون من ثمرات الارض، لا يتشاحنون ولا يتبادلون التهم ولا يتنازعون على الحق والباطل.. وفي ايديهم السلام والوفرة".

هذه الصورة للماضي المفقود تقابلها صورة للمستقبل رسمها المسلمون لانفسهم فيما بعد. تقول نبوءة شيعية تنسب الى علي بن ابي طالب:

"لو قد قام قائمنا لارسلت السماء قطرها ولاخرجت الارض نباتها (الوفرة التاوية) وذهبت الشحناء من قلوب العباد (الوئام التاوي) واصطلحت السباع والبهائم (سلام شامل يعم الانسان والحيوان)، حتى تمشي المرأة بين العراق والشام لا تضع قدميها الا على نبات وعلى رأسها زنبيلها لا يهيجها سبع ولاتخافه".

وتتفق الصورتان للماضي التاوي والمستقبل الشيعي في الخروج من حالة العدوان المتبادل الى السلم الشامل ومن العوز المقترن بالخصومات الى الرخاء المقترن بالوئام، وبينهما تنفرد الصورة التاوية بالنص على البساطة كشعار للحكم المثالي الغابر، انسجاماً مع روحها العام. ويرتبط هذا النص من زاوية اخرى بصورة الماضي التي ينشدّ اليها الفيلسوف التاوي وترتكس لديه في حنين لا ينقطع الى حياة القدماء التي تصورها تجسيداً للافعل، في مقابل صورة الحاضر التي تقترن عند التاوي بتشويه الطبيعة: بذل الجهود الخارقة من أجل تحويلها دون أي نتيجة تذكر سوى مضاعفة رفاه الحكام و حصولهم على المزيد من الكماليات[٢٢].

هنا نضع ايدينا على السر؛ التاوي ضد المجتمع القائم على الجهد المفرط، وهو بالتالي ضد كل مؤسسات ومرافق هذا المجتمع. وبكلمة اخرى هو ضد المدنية، اي ضد الحرب، وضد التملك، أي ضد انقسام الناس الى اغنياء وفقراء. والمدنية عند الفيلسوف التاوي هي جماع هذا كله، بدليل ان القدماء عاشوا بلا مدنية وكانوا سعداء لم يعرفوا الحروب ولم يعرفوا التمايز الاجتماعي. هذه النزعات الخطرة يصرح بها ليو آن دون مواربة، مستطرداً من استاذه الأول لاوتسه الى حظر شامل ضد كل ما يشوه حياة البشر. يقول **لاوتسه**: (فصل ١٢).

الخمسة الوان تعمي العين

الخمسة انغام تصم الاذن

الخمسة طعوم تفسد الذوق

النفائس تقود الى الضياع

ويضع ليو آن هذه المقررات في الصيغة التالية:[٢٣]

"قديماً كان الملك يأخذ الف لي مربع، والملاكون مئة لي. وهذا كاف لهم. اما الآن فملكيتهم لا تعرف حدوداً، وهم يتصارعون لتوسيعها ويستخدمون الجنود لهذا الغرض حتى لقد اسالوا من الدماء انهاراً".

المعضلة اذن في التملك الزائد عن المعقول، او التملك الذي لا حدود له وهو واحد من وجوه المدنية التي ينعم بها الملوك والملاكون.

ومن اجل ذلك يكره التاويون الحرب الى حد اعتبار النصر والمأتم سواء، فالمستفيد من الحرب هم الحكام وهم الذين يعنيهم النصر الذي لا يتحقق الا بمجزرة يذهب الشعب ضحيتها. وسبب الحرب كما يحدده ليو آن هو عدم

توزيع الخيرات بالتساوي ومن هنا فإن دولة التاو لا تحتاج الى السلاح كما يقول، لانها تعيد الناس الى فطرتهم وتقنن حاجاتهم بالضروري دون الكمالي وتلغي الترف والنفائس فتقضي على مصدر الصراع. ويقارن مؤسس التاو بين حالتي السلم والحرب، فيعيد الى الذاكرة حلم السيف الذي يصبح محراثاً، ولذلك يندد التاويون بالعنف الكونفوشي فيقول صاحب "التوهج العظيم" ان الوسائل التي يستخدمها الكونفوشيون لارهاب العالم لا يستخدمها الانسان الكامل(٢٤).

وهو ما يرفضه لاوتسه واتباعه الذين دعوا الى نبذ العقوبات:

"المعايير العنيفة والعقوبات الغليظة ليست ادوات ملائمة للمستبد ولا للملك"(٢٥).

وثم اشكال كبير في هذا الصدد تثيره سطور من "تاوتي تشنغ" تقول: (٢٦)

"السماء والارض ليستا رحيمتين

انهما تعاملات عشرات الوف الاشياء مثل دمي القش.

ولا الحكيم رحيماً.

فعنده ايضاً مئات الناس ليست الا دمى من القش".

وقد اختلف علماء الصينيات حول المقصود بهذا النص. فاعتبره ويغر عنفاً شرائعياً وقال ان الارهاب المطلق هو ، عملياً، النتيجة المنطقية لمبادىء لاوتسه. ولا يمكن الركون الى استنتاج ويغر الذي ابدى تحاملاً ضد الفكر الصيني وعالجه من زاوية مهماته كمبشر (اشتغل في الصين في العشرينات حين كانت مقسمة بين الدول الامبريالية). بينما يعطي باحث اخر هو جون

سي. فيرغوسن تفسيراً مضاداً حين يعتبر كلمات لاوتسه رد فعل ضد عنف كونفوشيوس، وهو يستشهد لهذا الغرض بعبارة اخرى لفيلسوف التاو تقول "الانسان الاعتدائي لا يموت ميتة طبيعية"، وبكلمة في المقابل للكونفوشيين تقول: "ان الطبيعة تخلق في الربيع وتقتل في الخريف"، تبريراً للقتل بوضعه على سبيل المحاكاة للطبيعة(٢٩). ولم يوضح فيرغوسن مناط التفسير لكن القرينة عنده مستقاة من الخط العام للتاوية، وهو خط مناهض كما بينت للحرب والعنف. على أن ذلك في الحقيقة لا يحل الاشكال فعبارات لاوتسه مثيرة للحيرة ويمكن تفسيرها على وجوه مختلفة، شأن الآيات المتشابهة في القرآن. ويلاحظ غريل (٣٠) أن الشرائعيين وجدوا الشيء الكثير في "المظهر الهادف" لمثل هذه العبارات فاستخدموها لاغراضهم، متجاهلين معارضة التاويين للحرب والظلم.

وقد ترجم غريل هذا النص على النحو التالي:

"السماء والارض لا تميلان الى فعل الخير فهما تعاملان عشرة الاف مخلوق بلا رحمة والحكيم ليس محباً للخير فهو يعامل الناس بلا رحمة".

وقال تعليقاً عليه:

هذا المفهوم اذا ما اسيء فهمه يمكن ان يؤدي الى نتائج مروعة. ان التاوي المستنير اسمى من الخير والشر، وبالنسبة له فإن هذه الكلمات هي محض كلمات يستخدمها الجهلاء والحمقى.

ويستطرد غريل:

في هذا المفهوم للحكيم التاوي تكون التاوية قد اطلقت على البشرية ما يمكن تسميته بحق وحشاً لا يمكن، باي معيار أخذ، الوصول اليه ولا تحريكه ولا يمكن التأثير عليه بحب او كره او خوف او رجاء او شفقة او اعجاب.

ان غريل يبدو ميالاً الى تحكيم السلب التاوي في فهم هذا النص، فالحكيم اسمى من الخير والشر والعالم يصعب التأثير عليه، وبالتالي فلا جدوى من الفعل. ولكن هل من الضروري ان يتضمن تقرير الواقع كما يفهمه الفيلسوف التاوي توكيداً لمبدأ؟ ان غريل لا يقول ذلك. وتبعاً لتفسير فيرغسون فان هذا المبدأ متضمن كتوكيد مضاد للعنف الكونفوشي. ونفهم من ذلك ان لاوتسه يطرح تقريره هذا منددا لا مؤكداً لواقع. ولكنْ لاوتسه لا يندد بالطبيعة، والسماء والارض عنده لا تخطئان، ومن هنا يصعب قبول ما يقوله فيرغسون، كما يصعب الوقوف عند اعتباطية ويغر المتحاملة. وعندي ان عنصر السلب المطلق اساسي في تفسير هذه الآية التاوية، لكن غريل يذهب الى ابعد من المطلوب حين يعتبر البشرية في نظر الحكيم التاوي وحشاً لا يمكن ترويضه، التاوية لا تقول ذلك رغم سلبيتها التامة، وهي من منطلق ثقتها بامكان التغيير والتاثير (في المجال الاجتماعي) تدعو على لسان تشوانغ الى الثقافة الاخلاقية والذهنية، وتعطي على لسان الاب لاو مهمة حاسمة للحكيم، هي التعليم، بدون كلمات، اي التعليم بدون تدخل، بدون جهد زائد يحول ما هو طبيعي وعفوي الى مفتعل ومتكلف. والتاوية لا توافق على اي مفهوم ارهابي، ولو من قبيل تقرير الامر الواقع، لانها ترفض في الاساس نزعة الافراط في كل شي: في الخير والشر على السواء، فضلاً عن النصوص الصريحة والمباشرة التي تدين الارهاب والحرب والعقوبات.

هذا هو مجمل ما يمكن ان يقال بصدد هذا النص المحير. ويتحمل الوحي التاوي وحده تبعات اي استغلال في الفهم او انحراف في التأويل بايغاله في تقرير السلب الى حد الافراط في التعميم مما سنجد امثلة كثيرة عليه في فصول تشوانغ تسه المترجمة في القسم الثاني. ويبدو أن الحكيم

التاوي قد استسلم لهذه التعميمات مفترضاً ان الناس سيدخلون من جيل الى جيل في قلبه ليتعرفوا عن كثب هواجسه الحقيقية..

* * *

من بساطة التاو، يذهب الباحثون الى الحديث عن التصوف والزهد التاويين. فالبساطة مرادف للزهد، او هي جوهره، والزهد يعني عدم الافراط والاسراف بقدر ما نستطيع اعتباره مبدأ تاوياً، لكنه في نفس الوقت مضاد للحرمان. فالتاويون لم يحرموا التمتع بالطعام والشراب وانما حرموا الاسراف فيهما، والزهد التاوي في هذه النقطة قريب للزهد الاسلامي بقدر ما يتضمن الاعتدال بين التخمة والجوع. يضاف الى ذلك شرط يخص الحكيم وهو ان يبتعد عن السلطة. ومع ان لاوتسه كان موظفاً في الدولة فإن ذلك لم يصبح سنة لدى التاويين لا سيما وان وظيفته لم تكن سياسية بل ثقافية بحتة اذ كان يعمل في المكتبة او ما يسمى حالياً الارشيف، وهي وظيفة لا تتضمن منصباً رفيعاً. وقد حاول بعض الملوك استدراج حكماء تاويين للانضمام اليهم فرفض بعضهم متمسكاً بالمبدأ، وضعف اخرون فتعاونوا مع السلطة، ولكن بدافع تعزيز مكانة المذهب بالدعم الرسمي. وهو ما فعله المعتزلة مع المأمون وخلفائه بانتهازية فاضحة. ويتحدد منحى الحكيم التاوي في هذه (*) المسألة بجواب رد فيه تشوانغ تسه على مبعوثين من ملك "وي" اراذوه على الالتحاق ببلاطه:(٣١)

"اغربوا عني، لا تدنسوني. انا افضل التمتع بارادتي الحرة".

لكن الحكيم قد يضطر الى قبول العمل الرسمي، وفي هذه الحالة ينبغي عليه ان يعمل بأقل جهد ممكن ، أي يراعي التاو في اداء واجبه الرسمي الذي اكره عليه.

ويشذّ التاويون عن مباديء الزهد في مسائل الباه(الجنس). فعندهم ان الجماع تغذية للحياة وليس امرأ نجساً او معيباً. ويقوم الجماع التاوي على المساواة بين الرجل والمرأة من حيث اللذة ويؤكد فيه على "تهييج" المرأة بوصفه عاملاً اضافياً يرفع من القوة الحيوية للرجل. ويشترط تكنيك الجماع مشاركة ايجابية بين الجنسين وهو شرط تساعد مراعاته على حفظ الصحة وطول العمر؟ ويقدم التاويون وصفة لمنع الحمل مادام الجماع لا يستهدفه حصراً، تتم بالضغط في اسفل القضيب من جهة الخصية لتسريب المني الى المثانة لحظة القذف. وتتجاوز اغراض هذه الوصفة منع الحمل الى فائدة اخرى للرجل، اذ يقول التاويون ان التخلص من القذف يسمح للمني او جزء منه، ان يعود ليغذي الدماغ(٣٢). وفي هذا التخريج انحياز واضح الى جانب الرجل يتعارض مع مبدأ المساواة في الجماع التاوي.

ان استثناء الباه من مفهوم الزهد مشترك بين التاويين وبعض الزهاد المسلمين، وقد نص القاضي عياض في "الشفا" على ذلك وأوضح في كلامه على زهد النبي محمد انه يشمل الطعام واللباس والسكن ولا يشمل النساء. ولا ادري ان كان التاويين على اتفاق في هذه المسألة، فالأب لاو لا يتحدث بشيء عنها في "تاوتي تشنغ"، والكثير من أئمة التاو في المرحلة الفلسفية كانوا من النساك وفي طليعتهم تشوانغ تسه الذي عاش حياة قريبة الى حد ما من حياة المعري. فلعلها اذن من توجهات المرحلة الدينية، يحملني على ذلك ما كتبه التاوي المنشق تشين لوان عن "احتفالات ورقص طقوسي للتاويين تباح المرأة خلالها على طريقة الزواج الجماعي المقدس"(٣٣). وتتم مثل هذه الاحتفالات عادة في جو ديني يشرف عليه الكهان، فإذا صحت الرواية كانت مرشداً لنا في تحديد المرحلة التي

حصل فيها هذا التوجه عند التاويين، وهي كما رجحت، مرحلة الدين التاوي الخارجة عن خط الفلسفة التاوية. على اية حال فإن هذه النزعة الغريبة في مضمار الجنس ـ الباه ـ ليست شاذة عن جموحِ وغرابة الخيال التاوي وان كانت لتبتعد عن مقتضى البساطة التي يتجوهر فيها الموقف التاوي من الحياة.

* * *

ما هو سر هذه البساطة البسيطة في التاو؟ ولماذا يعلن اهل التاو عداءهم للمدنية ومؤسساتها؟

قبل ان نحاول الاجابة يحسن بنا ان نتعرف ما يقوله احفاد لاوتسه عنه. ونأتي الى ماوتسي تونغ، الخالق الجديد للصين، فنراه يعلن غضبة مضرية على التاوية ومؤسسها بلغت حداً مروعاً حين قرن في شتيمة واحدة بين كونفوشيوس ولاوتسه وشيانغ كاي شيك بوصفهم اعداء الشعب الصيني. (انظر المجلد الخامس من مؤلفاته المختارة). وقد يكون للثائر الكبير عذره في هذا الجمع الشاذ بين رب التاو وكونفوشيوس وحاكم الصين الفاسد شيانغ كاي شيك، اذا وضعنا في الحسبان تاوية المرحلة الدينية. ولكننا نعلم من الجهة الاخرى ان الدين التاوي لا يجمعه جامع مع فلسفة الاب لاو، وهو ما يلاحظه معنا المستعرب الصيني الراحل ماتشين المعروف باسمه العربي (**محمد مكين**) حيث يقول: ***"التاوية ليست مبنية على اصول لاوتسي بل هي ناشئة عن فروعه ومشوبة بالخرافات القومية، وأن هي الا بدعة في مذهب لاوتسي ظهرت بعد وفاته بخمسمئة سنة"***[٣٤]. لكن ماو تسي تونغ معني *ايضاً بتحديد موقف من اسلافه، موقف يراعي الظرف السياسي المتجرد عن ملابسات التاريخ من اجل ان يزيح العقبات من امام الصين. والتاوية،*

كدين، هي مثل قرينتها الكونفوشية، من عقبات الصين الحاضرة. ومن هنا فإن شتم لاوتسه هو من قبيل شتم الانبياء الذي يمارسه المارقون في المعتاد.

ثمة اعتبار آخر يمكن ان يطرح في هذا الصدد، ذلك ان ماوتسي تونغ لا يجهل ان لاوتسه فيلسوف وليس نبياً، ولا بد بالتالي ان تكون الشتيمة قد تأثرت بهذا الفهم وليس بالموقف الديني وحده. وها هنا سر: ان ماو كقائد سياسي، وكفيلسوف من بعض الوجوه، يقف على الشاطئ المقابل لفيلسوف التاو، اولاً لان ماو يفهم المدنية على انها معاناة الجنس البشري في انتقاله من طور ادنى الى طور اعلى، وما تنتجه المدنيّة من مآسي وويلات هو من آلام المخاض وليس خروجاً على الطبيعة كما يقول لاو. وماوتسي تونغ ماركسي متشدد يصل في تعامله مع الماركسية في بعض الاحيان الى حمأة المادية الميكانيكية(المبتذلة) فهو بالتالي لا يملك ذلك الحنين الى طهرانية وعفوية المجتمع المشاعي التي لم يتورع كارل ماركس عن التغني بها وهو ينظر بعين الاشمئزاز الى ما تنتجه الرأسمالية المتمدنة..ان ماو يملك فكر ماركس ولا يملك اشواقه، فلا نتوقع منه ان يوفر عذراً للسلف الكبير لاوتسه.. وسر آخر قد يكون أدهى من هذا.. أن ماو يتناحر عدائياً مع التاو في مضمار الجهد المفرط. لقد خاض ماو اكثر الجهود افراطاً، مالم يخضه قائد ثوري قبله او بعده، وبعد ان استوى على الصين القى بملايينها في معارك الجهد المفرط لتعمل بوتيرة من الافراط لا تماثلها وتيرة في كل بلاد الدنيا. وعلى يدي ماو حل في الصين محل اللافعل التاوي مبدأ اللاراحة الذي يتعامل مع الفرد بوصفه آلة متحركة. وفي موقف كهذا لا يدهشنا ان يوضع فيلسوف اللافعل في قائمة اعداء الشعب الصيني الى جانب تشيانغ كاي شيك.

لكن ذلك لا يعفي ماو من نقيصة المادي المبتذل، لا سيما بعد الثورة الثقافية التي كرست انتصار الوعي الفلاحي على الماركسية المثقفة. وللمقارنة اورد موجزاً لما تحدثت به موسوعة صينية صدرت قبل الثورة الثقافية عن لاوتسه.

تقول الموسوعة، التي سحبت من التداول: (٣٥)

"يفسر كتاب لاوتسه تغير الاشياء بالتاوية وهو يشير الى ان التاو نجم من الطبيعة. ويمكن ان يشرح التاو بأنه ":القانون الطبيعي" أو"الجوهر الذاتي" للاشياء. وقد وردت في كتاب لاوتسه بعض عناصر الديالكتيك العفوية فقد "بين هذا الكتاب ان كل شيء يحوي تناقضاً بين طرفيه وتحولاً متبادلاً بينهما. ولقد قال: تكون التعاسة من السعادة وتأتي السعادة من التعاسة" ورأى في كيان كل شيء وحدة بين الوجود والعدم بحيث يمكن للعدم ان يتحول الى وجود والوجود الى عدم. وكان لاوتسه يندد بالحكام قائلاً: ماجدوى تهديد الشعب بالموت وهو لا يخاف منه؟. بيد انه اهمل الدور الذي يؤديه الصراع في التغير المتبادل ولم ير في تحول الشيء الى نقيضه ارتقاء الى طور اعلى بل اعتبره تكراراً دورياً. وفي الحياة المادية دعا الى الكفاف وعدم السعي وراء المآثر والمفاخر متوهماً امكان عودة الناس الى الحالة البدائية.. وقد اثرت فلسفة لاوتسه في تطور الفلسفة الصينية الى مدى بعيد.."

إن هذا الاتزان المنهجي القائم على مراعاة روح الديالكتيك الماركسي في فهم التاريخ والتطبيق الحصيف لمبادئ المادية التاريخية يختفي بعد الثورة الثقافية، حيث يؤول لاوتسه الى فيلسوف رجعي وقف الى جانب المجتمع العبودي ضد المجتمع الاقطاعي المتقدم، وتُفسر فلسفة لاوتسه وتلميذه تشوانغ تسه على انها حنين الى العبودية الافلة وثورة ردة على حضارة الاقطاع. ويلاحظ هنا ان تقييم التاوية بهذا الشكل يتساوق مع شتائم

ماوتسي تونغ التي استهدفت كما قلنا غرضاً سياسياً محدداً.

مهما يكن الحال فان لاوتسه اثار ويثير ارتكاسات لا تنتهي، ولا تتوقف عند حدود الصين، وتكمن اثارته في هذه اللغة المغامرة التي يستخدمها، واتباعه، على النقيض من الفلاسفة والحكام ايضاً. ان التاوية تعلن الحرب على الحياة البشرية وتدعو علناً لتدميرها واحلال حياة اخرى تتولاها دولة بسيطة هي دولة التاو التي تعتمد على خمسة اصول:

١ ـ مقدار معتدل من السكان.

٢ ـ شعب خام، غير متعلم.

٣ ـ سلم دائم.

٤ ـ عزلة دائمة عن العالم.

٥ ـ ... ولا مرتفقات حضارية.

انها اذن دولة البساطة التي تعود بالناس الى سنة الاولين: وهم العودة الى الحياة البدائية كما يقول مؤلفو "محيط الكلمات الصينية"، ذلك الوهم الذي يحيله نيدهام الى تصور فلسفي واع لمجتمع بدائي متجانس يحلم التاويون ببنائه على انقاض المجتمع القائم.

ان الرغبة في تدمير الحضارة مصرح بها في كتابات التاويين دون مواربة او خجل. وتنبثق هذه الرغبة الخطرة من احساس مرير ضد امور معينة اثارت اشمئزاز الفيلسوف التاوي فانكرها، وذهب من الانكار الى الدعوة لازالة ما يسببها. واذ لم يسعفه وعي المرحلة بالبحث في العلل الموجبة لهذه الامور، فقد جمع بين المذنب والبريء في لائحة اتهام واحدة ضمنها كل اداناته. لنقرأ هذا العرض الذي يقدمه ليوآن:

"بانحلال دار تشو اختفت البساطة وفسد الطهر وبدأت النظريات المتشككة بالظهور. وجاءت النظريات الكونفوشية وظهر الرأي الفردي فبدأت الخصومات والمماحكات. واقام الكتاب الكونفوشيون مدارسهم للموسيقى والرقص، وبتطريز كلامهم بمقتبسات من كتاب "الاغاني" (٣٦) اشتروا السمعة واشتهروا بين الناس.. نظام الطقوس في المقابلات الامبراطورية او الاجتماعية صار مفرطاً. الازياء صارت مترفة.. ولعدم قدرة الجمهور على مواجهة تكاليف الاحتفالات الطقوسية صاروا يكونون انفسهم في المدارس والروابط. وصار لكل واحد رغبة في أن يكون له رأيه الفردي ونظراته المتشككة.. لقد صاروا كهان العالم[٣٧]*"*.

المشكلة تبدأ عند ليوآن من يوم اختفت البساطة وتوقيته من يوم انحلال عترة تشو، وهذه هي ثاني عترة حاكمة في تاريخ الصين ويتصل حضورها التاريخي ببقايا المجتمع البدائي التي صمدت للدولة والمدنية، وتركت قطاعاً واسعاً من الناس يعيشون على الطبيعة والفطرة... كما كانوا منذ الوف السنين. لكن ذلك لم يستمر مع العترات اللاحقة فالتطور الاجتماعي آخذ مجراه والمدنية تسحق بقايا الروح البدائية لحساب النظام الكونفوشي البالغ التعقيد والمناهض للطبيعة. وبصرف النظر عن دقة التوقيت التاوي لعصر البساطة، فإن المدنيّة التي توطدت مع الكونفوشية هي مدنية الطبقات التي تحتجن الكنوز وتحرم الناس من ادنى احتياجاتهم، وهي مدنية الحرب التي يموت فيها الوف الناس من أجل اهداف لا علاقة لهم بها، وهي قبل هذا او ذاك مدنية الجهد المفرط الذي لا يتحصل منه شيء: الفعل الذي ينتهي الى العقم، والقوة التي تنتهي الى الضعف. واذ كانت هذه المتاعب التي يلقاها الناس من ولادتهم حتى مماتهم تقترن بالدولة والمدنيّة فإن ازمة الفكر التاوي لم تلبث ان تمحورت حول هذا القرين، وجعل التاوي همه في انقاذ الناس

من سر البلاء فكانت الثورة ضد المدنية ومؤسساتها. وهي في اصولها الاجتماعية ثورة على الوضع الطبقي الذي طرح الناس في لجة الضلال الابدي وحرمهم راحة العقل والروح. ومن هنا دعوة الفيلسوف التاوي الى التوحد مع المبدأ، نفس الصدى الذي ردده المتصوف المسلم في دعوة الفناء في الذات، وهي هنا مطلق الصين: التاو، المبرأ من صفات المجتمع الطبقي المتعالي عليه والمتوغل في اغوار الطبيعة، بعيداً عن المدنيّة والصنعة. ان العودة الى المبدأ هي العودة الى الطبيعة، اي الى ما قبل الطبقات، من اجل ان يتخلص الانسان من الرغبات المفرطة التي تقف، تبعاً لحدس التاوي، وراء الحروب وتدفع الى سن قوانين العقوبات، وتحرم الناس من حقهم في الكفاف بتكديس الذهب واليشب في ايدي الملوك والسادة.

من الواضح اذن ان التاوية منذ المؤسس كانت ثورة ردة ضد التمدن صدرت عن موقع مضاد للوضع الطبقي في الصين، منطلقة من وعي لمزايا المجتمع البدائي الذي كانت بقاياه لا تبرح ماثلة في بقاع من الصين يوم كانت تعاني مخاضات الخروج من العصور القبحضارية. والتاوية تحدد بهذا الموقف فهما للمدنية صرح به فردريك انجلز فيما بعد حين عرفها بقوله انها: "استغلال الانسان للانسان". ومن هذه الجهة يمكننا وضع التاوية في عداد ثورة ضد ـ طبقية ترتكس فيها مأساة المجتمع المتمدن. وقد ضلت التاوية سبيلها السوي حين وجهت اسلحتها ضد الاصل والفرع. وكان حرياً بها لذلك ان تثير الهلع لدى الكثيرين: حماة المدنيّة المتعلقين باهدابها. وبناة المجتمع الجديد الذين ازعجهم سلبها المطلق، وهي الى هذا كله مسئولة ايضاً عن الكثير من البلبلة التي يخطط لها مفكرو الطبقات السائدة مستفيدين من دعوتها اللجوج الى الكفاف والنسك. ورغم انها دعوة موجهة في

الاصل لمن في ايديهم القدرة والثروة، كما هي لأهل الحكمة دون عامة الناس فإن تعميمات اللغة الفلسفية بافراطها عند التاويين تتيح استثمارها لتخدير الفقراء، أي جماهير النساك انفسهم. لكن التاوية لا تعدم العذر بموقفها كتيار مضاد للطبقات وفي تراثها المحمل بعناصر الاحتجاج ضد الابتزاز الاجتماعي والسياسي المتلبس بالمدنيّة. وهو الاتجاه الذي يعبر عنه بقوة استثنائية كتاب التاو الأول (تاو تي تشنغ).

والى هذا ينبغي الالتفات الى هم كبير تشترك فيه التاوية، وبالأساس من خلال كتابها الاول، مع التصوف القطباني في الاسلام ويتمثل في سعيها لتكييف شخصية الفرد، المثقف في المقام الأول، بتكوينات حرة تتضاد مع سلطة الدولة وسلطة المال، (في حال التصوف القطباني تضاف سلطة الدين، الذي لا يتمتع في الصين بنفس حضوره الطامي في عالم الاديان السماوية) وللاستقلال عن الدولة وامتدادها الطبقي (الاغنياء) مكانة محورية في كتابات التاويين. وهي في تأكيدها لهذا النزوع، الذي تتصوره مجاراة للطبع، تتضمن ما يضاد مبدأ اللافعل بسلبيته الظاهرية، لانها في الحقيقة دعوة الى مناهضة الحاجات الطبيعية بما تقتضيه من قوة ارادة يتمتع بها الحكيم الذي لم يصل الى الحكيمية الا بعد جهد مفرط بذله في اعادة تكوين نفسه ليس للتطابق مع مقتضى الطبع بل للخروج عليه. والتاوية تنزج في مفارقة حين تسمى دعوتها "انسجام مع الطبيعة"، فهذا المطلب يستوفيه الحكام والاغنياء على نحو افضل باستجابتهم لحاجات الجسد والنفس: الأكل والشرب والجنس والشهرة. وهي حاجات تقع في اصل الطبيعة البشرية التي سيقول عنها ابو العلاء المعري انها مضادة للعقل، وان الانسان، في حكيميته المعروية، وهي تاوية أيضاً، يفني عمره في صراع ضد الطبع:

والعقل حارب تكويناً بجاهده   فالعقل والطبع حتى الموت خصمان

ومن هنا سيبقى للتاوية ما تقوله لنا في كل جيل من وراء لغتها السائبة، وسيكون في ذلك مبرر كافي لمواصلة القراءة في سفر التاو.

الهوامش

(١) انظر نيدهام: Joseph Nedham

Science and Civilization in China Volume ll - History of Scientific Thought Cambridge University Press 1956, p154.

(٢) انظر: ويغر

Dr. Leo Wieger. A Histiry of the Religious Beliefs and Philosophical Opinions In China.

الترجمة الانكليزية لـ Edward Chalners Werner

Hsien - Hsien Press 1927 p568 - 569.

* تشاو قوي تشين: قوي بالقاف الحميرية الساكنه. والواو المكسورة.

(٣)ويغر:

(٤) محيط الكلمات الصينية ـ اعداد هان بيو تسوهاي. طبعة تجريبية لم تنشر ـ ١٩٦٥ .

(٥) نيدهام ٣٩

(٦) نيدهام ٣٩

(٧) فونغ يولان: A Shirt History of Chinese Philosophy New York 1948.

(٨) في مقدمته لكتاب "خونغ ليه" ـ التوهج العظيم. انظر طبعة شانغهاي للترجمة الانكليزية التي اجراها ايفان مورغان سنة ١٩٣٢ . P. ١١١

(٩) المصدر السابق ـ فصل حركة الروح الكونية.

(١٠) ويغر ١٤٨

(١١) ويغر ١٤٩

(١٢) ويغر ١٤٦

(١٣) ويغر ١٤٦

(١٤) التوهج العظيم، ص ٣١

(١٥) اورده الفخر الرازي في تفسيره عن كتب الشيعة. ج ١٧٩/١٩ .

(١٦) انظر سورة الانبياء: او لم ير الذين كفرو ان السماوات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما؟

(١٧) ويغر ١٥٨ - ١٥٧

(١٨) فونغ يولان ٩٧

(١٩) نيدهام ٤٠

(٢٠) نيدهام ٤٢

(٢١) نيدهام ٤٤

(٢٢) فونغ يولان:

A History of Chinese Philosophy. Translated by Derke Badde. Leiden 1953, p. 112.

(٢٣) فونغ يولان (الموسع) نفس الصفحة.

(٢٤) فونغ يولان - ص ١١٣

(٢٥) فونغ يولان - نفس الصحفة.

(٢٦)فونغ يولان - ٢٢١

(٢٧) نفس المصدر٢٢١

(٢٨) نفس المصدر ٢٢٣

(٢٩) نيدهام ٥٦ - ٥٥

(١٩) ويغر ١٦٠

(٢٠) فونغ يولان - موسع - ١٠٦

(٢١)التوهج العظيم ٣٥ .

(٢٢)نفسه ٨١ - ٨٣ .

(٢٣)نفسه ٩٧ .

(٢٤)نفسه ٤٥ .

(٢٥)نفسه ٨ .

(٢٦) تاوتي تشنغ فصل ٥ .

(٢٧)نسبة الى المذهب الشرائعي (فاجيا) وهو من مدارس الفلسفة السياسية، اسسه

هان في تلميذ الكونفوشي شون تسه. ويقوم هذا المذهب على فكرة الدولة الفاشية التي تستخدم الارهاب المطلق لفرض القانون. وقد اقترن اعتناقه رسمياً في بعض الحقب من تاريخ الصين بمذابح كبرى ذهب ضحيتها مئات الوف الصينيين.

(٢٨)ويغر ٢٤١ .

(٢٩)انظر: مقدمته للترجمة الانكليزية (التوهج العظيم).

(٣٠)الفكر الصيني من كونفوشيوس الى ماوتسي تونغ. الترجمة العربية ـ ص ١٦٨

(٣١)موسع يولان ـ ١٠٤ .

* وي بفتح الواو.

(٣٢)نيدهام ١٥٠ .

(٣٣)نفسه ١٥٠ .

(٣٤)في محاضرة بالعربية عن الاسلام في الصين القيت وطبعت في القاهرة عام ١٩٣٧ ص ١٦ .

(٣٥)عنوان الموسوعة: محيط الكلمات الصينية. طبعة ١٩٦٥ . وقد ترجم الفقرة المتعلقة بلاوتسه لاستعمالي الشخصي السيد شينغ تشن خو احد العاملين في دار النشر باللغات الاجنبية في بكين.

(٣٦)كتاب الاغاني: منتخبات من الشعر الصيني القديم جمعها كونفوشيوس.

(٣٧)التوهج العظيم ٤٧ ـ ٤٨ .

الكتاب الأول

تاوتي تشينغ
لاوتسه

روجعت ترجمة هذا النص من طرف الدكتور سامي مسلّم

حول الكتاب والترجمة

كتاب تاوتي تشنغ هو اول كتاب فلسفي في الصين، ولعله اول كتاب في تاريخ الفلسفة العام يصلنا كاملاً، اذا افترضنا ان مؤلفه، هو لاوتسه نفسه، ومع التشكيك في ذلك فمن المؤكد انه تضمن تعاليمه الاساسية التي اصبحت المصدر الأم لمدرسة فلسفية شغلت الصين عشرات القرون. كتبت الفصول الواحدة والثمانون على شكل قصائد، لكنها ليست في اية حال من الشعر، رغم جنوحها في بعض الاحيان الى التشبيهات والاستعارات، فسطور الكتاب اشبه بآيات الكتب المقدسة: عبارات مكثفة، ومرموزة في الكثير منها. ويمكن مقارنة هذه النصوص في بعض المواضع بالآيات المتشابهة في القرآن، وقد تجسد ذلك في تعدد الشروح التي وضعت للكتاب، واختلاف الشراح في اغراض الفيلسوف، كما هي في تعدد الترجمات، التي اجريت له منذ القرن التاسع عشر الى اللغات الاوروبية الرئيسية، وتفاوتها البالغ نظراً للتعارض الناجم عن تفاوت فهم المترجمين، ومعظمهم من المتضلعين في الفلسفة الصينية.

ترجمتنا الحالية لكتاب التاو اعتمدت فيها على الترجمة الانكليزية التي اجراها البحاثة الصيني المتأمرك جيافو فنغ. وفي نصوص معينة فضلت

الرجوع الى ترجمة نيدهام، عالم الصينيات الانكليزي العظيم، حيثما توفر نص مترجم بتمامه في سفره المكرس لدراسة الفلسفة الصينية وهو الحادي عشر من مسلسل اسفاره التي استوعبت تاريخ وحضارة الصين.

تنبيه حول الاسم:

ورد عنوان الكتاب في المصادر الانجليزية هكذا "تاوتي تشينغ" كما تبنيته في ترجماتي وكتاباتي حول التاوية. لكن المقطعين الاولين صارا يكتبان في المعاجم الصينية الاحدث بحرف الدال. والاخير بحرف الجيم، فيكون "داو دي جينغ". والكلمات تاو وتي من المفردات التي يتداخل في لفظها صوت الدال مع التاء مما احدث هذا الاختلاف في لفظها عند الأجانب. وهكذا الحال في الاصوات التي يؤديها الحرف تش (CH) والتي تتداخل مع صوت الجيم المعطشة.. هناك ايضاً ما يتعلق بلفظ الـ تي. واصله اذا كتب بالتاء: ت تاء مفتوحة فقط. او بالدال فيكون دَ دال مفتوحة. وقد اخترت البقاء على العنوان كما هو في المصادر الامهات التي تناولت النصوص الصينية ولم اجد حاجة الى التغيير مع هذا التداخل في الاصوات، كما أني تجاوزت صيغة التاء المفتوحة الى التعريب بالياء فجعلتها تي لتكون اسوغ في اللفظ ويكتسب المصطلح شخصيته المميزة بالتساوق مع روح المصطلح العربي.

اما عن دلالة العنوان فقد اشرت في المدخل الى معنى التاو او الداو فبينت انه يدل على الطريق. ويستعمل بهذا المعنى في تعليمات المرور في شوارع المدن الصينية. اما الـ تي فيعني الاخلاق. والـ تشينغ يعني الكتاب.

فيكون المعنى الحرفي للعنوان هو كتاب الاخلاق. ويعبر عن الاخلاق في الصينية بالمقطعين تاوته او داوده". لكن المعاجم الصينية تعطي الـ تي (دَ) معنى آخر يعبر عن العقل والقلب. ويترجمها الغربيون الى : VERTUE أو NORME وهذه ترجمة حرفية لا تفيد معناها عند التاويين. وقد فسرها فونغ يولان بمعنى القوة او القدرة او السلطان وانها تتضمن معنى تركيبي يقترب من مفهوم الماهية والهوية. وتفسيره مطابق لمدلولها الفلسفي. وينقلها معظم الصينياتيين بصيغتها الصينية وهو اختيار سليم يحافظ على دلالتها عند التاويين ويتجنب الالتباسات التي تثيرها الترجمة. وقد اخترته في هذا الكتاب وغيره مما كتبته عن الفلسفة الصينية.

١

التاو الذي يمكن الاخبار عنه ليس هو التاو الابدي

الاسم الذي تمكن تسميته ليس هو الاسم الابدي

غير المسمى هو مبتدأ السماء والارض

المسمى هو ام عشرة الاف شيء[1]

دائم اللارغبة يرى المحجوب

دائم الرغبة يرى المشهود

هذان الاثنان ينبثقان من أصل واحد

ويظهر ذلك قبل الظلمة

ظلمات بعضها فوق بعض

هي المدخل لكل الخفيات

٢

كل من تحت السماء يمكنهم رؤية الجمال جمالاً فقط لان ثمة قبحا

وكلهم يستطيعون ان يروا الخير خيراً لأن ثمة شراً
من هنا، ان تملك او لا تملك يظهران سوياً
يتكامل العسر واليسر
يتقابل الطويل والقصير
الاعلى والاسفل يعتمدان على بعضهما
الأصوات تتناغم
الامام والخلف يقفو بعضهما بعضاً
ومن هنا يتجول الحكيم دون ان يفعل شيئاً، ويعلّم دون ان يتكلم
العشرة الاف شيء تصعد وتنزل بلا توقف،
تبدع، ولا تملك
تشتغل، ولا تأخذ شيئاً
تنجز العمل، وتنساه
وهكذا فهي تبقى الى الأبد

٣

عدم تكريم الموهوبين يمنع الخصام

عدم الاكتناز يمنع السرقة
عدم النظر الى المرغوبات يمنع تشوش الفؤاد.

من هنا، يسوس العاقل البلاد بتفريغ القلوب وملء البطون
باضعاف المطامح وتقوية العظام
اذا ما افتقر الناس الى المعرفة والرغبة
فلن يفكر المعلمون بالتدخل
اذا لم يُفعل شيء فسيكون الجميع على أتم حال...

٤

التاو اناء فارغ، يستعمل دون ان يُملأ

مصدر لا يُسبر لعشرة الاف شيء
ينثلم فيه الحاد
وتنفك العقدة
ويتلطف البريق
وينغمس بالغبار
مخبوء بعيداً ولكن حاضر ابداً.
لا ادري من اين جاء
انه سلف الاباطرة

٥

السماء والارض ليستا كريمتين[٢]

انهما تعاملان كل الاشياء مثل دمى الحقول
ولا الحكيم كريماً
فعنده ايضاً مئات العشائر مثل دمى الحقول
فوق هذا
السماوات والارض وما بينهما تشبهان المنفاخ. لكنهما لا تنطويان
يتغير الشكل ولا تتغير الصورة[٣]
ومهما فعلته لهما.. ومهما اقتربت منهما
فانهما مصمتتان لا تنفذان
بقدر ما تزيد الكلمات تتلاشى
فمن الافضل اذن ان تتشبث بالمركز

٦

ارواح الوادي لا تموت

فهي المرأة.. الام الاولى

مدخلها جذر السماوات والارض

كأنها برقع لا يُرى

استعمله! فلن تخيب

٧

السماء والارض ماكثتان الى الابد

لماذا تمكث السماء والارض الى الأبد؟

انهما غير مخلوقتين[٤]

ولذلك تعيشان الى الابد

يبقى الحكيم في المؤخرة ولذلك فهو في المقدمة

ويظل منقطعاً فهو مستقل، لكنه متحد مع الجميع

ومن خلال الايثار يبلغ الحكيم الكمال

٨

الخير الاسمى يشبه الماء

الماء يهب الحياة للعشرة الاف شيء ولا يكل

ويجري في مواضع يتجنبها الانسان
فالماء يشبه التاو
في السكن، كن قريباً من الارض
في التأمل، توغل بعيداً في الضمير
في معاملة الناس، كن شهماً رؤوفاً
في الكلام، كن صدوقاً
في الحكم، كن عادلاً
في الشغل، كن كفوءاً
في الفعل: تنبه الى التوقيت
لا قتال: لا تثريب

٩

خير لك ان تقتصر على القليل من الامتلاء حتى النهاية.

بالغ في شحذ المدية، تنثلم حافتها حالاً
كدس الذهب واليشب، فلن تقدر على حمايتها
احتجن الثورة والجاه، تقترب من الكارثة
انسحب عند انجاز العمل
هذا هو سبيل السماء

١٠

احمل الجسد والروح، تحتضن الواحد

أفي وسعك تجنب الانفصام؟

قدم كل ما عليك، تكن طري العود

أفي وسعك ان تكون كالطفل الوليد؟

اغسل وضر الرؤية البديئة

أفي وسعك ان تبقى بلا وضر؟

أحبب كل الناس تحكم البلاد؟

أفي وسعك أن تكون بلا دهاء؟

افتح وأغلق مداخل السماء

أفي وسعك ان تلعب دور المرأة؟

تفهم كل الاشياء تكن متفتحاً لكل الاشياء

هل انت قادر على ان لا تفعل شيئاً؟

أنتج.. ولا تمتلك

اشتغل، لا لحسابك

قُد.. ولا تسيطر

هذا هو الـ تي البديء

١١

ثلاثون محوراً تشترك في مركز العجلة

لكن ثقب المركز هو الذي يجعلها صالحة للاستعمال
حَوّل الطين الى اناء
فالخلاء هو الذي يجعله صالحاً للاستعمال
فصل ابواب وشبابيك الغرفة
فالفتحات هي التي تجعلها صالحة للاستعمال
من هنا فالفائدة تأتي مما هو كائن
وصلاحية الاستعمال مما هو غير كائن(٥)

١٢

الخمسة الوان تُعمي العين

الخمسة انغام تُصم الاذن
الخمسة طعوم تفسد الذوق
الطرد والقنص يُخبلان العقل
النفائس تقود الى الضياع

من هنا، فالحكيم مدفوع بالشعور لا بالنظر

تاركاً ما يراه لما يحس به.

١٣

تقبل العار طائعاً

تقبل الحظ العاثر كظرف بشري

ماذا تقصد من "تقّبل العار طائعاً"

تقبل ان تكون غير نابه

لا تكن مهموماً بالربح والخسارة

هذا يدعى "تقبل العار طائعاً

ماذا تقصد من "تقبل الحظ العاثر كظرف بشري"

الحظ العاثر يأتي من كونك ذا جسد

فبدون الجسد كيف يمكن ان يكون الحظ العاثر؟

كن هيناً خشوعاً، يكن لك الحق في رعاية كل الاشياء

احبب العالمين كما تحب نفسك، يمكنك ان تعتني مخلصاً بكل الاشياء

١٤

انظر، تجدها غير ممكنة الرؤية - في منأى عن الصورة

اسمع، تجدها غير مكنة السماع - في منأى عن الصوت

امسك، تجدها غير ممكنة الامساك - غير قابلة للمس

هذه الثلاثة لا تُعرف

ومن هنا فهي مندمجة في واحد

من الاعلى، هي ليست مضيئة

من الاسفل، ليست معتمة

خيط غير مقطوع، يمتنع وصفه

وانها لتؤول الى اللاشيئية

شكل اللاشكل

صورة اللاصورة

بعيداً عن التعريف.. بعيداً عن الخيال

قف قبلها.. لا تر بداية

كن بعدها.. لا تر نهاية

مع التاو الازلية كن تاوياً

ومع الحاضر تحرك

ان معرفة البداية الازلية هي جوهر التاو

١٥

الغابرون كانوا دهاة، مبهمين، بعيدي الغور، مستجيبين.

كان غور معرفتهم لا يُسبر،

ولانه لا يسبر،

فكل ما نستطيع فعله هو أن نصف مظهرهم.

مترقبين، كعابري نهر الشتاء

حذرين، كالواعين من الأخطار

لطفاء، مثل الضيوف الزائرين

مرنين، مثل الثلج الموشك على الذوبان

بسطاء، كلوحات خشب غير منقوشة.

مجوفين مثل الكهف

معتمين مثل البرك الطينية

من يقدر على الانتظار بهدوء بينما يترسب الوحل؟

من يقدر على المكوث ساكناً حتى لحظة الفعل؟

الذين يرقبون التاو لا يبحثون عن الكمال

وبتركهم البحث عن الكمال، لا تؤرجحهم الرغبة في التغير

١٦

فرغ نفسك من كل شيء

ودع الذهن يُخلد الى السلام

العشرة الاف شيء تأتي وتذهب بينما ترقب النفس تعاودها.

تنمو الاشياء وتزدهر وتنكفيء من ثم الى المنشأ.

العودة الى المنشأ متداومة. انها سبيل الطبيعة

وسبيل الطبيعة لا يتغير

معرفة الدائم من بُعد النظر

وعدم معرفته تقود الى المصائب

فبمعرفة الدائم، الذهن مفتوح

ومع ذهن مفتوح، يكون القلب المفتوح

واذ تكون مفتوح القلب يمكن ان تتصرف بطريقة ملكية

وحيث تكون ملكياً تكون الهياً

وحيث تكون الهياً فأنت مع التاو يداً بيد.

وكونك مع التاو يداً بيد هو السرمد

يزول البدن وتبقى التاو

١٧

الشاهق جداً يُعرف بالكاد

بعد ذلك يأتي ما يعرفونه
ثم ما يخافونه
ثم ما يزدرونه
من لا يثق باحد لا يثق به احد
حينما تتم الافعال
دون كلام زائد
يقول الناس: نحن فعلناها.

١٨

حيث يكون التاو العظيم منسياً

تظهر الرافة والاخلاق
حيث تولد الحكمة والفطنة
تبدأ المزاعم العظيمة

حينما ينعدم السلام داخل الاسرة
تظهر طاعة الوالدين والاخلاص
حينما تعم الفوضى
يظهر الوزراء المخلصون

١٩

تجنبوا القداسة، تخلصوا من الحكمة

يصبح الناس افضل مئة مرة
تخلو عن الرأفة، تجنبوا الاخلاق
وسيعيد الناس اكتشاف طاعة الوالدين والحب
تخلوا عن البراعة، أقلعوا عن الكسب
وسيختفي اللصوص والعيارون
هذه الثلاثة هي فقط الصور الخارجية وهي ليست كافية في حد ذاتها
فالاكثر اهمية
هي رؤية البساطة،
وأن تتحقق الطبيعة الحقة للانسان،
وان يتخلص من الانانية
والرغبة الجامحة

٢٠

توقف عن التعلم تضع حداً لمعضلاتك

هل من خلاف بين لا ونعم؟
هل من خلاف بين الخير والشر؟
ايجب علي أن اخاف ما يخاف سواي؟ ياللهراء!
يتمتع الناس، في قناعة، بعيد الثور القرباني
وفي الربيع يذهب بعضهم الى المنتزه ويتسلق الروابي
وانا وحدي في مهب الريح، لا ادري اين مكاني
مثل الوليد قبل ان يتعلم الضحك
وحيد.. لا مكان لي اذهب اليه
لدى الاخرين اكثر مما يحتاجون، اما انا فلا شيء عندي
معتوه. اوه، نعم! ومشوش
سواي واضح والمعي
وأنا وحدي ضعيف قاتم
سواي ذكي، فطن
وأنا وحدي البليد، الابله
اواه، انساق كامواج البحر

دونما اتجاه، مثل ريح لا تهدأ
كل امريء سواي مشغول
وانا وحدي بلا هدف
مكبوت.. مختلف.. تغذيني الام ذات الجلال

٢١

الفضيلة العظمى ان تتبع التاو، والتاو وحده

التاو يروغ عن الحس.
يروغ عن الحس،
وتبقى ثمة صورة
يروغ عن الحس،
وتبقى ثمة صيغة
انه قاتم وداج،
ويبقى ثمة جوهر
هذا الجوهر واقعي جداً وفيه يكمن الايمان
منذ البداية الاولى حتى الان لم ينس احد اسمه
هكذا افهم التكوين
وكيف اعرف سبل التكوين؟
بفضل هذا..[٦]

٢٢

اخضع.. تغلب

انحنِ.. تستقم

افرغ.. تمتلئ

تعرّ.. تكن جديداً

خذ القليل، تربح

خذ الكثير، تكن مشوشاً

من هنا يلزم العقلاء الواحد

ويصبحون اسوة للجميع

لا يضاهون بذواتهم... ويتألقون

لا يُبرزون انفسهم... ويَبرزون

لا يكابرون... ويحظون بالاعتراف

لا يتبجحون، فلا يتلعثمون

لا يختصمون، فلا احد يخاصمهم

من هنا فقول الغابرين: اخضع تغلب

أهو كلام فارغ؟

كن كلا حقيقياً

تأتي اليك كل الاشياء

٢٣

ان تتكلم قليلاً فهذا طبيعي

الزوابع لا تدوم كل الصباح

الوابل لا يدوم كل النهار

ما السر في هذا؟ السماء والارض

اذا لم يكن للسماء والارض ان تخلد الاشياء

كيف يكون ذلك ممكنا للانسان؟

من يتبع التاو،

يكن واحداً مع التاو

من هو فاضل،

يخبرُ الـ تي

من يضل الطريق،

يشعر بالضياع

متى ما تكون واحداً مع التاو

يرحب بك التاو

متى ما كنت واحداً مع الـ تي،
فالـ تي معك لا يريم
ومتى ماكنت واحداً مع الضياع،
فقد زاولته بحرية تامة
من لا يكن كامل الثقة
لا يثق به احد

٢٤

من يقف على طرف اصابعه ليس راسخاً

من يمشي الوجيف يعجز عن مواصلة المشي
من يعدد مآثره للناس ليس متنوراً
البار بنفسه لا يستحق التبجيل
المتباهي لا ينجز شيئاً
والمدل بنفسه جزوع
تبعاً لأهل التاو،
"كل اولئك طعام زائد ومتاع عارض"،
لا يجلب السعادة،
ولذلك يجانبه اهل التاو

٢٥

شيء ما تشكل في السر

ولد قبل السماوات والارض
في الصمت والخلاء
احديا، لا متغيراً
حاضراً ابداً، ومتحركاً ابدا
قد يكون هو الام للعشرة الاف شيء
انا لا اعرف اسمه
لكنني اسميه التاو
ولأني لا أجد كلمة افضل ادعوه "ذو الجلال"
وهو من جلاله يجري،
يجري بعيداً، بعيداً
حتى اذا بلغ الغاية القصوى قفل راجعاً
من هنا: التاو جليل
السماء جليلة
الأرض جليلة
والملك ايضاً جليل

انها القوى الاربع للوجود
والملك واحد منها
الانسان يتبع الارض
الارض تتبع السماء
السماء تتبع التاو
والتاو تتبع ما هو طبيعي

٢٦

الثقيل جذر الخفيف

الهادىء سيد المضطرب
من هنا، يسافر الحكيم طول النهار
ولا يغفل عن شكل حقائبه
ورغم كثرة الاشياء الجميلة، الجديرة بالنظر
فانه يبقى هادئاً عزوفاً.
لماذا ينبغي على رب العشرة الاف عربة ان يتصرف
باستخفاف امام الملأ؟
من يكن خفيفاً يفقد جذوره
من يكن مضطرباً يفقد السيطرة على نفسه

٢٧

المشّاء الجيد لا يترك اثراً

المتكلم الجيد لا يزل لسانه

الحاسب الجيد لا يحتاج الى المعداد[٧]

الباب الجيد لا يتطلب قفلاً

ومع ذلك فليس في مقدور احد فتحه

الربط الجيد يتم دون عقد

ومع ذلك فلا سبيل الى تفكيكه

من هنا فالحكيم يُعنى بكل الناس

ولا يستثني احداً

يُعنى بكل الاشياء

ولا يستثني شيئاً

هذا يدعى: اقتفاء النور

ماهو الانسان الصالح؟

هو معلم الانسان الطالح؟

وما هو الانسان الطالح؟

هو مقتضى الانسان الصالح.

اذا لم يكن المعلم مهيباً

واذا لم يهتم الطلاب
ساد الارتباك مهما يكن الذكاء..
ان هذه لهو السر الاخفى.

٢٨

اعرف قوة الرجل

وعليك برعاية المرأة
كن نهراً طامياً للعالم
حقيقياً غير متعرج
تكن مرة اخرى مثل الوليد
اعرف الابيض
وعليك بالاسود
كن اسوة الدنيا
حقيقياً غير متعرج
تبلغ اللانهاية
اعرف الشرف
وعليك بالاتضاع
كن وادي الدنيا

فأن تكون وادي الدنيا
حقيقياً مفعماً
تكتسب حالة اللوح غير المنقوش
متى يكن اللوح منقوشاً يكن صالحاً للاستعمال
ومتى استعمله الحكيم يصبح حاكماً
وهكذا
"الخياط العظيم قلما يستعمل المقص"

٢٩

اتحسب انك قادر على تولي امر العالم وتحسينه؟

انا لا ارى ذلك ممكناً.
العالم مقدس
ولا يسعك تحسينه
ولو حاولت تغييره لكان خراباً
ولو اردت ان تلظّ به لافلت من يديك
وهكذا تتقدم الاشياء حينا وتتأخر حيناً
يصعب التنفس حيناً ويتيسر حيناً
وثمة حينا قوة وحينا ضعف

والمرء مرة في الأعالي ومرة في الحضيض
من هنا يتجنب الحكيم التطرف والتجاوز، والرضا عن النفس

٣٠

حينما ترشد حاكماً الى دروب التاو

اشر عليه ان لا يستخدم القوة ليفتح الدنيا
لان ذلك يسبب المقاومة فقط
ان غابات القتاد تنمو اينما يمر الجيش
والسنوات العجاف تأتي بعد حرب ضروس
قم بما تدعو الحاجة الى القيام به
ولا تتخذ من القوة شعاراً
احصل على نتائج
ولكن حذار من جعلها سبيلاً الى المجد
احصل على نتائج
واياك من التباهي
احصل على نتائج
واياك من التفاخر
احصل على نتائج

فهذا هو السبيل الطبيعي
احصل على نتائج
ولكن ليس بالقسر
فبعد القوة يأتي الوهن
وليس هذا بدرب التاو
ان من يسير خلافاً للتاو يُخترم على عجل

٣١

الاسلحة الجيدة الات للخوف تمقتها كل الكائنات

ولذلك لا يستعملها اهل التاو قط
العاقل يفضل اليسار
واهل الحرب يفضلون اليمين
الاسلحة الات للخوف، وليست ادوات العاقل الكيس
فهو لا يستعملها الا اذا لم يبق لديه خيار
السلم والسكينة عزيزان على قلبه
ليس النصر بسبب للفرح
ان من يفرح بالنصر يفرح بالقتل
ولئن فرحت بالقتل فلن يمكنك استكمال ذاتك

في المناسبات السعيدة تعطى الاسبقية لليسار
وفي المناسبات الحزينة لليمين
في الجيش يقف القائد الى اليسار
ورئيس الاركان الى اليمين
يعني هذا ان الحرب تدار على شاكلة الجنائز
عندما يقتل عدد كبير من الناس
ينبغي النواح عليهم بمرارة
ما الفرق اذن بين النصر والجنازة؟

٣٢

التاو لا سبيل الى تعريفه قط

وهو من الصغر في حالة اللاتشكل بحيث يتعذر الامساك به
لو استطاع الملوك والسادة ترويضه
لاطاعتهم العشرة الاف شيء تلقائياً
ولجاءت السماء والارض صفاً صفاً
ولانهمر المطر بسخاء
ولن يحتاج الناس الى المزيد من الاوامر
ولاخذت كل الاشياء مجراها

حينما ينقسم الكل تحتاج الاجزاء الى الاسماء
ثمة ما يكفي من الاسماء
على المرء ان يعرف متى يتوقف
وبمعرفة متى يتوقف يتفادى المشاكل
التاو في الدنيا كنهر يستقر به الجريان في البحر

٣٣

معرفة الأخرين حكمة

معرفة النفس تنور
التغلب على الاخر يقتضي القسر
التغلب على النفس يحتاج الى القدرة
من يعرف ان لديه ما يكفي فهو غنيّ
المثابرة دليل شدة الارادة
من يقف حيث هو، يتحمل
ان تموت دون ان تهلك، يعني ان تكون ابدي الحضور

٣٤

التاو الجليل يجري في كل مكان، الى اليمين واليسار على السواء

العشرة الاف شيء تعتمد عليه، وهو محيط بكل شيء
يؤدي ما عليه بصمت ولا يدعي شيئاً
يغذي العشرة الاف شيء
دون ان يدعي السيادة عليها
صغير جداً، وليس له غرض
اليه ترجع العشرة الاف شيء
لكنه ليس بسيدها
انه في غاية الجلال
لا يبدي التاو جلال ذاته
ومن هنا فهو جليل حقاً

٣٥

من يكن مع الواحد يأته كل الناس

لان في ذلك السكينة والسعادة والسلام

عابر السبيل قد يتوقف للموسيقى والطعام الجيد

لكن وصف التاو

هو دون مونة او طعم

غير ممكن الرؤية، غير ممكن السماع

وبالتالي فهو لا ينفد

٣٦

الذي ينكمش

يجب ان يتسع اولاً

الذي يخيب

يجب ان يكون شديد البأس اولاً

الكسيف البال

يجب اعلاؤه اولاً

وقبل الأخذ

يجب ان يكون العطاء

هذا يدعى ادراك سجية الاشياء

الضعيف الرخو يغلب الشديد الصلب

لا يستطيع السمك ان يغادر المياه العميقة

وينبغي ان لا تُعرض على الناس اسلحة الدولة

٣٧

يقبع التاو في اللافعل

ولكن لا شيء يبقى غير مفعول

اذا الملوك والسادة لزموا ذلك

تتطور العشرة الاف شيء تلقائياً

ولو انهم لم يبرحوا في حاجة الى الفعل

لا نكفأوا الى بساطة الجوهر اللامتشكل

بدون صورة لا تكون رغبة

وبدون رغبة تكون السكينة

وبهذه الطريقة تنعم كل الاشياء بالسلام

٣٨

الخيِّر بحق لا يدري انه خيِّر

ومن هنا فهو خيِّر

المعتـوه يحاول ان يكون خيِّراً

وهو لذلك ليس خيِّراً

الخيِّر بحق لا يفعل شيئاً

ولكنه لا يدع شيئاً غير مفعول

المعتوه يفعل دائماً

ويبقى الكثير محتاجاً الى الفعل

حينما يفعل الرحيم بحق شيئاً ما لا يدع شيئاً غير مفعول

حينما يفعل العادل شيئاً ما يبقى لديه الكثير مما يجب ان يُفعل

حينما يفعل المرشد شيئاً ما ولا يستجيب احد.

يلوّح بأكمامه لفرض الانتظام.

من هنا، متى ما ضاعت التاو كان الخْير

ومتى ماضاع الخير كانت الرأفة

ومتى ما ضاعت الرأفة كان العدل

ومتى ما ضاع العدل كانت الشعائر

والآن، الشعائر هي قشرة الايمان والاخلاص، بداية التشوش
معرفة المستقبل ليست الا الا حبولة الوردية للتاو
انها بداية الخبل
من هنا يدقق العظيم في الحقيقة لا في القشور
وفي الثمرة لا في الزهرة.
وبالتالي فهو يقبل الواحد ويرفض الاخر.

٣٩

هذه الاشياء ذات الزمن السحيق نشأت من واحد:

السماء كلية وصافية
الارض كلية ووطيدة
الروح كلية ومتينة.
الوادي كلي ومملوء
العشرة الاف شيء كلية وحية
الملوك والسادة كليون، والبلاد معتدلة الاحوال
كل هذه الاشياء حاصلة في فضيلة الكلي
صفو السماء يمنع سقوطها

رسوخ الارض يمنع انشقاقها
متانة الروح تمنع استنفادها
امتلاء الوادي يمنع جفافه
نمو العشرة الاف شيء يمنع هلاكها
قيادة الملوك والسادة تمنع تدهور البلاد[٨]
من هنا، الوضيع هو جذر الشريف
الواطيء اس العالي
الامراء والسادة يعدون انفسهم "يتامى" ، "ارامل"، "عديمي الجدوى"
الا يتوخون ان يكونوا متضعين؟
النجاح الزائد عن اللزوم ليس امتيازاً
لا ترن كاليشب
ولا تطقطق مثل الاحجار

٤٠

المعاودة هي حركة التاو

الاذعان هو سبيل التاو
العشرة الاف شيء متولدة من الكائن
الكائن متولد من اللاكائن

٤١

التلميذ الكيس يستمع الى التاو ويمارسها باجتهاد

التلميذ الوسط.. يستمع الى التاو ويعيرها ذهنه المرة تلو المرة.

التلميذ الطائش يستمع الى التاو ويقهقه

لو لم يكن ثمة مقهقه لما كانت التاو ما هي عليه.

بناء على ذلك قيل:

السَنن الواضح يبدو قاتماً

والتقدم شبيها بالتقهقر

والطريق اللاحب وعرا

والـ تي الارقى خواء

والطهر الاعظم تلوثاً

واكتناز الـ تي غير ملائم

ومتانة الـ تي هشاشة

والـ تي الحقيقي زائفاً

والمربع الكامل ليست له زوايا

والمواهب الجلية تنضج متأخرة

والنغمات العليا يصعب سماعها

والصورة العظمى ليس لها شكل

التاو خفية وليس لها اسم

والتاو وحدها تغذي الاشياء وتمنحها الكمال

٤٢

التاو تنسل الواحد

الواحد ينسل الاثنين

الاثنان تنسل الثلاثة

الثلاثة تنسل العشرة الاف شيء

العشرة الاف شيء تحمل الين وتحتضن اليانغ

وتحقق انسجامها بالدمج بين هاتين القوتين

الناس لا يحبون ان يكونوا يتامى وارامل وعديمي الجدوى

لكن هذا ما يصف به الملوك والسادة انفسهم

المرء يكسب بالخسران

ويخسر بالكسب

ما يعلّم به الاخرون اعلّم به ايضاً.. انه:

العنيف يموت ميتة عنيفة

وسيكون هذا لب تعليمي

٤٣

الالطف في الوجود

يغلب الاغلظ في الوجود
ما هو بدون هيولى يمكنه النفاذ في اللامكان
ولذلك فانا اعرف قيمة اللافعل
التعليم بدون كلمات، والعمل بدون فعل
لا يفهمه الا القليل جداً من الناس

٤٤

السمعة والذات: ايهما اهم؟

الثروة والذات: ايهما انفس؟
الربح والخسارة: ايهما اوجع؟
المشدود الى الاشياء كثير الهموم
ومن يوفر يخسر الكثير
ولن يخيب ذو القناعة

من يعرف متى يقف فلن يقع في ورطة
ويؤول الى امن دائم

٤٥

الاكمال العظيم يبدو غير كامل
وبالتالي فهو لا يتجاوز مدى استعماله
الامتلاء العظيم يبدو خواء
وبالتالي فلا يمكن استنفاده
الاستقامة الكبرى هي الفدع
الفطنة الكبرى تبدو حماقة
اللياقة الكبرى تبدو فهاهة
التحرك يقهر البرد
الهدوء يقهر الحر
السكينة والطمأنينة تضع الاشياء في اتساقها

٤٦

حينما تكون التاو حاضرة في الدنيا

فالخيل تنثر السماد

وحينما تكون التاو غائبة عن الدنيا

فخيول الحرب تربى حول المدينة

ما من خطيئة اعظم من الرغبة

ولا من لعنة العن من الجشع

ولا سوء حظ اشد من ان يريد المرء لنفسه شيئاً

من هنا، من يعرف ان الكافي هو الكافي يحصل على الكفاية دوماً

٤٧

من غير ان تسافر يمكنك ان تعرف الدنيا كلها

من غير ان تطل من النافذة يمكنك ان ترى دروب السماء

وبقدر ما تذهب بعيداً تعرف قليلاً

وهكذا، فالحكيم يعرف دون ان يسافر

ويرى دون ان يحدّق

وينجز كل شيء دون ان يفعل

٤٨

في متابعة التعليم، تستجد كل يوم حاجة

في متابعة التاو، ينقص في كل يوم شيء

افعل الاقل فالاقل

حتى تستكمل اللافعل

واذ لا تفعل شيئاً فلن يبقى شيء غير مفعول

العالم يقوم على ترك الامور لمجاريها

ولا يمكن ان يدار بالتدخل

٤٩

الحكيم لا تعنيه خاصةُ نفسه

بل هموم الاخرين

انا خيّر مع الاخيار

وخير مع غير الاخيار

لأن الـ تي هي الخيّر

لي ثقة بالاوفياء

ولي ايضاً ثقة بغير الاوفياء

لأن الـ تي هي الوفاء

الحكيم خَشوع متضع ويبدو امام العالمين مشوشاً

ينظر اليه الانام ويستمعون

اما هو فيتصرف مثل طفل صغير

٥٠

ما بين الولادة والموت

ثلاثة من عشرة هم اهل الحياة

وثلاثة من عشرة هم اهل الموت

والذين يمرون من الولادة الى الموت يُعدُّون ايضاً ثلاثة من عشرة

لم كان هذا هكذا؟

لانهم يعيشون في حافة الفظاظة

من يعرف كيف يعيش يمكنه ان يضرب في الارض

دونما خوف من الكركدن او النمر

لا يمسه قرح في الحرب

ولا يجد الكركدن موضعاً فيه يطعنه بقرنه

ولا النمر موضعاً يُنشب فيه مخالبه

ولا الاسلحة مكاناً للطعن

لم كان هذا هكذا؟

لأنه لا يترك للموت مكاناً ينفذ منه

كل الاشياء تأتي من التاو

وتترعرع باﻟ تي

وتستمد صورتها من المادة

وشكلها من المحيط

وهكذا تبجل العشرة الاف شيء التاو و تمجد الـ تي

تبجيل التاو وتمجيد الـ تي ليسا مقصودين

لكنهما في سجية الاشياء

من هنا، كل الاشياء تأتي من التاو

وبالـ تي تتغذى

تتطور، تتحصن، تستريح، تنمو، وتحتمي

تخلق دونما لغب

تفعل، لا لحسابها

توجه، دون تدخل

ذلك هو الـ تي الأول

٥٢

بداية الوجود

هي أمُّ كل الأشياء

بمعرفة الام يعرف المرء الابناء

ومعرفة الابناء، مع بقاء الاتصال بالدم،

تحرر الانسان من مخافة الموت.

الجم فمك

بذْرق حواسك

تغدو الحياة مليئة ابداً

افغر

كن دائم الانشغال

تغدو الحياة بلا أمل

رؤية الصغير من بعد النظر

الاذعان للقسر قوة

استعمال النور الخارجي يسترجع البصيرة

وبهذه الطريقة تتخلص من الاذى

هذا هو تعلم الديمومة

٥٣

لو كان لي حد ادنى من الشعور

لمشيت في السبيل اللاحب لا اخاف من تنكبه
سلوك السبيل اللاحب ليس عسيراً
لكن الناس يحبون التذبذب
عندما يكتسي البلاط بالروعة
تمتلئ الحقول بالادغال
وتصبح الاهراء فارغة
البعض يلبسون الثياب الفاخرة
ويحملون الصوارم
ان لديهم اكثر مما يستطيعون استعماله
اولئك هم السادة اللصوص
كلا! ليس هذا بدرب التاو

٥٤

الوطيد الاساسي لا يمكن اقتلاعه

وما تفهمه جيداً لا يمكن نسيانه

وسيمجد من جيل الى جيل

اغرس الـ تي في نفسك

يكن الـ تي حقيقياً

اغرسه في الاسرة

يكن غزيراً

اغرسه في القرية

يكن نامياً

اغرسه في الامة

يكن وفيراً

اغرسه في العالم

تجده في كل مكان

من هنا: انظر الى الجسد كجسد

أنظر الى الأسرة كأسرة

أنظر الى القرية كقرية

أنظر الى الأمة كأمة

أنظر الى العالم كعالم

كيف يتسنى لي ان اعرف ان العالم هو هكذا؟

بالرؤية

٥٥

من يمتلئ بالـ تي يمكن ان يشبه الوليد[٩]

الهوام لن تلسعه

والسباع لن تمسك به

والجوارح لن تنقض عليه

ومع ان عظامه هشة

وعضلاته مرهفة

فإن قبضته شديدة

انه لم يعرف شيئاً عن اتحاد الذكر والانثى

ومع ذلك فإن بلبله ينتصب في بعض الاحيان

دليلاً على ان حيويته كاملة

وقد يبكي طوال اليوم دون ان يبح صوته

دليلاً على ان تناسقه تام
ان فهم التناسق هو فهم القوة الحيوية غير المحبطة
واذ تفهم عدم الاحباط فأنت متنور
والآن!
فبتكثيف الحياة الدنيوية للمرء فالمرء يستجلب الشؤم.
وبالسماح للانفعالات القلبية والذهنية ان تستولي على التشي(١٠)
يتردى المرء في قساوة المنون
وحيثما ستؤول القوة
والعنف الى الانحطاط
فلأن الجهدالمفرط موجَّه ضد التاو
وحيثما توجهت ضد التاو
فذلك هو الخراب

٥٦

الذين يعرفون لا يتكلمون
والذين يتكلمون لا يعرفون
الجم فاك بلجام
احرس حواسك

لطف من حدتك
هون من معضلاتك
برقع ذكاءك
كن واحداً مع تراب الارض
هذا هو الاتحاد الاكبر
ان من يحقق هذه الحالة
ليس معنياً بالاصدقاء والاعداء
بالخير والضر، بالمجد والضعة
ان هذه لهي الحالة الارقى

٥٧

احكم الامة بالعدل

اوقد الحرب بحركات مباغتة
كن سيد العالم دون اجهاد
كيف اعرف ان هذا هكذا؟
بسبب هذا،
مع المزيد من الاوامر والنواهي
يزداد الفقراء فقراً

مع الاسلحة الاكثر فتكاً
يكون المزيد من المشاكل في البلاد
مع المزيد من الاذكياء والبارعين
يأتي المزيد من الغرائب
ومع المزيد من الاحكام والتعليمات
يكون المزيد من اللصوص والنهابين
من هنا يقول الحكيم
لا اقوم باي فعل
فينصلح الناس
التزم السلام
فيصبح الناس انبل
لا افعل شيئاً
فيصبح الناس اغنياء
لا تكون لي رغبة
فيعود الناس الى الحياة الطيبة البسيطة

٥٨

حينما يدار البلد بلطف

فالناس بسطاء

وحين يدار بفظاظة

تخبث نفوسهم

تتجذر السعادة في الشقاء

ويكمن الشقاء في السعادة

من يدري ماذا يخبئ المستقبل؟

ليس ثمة امانة

الانابة تغدو وضاعة

والخير يغدو شعوذة

وحيرة الانسان تدوم امدا بعيداً

من هنا، فالحكيم حاد لا يقطع

مسنن لا يخدش

مستقيم ولكن بوازع

لامع ولكن لا تعشى به العيون

٥٩

في العناية بالاخر وخدمة السماء

ليس ثمة كاستعمال الوازع

الوازع يبدأ بنبذ الافكار الخاصة للمرء

ويعتمد هذا على الـ تي المتراكم من الماضي

وحيثما وجد مخزن وافر لـ تي فلن يبقى محال

واذا لم يبق محال فلن تبقى حدود

واذا لم يعرف الانسان حدوداً صح له ان يكون حاكماً

المبدأ الام للحكم يبقى سارياً زماناً طويلاً

ان هذا ليدعى امتلاك جذور عميقة ووطيدة

انه تاو الحياة المديدة والرؤية الابدية

٦٠

حكم البلاد يشبه طبخ سمكة صغيرة

انظر الى العالم بالتاو

فلن يعود الشر ذا مضاء

ليس بمعنى ان ذلك الشر ليس قوياً

بل بان قوته لن تستخدم لايذاء الاخرين

وليس فقط انها لن تؤذي الاخرين

بل ان الحكيم نفسه سيكون منيعاً ضد الأذى.

لن يؤذي بعضهم بعضاً

وسيكون الـ تي في كل واحد مبعث رخاء للاخر.

٦١

البلد العظيم يشبه الوهدة

انه ملتقى العالم

ام العالم

الانثى تغلب الذكر بالسكون

وتستلقي في سكون

فلو اعطى البلد العظيم طريقاً للبلد الصغير

لغلب البلد الصغير

ولو خضع البلد الصغير للبلد العظيم

لغلب البلد العظيم

من هنا يتعين على من يريدون الغلبة ان يذعنوا

والذين يغلبون يتم لهم ذلك لانهم يذعنون

الدولة الكبيرة تحتاج الى المزيد من الناس

البلد الصغير يحتاج الى ان يَخدم

والكل يحصل ما يريد

انه لملائم للدولة الكبيرة ان تذعن

٦٢

التاو هي مصدر العشرة الاف شيء

والتاو هي كنز الطيّب وملاذ الرديء

بالكلمات الحلوة تشتري الشرف

بالافعال الطيبة يبجلك الناس

واذا وجدت امرءا رديئاً فلا تنبذه

من هنا، يوم تتويج الامبراطور

او تنصيب الوزراء الثلاثة للدولة

لا تبعث هدية من اليشب او فصيلاً من اربعة خيول

بل الزم مكانك واظهر التاو

لماذا تحب التاو كثيراً في باديء الامر؟

اليس لانك تجد ما تبحث عنه ويغفر لك اذا اذنبت؟

ان هذا لهو الكنز الاعظم للعالم.

٦٣

مارس اللافعل

اشتغل دون فعل

تذوّق ما لا ذوق له

عظّم الصغير وكثر القليل

كافئ المرارة بالرعاية

أبصر البساطة في المركّب

انجز العظيم من الاشياء الصغيرة

في العالم، الامور الصعبة تتم وكأنها امور يسيرة

في العالم، الافعال العظيمة تأتي من الافعال الصغيرة

الحكيم لا يجرب اي امر عظيم

وبهذه الطريقة يحقق العظمة

الوعود المجانية تضعف الثقة

التهاون بالأمور يخلق المصاعب

لان الحكيم بواجه المصاعب دائماً

فهو لا يعانيها قط

٦٤

السلام يسهل الحفاظ عليه

والمصائب يمكن منعها قبل أن تبدأ

الهش سهل التكسر

والصغير سهل التبعثر

عالجها قبل ان تقع

نظّم الاشياء قبل ان تنفرط

ان دوحة بقدر ذراعي الانسان تنشأ من فسيلة

ومدرّج من تسعة طوابق يبدأ من لبنة

ورحلة الألف لي تبدأ بخطوة واحدة[١١]

من يفعل يخسر الهدف

من يُمسك يضيّع

والحكيم لا يفعل فلا يخسر

ولا يمسك فلا يضيّع

يفشل الناس عادة حين يوشكون على النجاح

فاعط النهاية من الاهتمام ما تعطيه للبداية

فبذلك تتجنب الاخفاق

من هنا فالحكيم يبحث عن الحرية في الرغبة
فهو لا يحتجن النفائس
ويتعلم ان لا يصر على الأفكار
يعيد الناس الى ما ضيعوه
ويساعد العشرة الاف شيء في العثور على طبيعتها
لكنه منعتق من الفعل

٦٥

في البدء، لم يحاول الذين اوتوا العلم بالتاو تنوير غيرهم
بل ابقوهم في دياجير الجهالة
لماذا يعسر الحكم الى هذا الحد؟
لان الناس اذكياء
الحكام الذين يحاولون استخدام الذكاء
يغشون الوطن
والذين يحكمون دونما ذكاء
هم بركات الارض.
هذان هما الخياران الوحيدان..
ان فهم ذلك هو الـ تي الاكبر

العميق والبعيد الغور
الذي يسوق الاشياء الى الوراء
باتجاه الوحدة الكبرى

٦٦

كيف تفرض الانهار الكبيرة ملوكيتها على مئات الجداول؟(١٢)

لانها اوطأ منها.
ذلك ما يجعلها ملوكاً على مئات الجداول
فإذا شاء الحكيم ان يرشد الناس
فعليه ان يتضع
بحيث اذا كان فوقهم لا يثقل ظهورهم
وحين يكون في الرأس لا يشعرون بالاذى
وعندئذ، سيكون كل ما تحت السماء مسروراً لانه مقود به
ولا يجدون توجيهاته مضجرة لهم
الحكيم لا ينخرط في منافسة
فلا أحد ينافسه

٦٧

كل من تحت السماء يقول ان تاوي عظيم ومنزَّه عن القرين

لان التاو عظيم فهو متفاوت

ولولا التفاوت لاضمحل من زمان بعيد

ثلاثة كنوز اتمسك بها وأحرص عليها

الأول هو الرحمة، الثاني الاقتصاد

الثالث هو ان لا اجترئ على سبق الاخرين

من الرحمة تأتي الشجاعة، من الاقتصاد يأتي السخاء

ومن الاتضاع تكون القيادة

في هذه الايام يتحاشى الناس الرحمة ويريدون ان يكونوا شجعاناً

يتركون الاقتصاد ويريدون ان يكونوا اسخياء

لا يقرون بالاتضاع ويريدون الفوز بالصدارة

انه للموت المحقق

الشجاعة تجلب النصر في المعركة والمنعة في الدفاع

هي وسائل السماء في الحفظ والحماية

٦٨

الجندي الجيد ليس عنيفاً

المقاتل الجيد ليس غضوباً

المنتصر الجيد ليس انتقامياً

المخدوم الجيد متضع

هذا يدعى "تي" اللاجهد

يدعى قدرة التعاطي مع الناس

ولقد كان هذا معروفاً منذ القدم بأنه

الاتحاد التام مع السماء

٦٩

قول يردده الجنود:

لا أجرأ على القيام بأول خطوة ولكنني افضل لعب دور الضيف

لا اجرأ على التقدم شبراً ومستعد للتراجع ذراعاً

هذا يدعى سيراً دون اظهار الحركة

التلويح بالاردان دون كشف الذراع
القبض على العدو من غير هجوم
التسلح بلا اسلحة.
ليس رزية ارزأ من تقدير العدو بأقل من حجمه
بتقدير العدو أقل من حجمه أفقد التقييم
من هنا، اذا حمي الوطيس
ينتصر المستضعفون

٧٠

كلماتي سهلة الفهم سهلة الاداء

وان كانت لا تجد تحت السماء من يعرفها او يمارسها
لكلماتي بدايات سحيقة
وافعالي مضبوطة
ولان الناس لا يفقهون فهم لا يعرفونني
الذين يعرفونني قلائل
الذين يؤذونني مكرَّمون
من هنا يرتدي الحكيم أغلظ الثياب ويخفي الجواهر في قلبه

٧١

معرفة الجهل قوة

جهل المعرفة سقم

اذا كان المرء سقيماً من السقم فهو ليس سقيماً

والحكيم ليس سقيماً لأنه سقيم من السقم

وبالتالي فهو ليس سقيماً

٧٢

مع فقدان الشعور بالرهبة، تكون المصائب

لا تتطفل عليهم في بيوتهم

لا تزعجهم في عملهم

اذا لم تتدخل فلن ينالهم الانهاك بسببك

وهكذا فالحكيم يعرف نفسه ولكن لا يتظاهر

يحترم نفسه ولا يتعجرف

يترك ذلك ويختار هذا

٧٣

الشجاع الحاد المزاج هو اما قاتل واما مقتول

الشجاع الحليم يصون الحياة دوماً

اي هاذين جيد وايهما ضار؟

بعض الامور لا تحبها السماء. من يدري لماذا؟

حتى الحكيم لا يعرف الجواب

تاو السماء لا تكدح، ومع ذلك فهي متفوقة

لا تتكلم ولكنها مجابة

لا تطلب شيئاً، وتحصل على كل ما تحتاج

تبدو في راحة من الفعل لكنها تسير وفق المنهاج

شبكة السماء تنتشر في الافاق البعيدة

ورغم ان خيوطها غير محبوكة فلا شيء يخترقها

٧٤

اذا لم يكن الناس خائفين من الموت[١٣]

فلا جدوى من تخويفهم به

واذا عاش الناس في خوف دائم من الموت
وكان الخروج على القانون يعني قتل الخارج عنه
فمن يتجاسر على خرق القانون؟
ثمة دوما جلاد رسمي
اذا حاولت ان تأخذ محله
تكون كمن يحاول أن يكونه نجاراً اسطى ويقطع الخشب
اذا حاولت ان تقطع الخشب كالنجار الاسطى
فستؤذي يديك فقط.

٧٥

لماذا يجوع الشعب؟
لان الحكام يأكلون الاموال بالضرائب
ولذلك يجوع الشعب
لماذا يتمرد الشعب؟
لان الحكام يتدخلون اكثر من اللازم
ولذلك يتمرد الشعب
لماذا لا يعبأ الناس بالموت؟
لأن الحكام يطلبون ثمناً باهظاً للحياة

لذلك يتقبل الناس الموت بسهولة
ان يكون لديك القليل تعيش به
خير لك من حياة باهظة الثمن

٧٦

يولد الانسان رقيقاً واهناً
ويموت صلباً يابساً
يبدأ النبات غضاً مترعاً بالنسغ
ويموت ذابلاً جافاً
من هنا، اليابس وغير المنحني قرينان للموت
والرقة والطوَعان قرينان للحياة
وهكذا، لن ينتصر جيش بلا مرونة
والشجرة التي لا تنحني سهلة الكسر
يسقط الشديد والصلد
ويعيش الناعم والضعيف

٧٧

تاو السماء يشبه انحناءة القوس

الاعلى مخفوض والاسفل مرفوع
اذا كان الوتر مفرط الطول يمكن تقصيره
واذا لم يكن كافي الطول يمكن تطويله
تاو السماء هو أن تأخذ من المكثرين وتعطي المقلين
ونهج الانسان على النقيض
فهو يأخذ من المقلين ويعطي المكثرين
من هذا الذي يملك اكثر من حاجته ويعطيه للعالم؟
فقط هو انسان التاو
من هنا، يشتغل الحكيم دون ادلال
ويؤدي ما عليه دون إلحاف
ولا يحاول ان يظاهر بمعرفته

٧٨

ليس تحت السماء اكثر نعومة وليونة من الماء

وعلى الرغم من ذلك

فما من شيء اقدر منه على مهاجمة الصلب والشديد

الضعيف يمكنه التغلب على ذي البأس

ويمكن للأخضر ان يقهر اليابس

كل من تحت السماء يعرف هذا

لكن ما من أحد يضعه موضع التطبيق

من هنا يقول الحكيم:

من يتقبل ازدراء الناس به جدير بأن يحكمهم.

من يتحمل مشاكل البلاد جدير بأن يكون ملك الدنيا

وكثيراً ما تبدو الحقيقة متناقضة

٧٩

بعد عراك مرير يتبقى شيء من الاشياء

ماذا يمكن ان نفعل؟
لهذا يحتفظ الحكيم بنصف ما لَه من المقايضة
ولكن دون ان يستوفي الاستحقاق
انسان الـ تي يؤدي ما عليه
وانسان بلا تي يطلب من الاخرين الوفاء بما عليهم
تاو السماء عادلة
مع الصالحين في كل وقت

٨٠

البلد الصغير قليل السكان

ورغم توفر آلات تشتغل اسرع من الانسان بين عشر مرات
إلى مئة،
فهم لا يحتاجونها.

ينظر الناس بجد الى الموت ولا يسافرون بعيداً
لديهم قوارب وعربات لا يستخدمونها
وأسلحة ودروع لا يظاهرون بها
يرجع الناس الى عقد الخيط بدلا من الكتابة(١٤)
طعامهم بسيط وجيد، ملابسهم بسيطة وجميلة
وبيوتهم آمنة.
سعداء على طريقتهم
ومع انهم يعيشون على مرأى من جيرانهم
واصوات ديوكهم ونباح كلابهم تسمع عبر الدروب
فانهم يتركونهم في سلام حتى يشيخوا ويموتوا

٨١

الكلمات الصادقة ليست جميلة

الكلمات الجميلة ليست صادقة
الاخيار يتجادلون
والذين يتجادلون ليسوا أخياراً
الذين يعرفون ليسوا متعلمين
والمتعلمون لا يعرفون

الحكيم لا يحاول اكتناز الاشياء قط

وكلما زاد من اكتنازه للاخرين زاد ما يملك

وكلما اكثر من عطائه للاخرين عظمت وفرته

تاو السماء مسننة ولكنها لا تؤذي

تاو الحكيم هو العمل دون كد

الهوامش

(١) عشرة ألاف (شيء): اصله الصيني "وانغ" ومعناه عشرة الاف. وهو اعلى رقم في اللغة الصينية ولذلك يستخدمه الصينيون للكتابة عن الكثرة او العدد اللامتناهي. ومن تطبيقات ذلك قولهم في هتاف يعيش: "وان سوي" ومعناه الحرفي "يعيش عشرة الاف سنة" ويقصدون عاش الى الابد. وبهذا التحديد يكون قوله المسمى هو ام عشرة الاف شيء.. يقصد به ام كل الاشياء.

سوف تتردد هذه العبارة كثيراً في النصوص اللاحقة وهي تحمل نفس المعنى.

(٢) اعتمدت في ترجمة هذا النص على نيدهام.

(٣) اضافة من ترجمة جيافوفنغ.

(٤) في الأصل الصيني والترجمة الانكليزية: "غير مولودتين". وقد آثرنا التعبير عن هذه الفكرة بما يدل عليها في ضوء المفهوم التاوي لأصل الأشياء.

(٥) * غير الكائن: كناية عن الفراغ، اللاشيء، وهو كما مر بك من محاور فلسفة التاو. وفي هذا النص ينسب الفعل الحقيقي (صلاحيةالاستعمال) الى اللافعل، وما هو زائد على الحقيقي (الفائدة، الكسب، الربح) من نتاج الكائن، أي الايجاب والفعل.

(٦) الاشارة لجوهر التاو.

(٧) المعداد: آلة الحساب التقليدية في الصين، وهي السلف البعيد لمكائن النقد الحديثة.

(٨) عندما تتجوهر بالتاو.

(٩) ترجم هذا النص بالاستناد الى نيدهام.

(١٠) * * التشي، يقترب من معنى الجوهر الروحاني. وهو في اللغة تعبير عن الروح والنزعة المتأصّلة، ومنه قولهم للشجاعة: يونغ ـ تشي اشارة الى ماهو من صفات الذات المعبرة عن روح الشخص

والتشي في القاموس: الهواء، الغاز البخار.

(١١) اللي: مقياس صيني للمسافات يعادل ٥٠٠ متر.

(١٢) ترجم هذا النص بالاستناد الى نيدهام.

(١٣) وردت لهذا النص صيغة أخرى عن هـ. ج. غريل في كتابه. "الفكر الصيني من كونفوشيوس الى ماوتسي تونغ" وهي كما ترجمها عبدالحميد سليم وراجعها على أدهم:

الناس لايخشون الموت. فما الفائدة اذن من محاولة تخويفهم من عقوبة الاعدام؟ وحتى اذا خافوا فمن هو الانسان البشري الذي هو أهل لان يعلن هذا الحكم الرهيب ضد اخوانه: ص ١٦٠ .

(١٤) العد بعقد الخيط بدلاً من العد بالقلم.

الكتاب الثاني

تشوانغ تسه

حول الكتاب والترجمة

عاش تشوانغ تشو الذي عرف بلقبه الفلسفي تشوانغ تسه، مابين ٣٦٩ و ٢٨٦ ق.م في دويلة منغ (بفتح الميم) في مقاطعتي شاندونغ وهونان اليوم. وعاصر اثنين من اكابر الفلاسفة هما مونغ تسه (مينشيوس) معلم الكونفوشية الثاني، وهوي شيه (هوي تسه) استاذ المدرسة المنطقية المسماة مدرسة الاسماء (مينغ جيا) وبعد أن تفلسف وناهز سن الحكمة اعتزل الناس على طريقة المعري وكان قد تزوج من فتاة حسناء فلما اعتزل خيرها بالطلاق وكانت لا تزال في شبابها فاختارت الطلاق والزواج من رجل آخر رضيت به وارتضاه تشوانغ تسه لها. لكن الزواج لم يتم فانتحرت. وترك انتحارها في نفسه صدى اليماً أول الامر ثم عاد وتطامن فأخذ مزهره وبدأ بالعزف عليه انسجاماً مع مذهبه في عدم التمييز بين الموت والحياة.

يؤشر ظهور تشوانغ تسه، تبعاً لتحقيب فونغ يولان، الطور الثالث للتاوية والمتسم بموضوعة المساواة المطلقة بين الاشياء وإهمال التمييز ومطابقة الذات مع الآخر لتجاوز العالم الكائن الى عالم منشود يتجرد فيه الانسان (الحكيم) من هواجسه الحسية لحساب السعادة الروحية من خلال تدامجه مع الكون الاوسع. وهي المرحلة التي عبر عنها صوفية الاسلام القطبانية بالفناء

والاتحاد. ومن معتكفه اشاع تشوانغ تسه فلسفته إسماعاً واقراءاً فذاع صيته وكثر مريدوه ورغب فيه ملوك الدويلات فردهم استمتاعاً بحريته وارادته المطلقة في مقابل اغلال الثروة والسلطة. وكان هذا هو المراد من العزلة، عن الملوك لا عن الناس، فقد واصل في معتزله علاقته بالمجتمع من خلال دعوته التي انشعبت في اتجاهات متكاملة جمعت بين إنكار مسلك الحكام والاغنياء على طريقة استاذه لاوتسه، والسعي لتحرير الناس من الخوف على طريقة معاصرة الاغريقي الاصغر ابيقوروس. وفي مذهبه عن المساواة بين الاشياء وبين الظواهر والاحوال وبين الناس جعل النواميس الطبيعية معيار التحرر من الجهد المفرط المؤدي عنده الى الآلام والشقاء والمخاوف وإرهاق الروح بما لم تكلفها به الطبيعة. لكن آراء تشوانغ تسه التي شكلت اضافة الى مذهب لاوتسه بقيت دونها في وضوح الدعوة إلى ادانة الملوك والاغنياء. ومالم يتأكد لنا ان الفصل الثالث والثلاثين من كتابه كان من تحريره او حرر بناء على افكاره نفسها، وهو الفصل الذي تناول نظرية المجتمع العظيم الذي تكون فيه الدولة وموظفوها في خدمة الناس وليس العكس، فإن تشوانغ تسه يبدو اقل اكتواء من شيخه بمعاناة الناس واكثر اهتماماً بمشكلة الانسجام مع نواميس الطبيعة، تلك المشكلة التي استغرقت معظم جهده الفلسفي. وقد ترتب على مذهبه هذا اتجاهان متضاربان، نجده في احدهما يتطرف في عدم التمييز الى الحدود التي تسمح له بالقول ان الملك خلق ملكاً والفلاح خلق فلاحاً والحكيم خلق حكيماً والنجار خلق نجاراً... لأن كل واحد من هؤلاء انما يفعل تبعاً لسجيته التي فطر عليها وأهّلته الطبيعة لها. وفي الثاني نقف على الاساس الطبيعي للعلاقة الديمقراطية بين الناس اجمعين دون فارق ما بين حاكم ومحكوم ومالك

ومحروم فإذا كانت الطبيعة قد خلقت الملك ليكون ملكاً والفلاح ليكون فلاحاً فليس للملك افضلية على الفلاح مادام كل منها يزاول وضعه الطبيعي. وبذلك ينتفي حق الملك في قهر الفلاح لان هذا الاخير يمتلك بناء على مبدأ عدم التمييز نفس الموقع الذي يشغله الملك في الحياة العامة ويؤدي نفس الدور الذي عهدت به الطبيعة الى الملك في مضمار فعله الخاص به. ومحوره في ذلك هو عدم القسر، الذي يفترض بالضرورة دولة ديمقراطية. وقد مر بنا في المدخل ان كتاب تشوانغ تسه دعا الى الاستغناء عن الدولة اذا ما التزم الناس مبادئ الـ تي وانسجموا مع نواميس الطبيعة. وهو افتراض يصدر عن احلام المثقفين الكونيين في نفورهم من السلطة السياسية مضخماً باليوتوبيا المتقهقرة دوماً امام المنطق المعقد للتاريخ. ومن هذه الجهة، نجد ان الدولة الديمقراطية اثبتت حضورها في تجارب من الماضي الشرقي واستكملت مضمونها اللاقمعي في تجارب اوروبا الحديثة. ولو أنها لم تصل بالناس الى المنشود في كتاب التاو الأول، فما يريده الحكماء الشرقيون يصدق على مفهوم الدولة الشعبية اكثر مما هو على مفهوم الدولة الديمقراطية. وهو مفهوم لا يزال بعيد المنال برغم الجنوح الهائل في تحققات الديمقراطية السياسية التي يرجع الفضل فيها الى الحضارة الرأسمالية السائدة. اما الدولة الشعبية فهي منال ابعد بما لايقاس وقد تقف دون تحققه نظريات فرويد في الغرائز.. وعلى اي حال، يترسم لنا كل من لاوتسه ومريده الأول اساسيات تلك الاشواق التي اعتمر فيها قلب الانسان، لا سيما في الشرق، الى وضع مثالي يخلو ليس فقط من القمع السياسي بل ومن الجوع والتفاوت الاجتماعي أوبكلمة ادق من القمع الاجتماعي حيث يتدامج مفهوما الدولة الديمقراطية والدولة الشعبية في توليفة حكم استشرفها

الحكماء دوماً مع عجزهم المتوارث عن وضع الاسس الملموسة لبنائها.

يحتوي كتاب تشوانغ تسه على ثلاثة وثلاثين فصلاً قصاراً. وتوصل البحث العلمي المعاصر الى تصويب نسبة سبعة فصول منه الى تشوانغ تسه. اما تأليفه الذي اشتمل على الفصول السبعة مضافة الى بقية الفصول الستة والعشرين فيرجع الى كوو شيانغ من القرن الثالث الميلادي. ويلاحظ مع ذلك تقارب في لغة الفصول بمجملها كما في افكارها مما يحمل على الترجيح انها كتبت تحت تأثير الفصول السبعة واستلهمت افكار تشوانغ تسه التي تناقلتها الاوساط الفلسفية جيلاً عن جيل ولو من دون ان تتطابق معها بالتمام.

والجديد في هذا الشأن هو شروح محررها كووشيانغ، وقد تمايزت عنها كثيراً وتضمنت ما بين النقد والتطوير فصولاً هي التي حملت فونغ يولان على اعتبار كووشيّانغ منضج التاوية ومطورها الالمع. وافكار كووشيانغ كما نترسمها في شروحه متقدمة، فلسفياً، على سلفية لاوتسه وتشوانغ تسه.

لغة تشوانغ تسه في الفصول السبعة تقوم على السرد، خلافاً لكتاب لاوتسه، القريب من لغة العروضيين. وهو أكثر غموضاً وانسياحاً من شيخه، بل واقل انضباطاً في تفكيره. وقد خضع لتداعيات مذهبه في اللافعل والانسجام مع نواميس واحكام الطبع الى مستويات وضعته احياناً في تعارض مع مسلماته الأصلية كمثقف كوني مناوئ لما يكدر البشرية في صفائها الروحي المنعتق من اوضار الدولة والمدنيّة. وربما دفعت به تداعيات اللافعل الى القطيعة مع مبادئ الاحسان تحت لافتة عدم التدخل. ولم يدقق في اختيار الامثلة على العمل وفق النواميس الطبيعة ففي حكاية قصاب الامير في الفصل الثالث اراد تشوانغ تسه ان يخطط طريقة للعمل تؤدي الى

افضل ناتج بجهد اقل ونجح في ذلك الى مدى بعيد. لكن القارئ لا يلبث ان يتكدر وهو يتابع ساطور القصاب كيف يعمل تمزيقاً وتقطيعاً في اوصال حيوان. وكان من الاليق لو اختار مثاله من نجار او حداد او مزارع. ... وفي كلامه على صفات الحكيم التي يتفوق بها على بقية الناس وتمنحه قدرات فوق بشرية وتنتهي به الى اقامة علاقة طبيعية مثلى مع الناس قال: ***"ومن هنا يمكن للحكيم ان يدمر بلداً من غير ان يفقد تعلق الناس به"!*** *وهذا تعبير لا مسؤول ويعوزه الاحتراس والتدقيق.*

لا ا ريد أن اجور على صديق الانسان تشوانغ تسه. وحتى لو اردت فلا أحد يضمن لي الحق فيه. بل ولعل قارئاً منصفاً سيقول وهو يتابع هذه الاستعراضات: ليت اخطاءكم يا ابناء هذا العصر كانت بقدر اخطائه.

يلاحظ اخيراً سيطرة صورة الماضي الذهبي على كتابات تشوانغ تسه وعموم التاويين. ان غرارهم المعتاد للحكيمية والتطابق المنشود مع الطبيعة، والحكم المثالي للحكام، والسلوك المثالي للناس مأخوذ كله من الغابرين. وهذه نقطة مشتركة في آسيا نجد لها نظائر في خواطر الهنود والفرس والعرب، وربما تركت مفعول سلبي على تقدم الفكر الاسلامي في علاقته بفلسفة اليونان. ومناطها هو لوح التطور الدوراني في آسيا، التي اتخذ تطورها مساراً اقرب الى التعاود منه الى التعاقب وتبلور تاريخها في مسلسل ارتكاسي يتناوب صعوداً ورجوعاً فلا يكون الاحدث ارقى بالضرورة من الاقدم. ومع وجود خط صعود ينتظم هذا المسلسل يحمل الحضارة المعنيّة الى محطات متقدمة على مدى الاطوار العريضة فإن حالة الانتكاس تبقى فاعلة في كل منعطف لتمنع الافلات منها الى الافق الا على الذي تقفز اليه في العادة منعطفات التاريخ الاوروبي. وضمن هذا المسار المتعرج تكون

الامثولات محددة في الزمان والمكان على نعت الانقطاع لاالاتصال، ومعها ينمو الحنين الى الماضي ليغدو نزوعاً عفوياً اذا لم يجد صاحبه امثولة جاهزة يصنعها لنفسه حتى يبقى في انشداده الى مثال يتطلع اليه من وراء عتمة الحاضر. وقد اشتملت فصول تشوانغ تسه على رموز واحداث غير تأريخية وُظفت لأغراض الفيلسوف ومن بينها اسماء مجهولة سيعجز مترجم الكتاب، وهو بنفسه فيلسوف ومؤرخ فلسفة واسع الاطلاع، عن ارجاعها الى اصل متأرخ. هذا الى جانب رموز معروفة في الوعي الصيني مما يقع داخل التاريخ او خارجه سيشرحها لنا دون غيرها من اسماء قد تكون من صنع المؤلف.

تضم الترجمة الحالية الفصول السبعة التي صحت نسبتها الى تشوانغ تسه. وقد اخذتها عن ترجمة انجليزية اجراها فونغ يولان عام ١٩٢٨ ومعها شروح كووشيانغ منضج التاوية في القرن الثالث الميلادي. واضفت اليها مقتطفات من فصول الكتاب الاخرى من ترجمة الصينياتي البريطاني إي. آر.هيوز. في كتابه Chinese Philosophy in Classical Times الصادر عن دار EVERRYMANS LIBRARY بلندن عام ١٩٤٢ . كما ترجمت تذييل نافع كتبه فونغ يولان عن كوو شيانغ في ختام الفصول لما يلقيه من الضوء على تطور التاوية اللاحق.

عن فونغ يولان

ولد عام ١٨٩٥ في تانغ هو من اعمال مقاطعة هونان الجنوبية. تثقف في جامعات شانغهاي وبيجينغ وكولومبيا وعمل استاذاً للفلسفة في جامعات تشونغ تشو وكايفونغ ويان تشينغ وتشينغ هوا ثم عميداً لكلية الفنون ورئيساً لقسم الفلسفة في جامعة تشينغ هوا فعميداً لكلية الفنون ثم لجامعة الجنوب الغربي المتحدة فاستاذاً زائراً بجامعة بنسلفانيا ثم استاذاً في جامعة بيجينغ. وحصل على درجة شرف من جامعات برينسيتون وكولومبيا ودلهي.

من اعماله: "دراسة مقارنة في مثاليات الحياة" "تصور للحياة" وهما من اعماله المبكرة. "تاريخ للفلسفة الصينية" في مجلدين ترجما الى الانجليزية باشرافه وطبعاً في ليدن بهولندا. "افاضة جديدة في الكونفوشيه الجديدة"، "طريق الصين الى الحرية" "افاضة جديدة في كيفية الحياة"، افاضة جديدة في طبيعة الانسان"، "افاضة جديدة في منهجيات الميتافيزيقيا"، "مجموعة كتابات في زمن الحرب"، "مختصر في تاريخ الفلسفة الصينية" كتب الاخير بالانجليزية راساً، وترجم فيما بعد الى الفرنسي والايصالي والصربي (يوغسلافيا).

عام ١٩٨٥ بدأت دار النشر الشعبية في مقاطعة هونان، حيث مسقط راسه، اصدار اعماله الكاملة في مجلدات تحت عنوان: "الاعمال الكاملة لقاعة الصنوبرات الثلاثة" على طريقة الصينيين في تسمية قاعات البحوث الامبراطورية. وصدرت له منتخبات بالانجليزية عن دار النشر باللغات الاجنبية في بيجينغ عام ١٩٩١ . وفي مقدمته لهذه المختارات وهي آخر ماكتب قبل رحيله عام ١٩٨٨ قال فونغ يولان: ان الصين امة قديمة ذات رسالة حديثة. وان طريق تقدمها مرهون بالحداثة المستندة الى الحضارة الصينية كعنصر لصيق محدّد للنهج الصيني في الحياة وعندما تستكمل الصين تطورها على هذا الاساس ستقدم مثال على الامة العريقة الضارية في دروب الحياة الحديثة تحت راية الاشتراكية، المتساوقة مع حضارتها.وقال انه في مجمل اعماله على امتداد عمره الطويل كان مسكوناً بهذا الهدف الاسمى. وكان نضاله في سبيل هذا الهدف ضمن مجال عمله الاكاديمي اذ لم ينزج في نشاط سياسي مباشر. ومع ذلك فقد واجه محنة قاسية على يد الغوغاء ايام الثورة الثقافية. وقد اتهمه صبيان الحرس الاحمر بانه رجعي ويميني واخرجوه الى ساحة جامعة بيجينغ لارغامه على الاقرار علنا بهذه التهمة مع الركوع ثلاث مرات امام جمهور الطلبة والاساتذة كان يكرر في كل واحدة منها. أنا رجعي! وفي الحملة الغوغائية على كونفشيوس عام ١٩٧٣ ارغم على اصدار بيان يهاجم كونفشيوس بلغة مبتذلة على النقيض من منهجه الاكاديمي الصارم في تناوله لتاريخ الفلسفة الصينية.

تشرفت بلقاء فونغ يولان اواخر ١٩٨٢ في منزله البسيط بجامعة بيجينغ واجريت معه حوار كنت مضطراً الى اجتزائه بسبب ضغط الشيخوخة عليه. ونشرت الحوار اوائل ١٩٨٣ في بيروت. وقد توفي فونغ

يولان وأنا خارج الصين فحرمت من شرف المشاركة في تأبينه. ولم اعلم بنبأ وفاته الا بعد عودتي الى الصين في صيف ١٩٩١ حيث سألت عنه فاخبرت انه رحل قبل ثلاثة اعوام.

من المحزن ان يأتي تكريم فونغ يولان واعادة الاعتبار لاعماله العلمية القيمة على يد ثورة الردة التي الغت النظام الاشتراكي وفرطت بالكرامة الوطنية للصين. وهذه واحدة من المفارقات الموجعة التي يسببها الصبيان لذويهم في المنعطفات التاريخية الحرجة.

فاتحة للترجمة الانجليزية

حظي كتاب تشوانغ تسه بعدة ترجمات انجليزية فما الحاجة الى المزيد؟

ثمت سببين لهذه الترجمة، الأول ان الترجمة هي اما نقل او شرح. وفيما يخص الترجمات الانجليزية للكتاب الحالي يمكنني القول انها جيدة ومفيدة من وجهة ادبية او لغوية الا انها لم تلامس الروح الفلسفية الحق للمؤلف. بكلمة اخرى انها نجحت في الجانب اللغوي والادبي دون الفلسفي. وحيث ان كتابات تشوانغ تسه هي، شأن محاورات افلاطون، عمل فلسفي اكثر منه ادبي فهي في حاجة الى ترجمة تؤكد اكثر على فلسفة صاحبها.

من الجهة الثانية كانت اسرة تشينغ (الامبراطورية التي انتهت عام ١٩١١ ـ هـ) تميل الى المدرسانية ميلاً وفّر للمدرسانيين فرص عمل وافرة في مجال النقد العالي للنصوص بدرجة اتاحت للعديد من اسفار الغابرين ان تغدو في متناول القراء. وتبدو الترجمات الانجليزية الابكر قاصرة عن الانتفاع من ثمرات عمل هؤلاء المدرسانيين المجدين. فكانت الحاجة ايضاً الى ترجمة لتشوانغ تسه تستفيد من منجزات المدرسانية الراهنة.

يقول وليم جيمس ان لكل فيلسوف كبير نظرته، التي اذا امسكنا بها

امكننا فهم منظومته بيسر. ويقول كروتشه انه بقدر ما تكون المنظومة الفلسفية اعظم تكون الفكرة المركزية أيسر منالاً. ومع ان الترجمة الحالية قد اقتصرت على الفصول السبعة الاولى فإني اعتقد انها تحتضن الرؤية او الفكرة الا رأس للمؤلف (مما يوفرالمادة الملموسة لفهم منظومته الفلسفية).

في الاعداد لهذه الترجمة رجعت الى سابقاتها وانتفعت بها لا سيما ترجمة ليغ وغايلز. وحيثما وجدت مفاصل منها صالحة لم ارى ضرورة لمخالفتها لمجرد المخالفة. على ان في بعض النصوص من المصطلحات والعبارات والفقرات ما يشكل مفاتيح لفصل كامل يمكن لمغايرتها في الترجمة ان تضفي على الفصل نبرة او لون مغاير. وفي هكذا حالات اقدمت على تبديل النص تبعاً لما اراه تفسيراً سليماً لمقاصد تشوانغ تسه. وهذه الغاية، مضافة الى الشروح والتوضيحات التي ذيلت بها الكتاب، هي ما يسوغ لي اعتبار هذه الترجمة من عنديّاتي مع اني لا انكر على اي حال ديني لمن سبقني لا سيما ليغ وغايلز.

وأود اخيراً ان اعتذر للقارئ لقابليتي المكبوحة في التعبير عن نفسي بلسان الانجليز.

واعترف له ان ايدي الاصدقاء ل. س. بوتر وأ. دبليوهومل، ومي وو، الذين قرأوا المخطوطة وصححوا الاغلاط اينما وجدوها هي التي جعلت لغة الترجمة اقل سوءاً.وهذه مناسبة للتعبير عن امتناني لهم.

فونغ يولان

بيجينغ - حزيران ١٩٢٨

تنبيه

يحتوي النص المترجم عن فونغ يولان على كلام تشوانغ تسه الاصلي مع شروح فيلسوف تاوي لاحق هو كووشيانغ. وتذييلات لفونغ. وقد طبعت نصوص الاصل بالحرف العادي للكتاب وشروح كووشيانغ وفونغ يولان بالحرف الأسود المائل مع حصرها في قويسات لفرزها عن المتن.

الفصل الاول
رحلة السعادة

"مع ان الكبير يختلف عن الصغير فانهما اذا استغرقا في حيز التمتع الذاتي يجعلان جميع الاشياء تتبع سجيتها الخاصة بها وتفعل تبعاً لوسعها الخاص بها، جميع ماكان عليها ان تكونه مع التساوي في السعادة... ليس من فسحة للتفريق بين الفوق والدون" - كووشيانغ.

في الاوقيانوس الشمالي سمكة اسمها كُون[1] حجمها الف لي استحالت الى طير اسمه بَنْغ عرض ظهره الف لي فكان اذا طار ستر السماء باجنحته كالغيوم.

"الفكرة العامة لتشوانغ تسه هي اظهار رحلة السعادة، الانغماس في دروب اللافعل والتمتع الذاتي. وهو من هنا يقص علينا قصة الكبير للغاية والصغير للغاية حتى يترسم الملاءمة في سجايا الاشياء" - كوو شيانغ.

وعندما يدفع هذا الطير بنفسه في البحر يتهيأ للتوجه الى الاوقيانوس الجنوبي ، البحيرة السماوية.

"لا يقدر البنغ ان يحرك نفسه الا في الاوقيانوس فالهواء لا يحمل اجنحته مالم يرتفع الى تسعين الف لي[2]. ولا يفعل البنغ ذلك فضولاً بل لأن الاشياء

الكبيرة للغاية يلزم ان تعيش في الاحياز الواسعة. ولأنه في الحيز الواسع يلزم ان تتنشأ الأشياء الكبيرة. هذا هو السبب تبعاً للطبيعة. ليس من خطأ يُخشى منه ولا من موضع للهدف القاصد" ـ كووشيانغ.

رجل يدعى تشي شيه كان يسجل أحداث روايته قال: لما يتحرك البنغ الى الاوقيانس الجنوبي يرفرف على الماء مسافة ثلاثة آلاف لي. ثم يصعد على دوامة الى ارتفاع تسعين الف لي، في تحليقة تدوم ستة اشهر.

"لما كانت الاجنحة كبيرة يعسر عليها الحركة ويلزمها اعتلاء صهوة العاصفة لكي تنطلق وان ترتفع الى تسعين الف لي حتى يمكن للهواء ان يرفعها. وحيث ان البنغ له مثل هذه لاجنحة فأنى له ان ينطلق فجأة ثم يهبط على ارتفاع عشرات الوف الاقدام؟ ان للبنغ طريقته الخاصة به للقيام بذلك بحكم الضرورة لا لانه يجب عليه القيام به... الطير الكبير يحلق لمدة نصف سنة ثم يحط في البحيرة السمائية. الطير الصغير يحلق لمدة نصف صباح ثم يحط على الاشجار. ولو قارنا قدرتهما لوجدنا اختلافاً. لكن ما يفعله كل منهما ملائم لطبيعته الخاصة به. وبالتالي فهما على السواء" ـ كووشيانغ.

هنالك الهواء الجوال وهنالك الهباء وهنالك الاشياء الحية التي ينفخ بعضها على بعض.

"هذا لتوضيح ان فعل البنغ طبيعي مثل تحرك الهواء والهباء" ـ كووشيانغ.

لا ندري ان كانت زرقة السماء هي لونها الاصلي ام انها تسببت عن ارتفاعها اللامتناهي. وفيما يرى البنغ الى الارض من فوق، مثلما نراها نحن من اسفل تماماً، يكف عن الصعود ويأخذ بالتوجه نحو الجنوب. بدون عمق كافي لا يحمل الماء زورقاً كبيراً. صب كوب ماء في نقرة صغيرة تصبح حبة الخردل زورقاً. حاول تعويم الكوب يستعسر لان الماء ضحل والوعاء

كبير. بدون كثافة كافية لن تقدر الريح على دعم الاجنحة الكبيرة. وبالتالي حين يصعد البنغ على علو تسعين الف لي تكون الريح باجمعها تحته. ومع السماء الزرقاء في الاعلى وانعدام العائق في الطريق يمتطي الريح ويتجه نحو الجنوب.

"هذا ليبين لنا ان الفارض على البنغ ان يحلق في الاعالي هو ضخامة اجنحته. وان ما يحتاجه الصغير ليس بالكبير وما يحتاجه الكبير لا يكون صغيراً. ومن هنا يكون لعلل الطبيعةمجراها الاليق وللاشياء حدها المستديم. يمكن لكل شيء ان يفعل شيئاً وينجح فيه على السواء. من يفقد اساسيات الحياة (النسيانية؟) ويصارع خارج ما يلائمه ولا يعمل وفقاً لقابليته الطبيعية ويتصرف بغير احاسيسه الاصلية يقع في الإعضال بغض النظر عن ان تكون له اجنحة تحجب السماء او جناح صغير يطير به راساً - كووشيانغ.

ضحكت حمامة وزيز على البنغ وقالتا له: حينما نقوم بجهد نطير الى الاشجار. واذا لم نقدر على الوصول نسقط على قارعة الطريق. ماجدوى المضي الى علو تسعين الف قدم حتى نشرع نحو الجنوب.

"مع اقتناع الشيء بطبيعته لا يبقى للبنغ ما يفخر به على طير صغير ليست له رغبة في البحيرة السمائية. ومن هنا رغم الفارق بين الكبير والصغير فهما سعيدان على السواء" - كووشيانغ.

من يروح الى الضواحي المعشبة ويأخذ معه ما يكفي من الطعام لثلاث وجبات يعود ومعدته ملأى كما راح. لكن من يسافر مئة لي يجب ان يضمن ما يكفي للمبيت. ومن يسافر الف لي يلزمه ان يتزود بما يكفي لثلاثة أشهر.

"بقدر ما يبتعد المرء يحتاج الى تجهيزات طعام اكثر. وبنفس الوتيرة: بقدر

ما تكون الاجنحة كبيرة تزداد الحاجة الى الهواء" ـ كوو شيانغ.

ماذا يعرف هذان المخلوقان؟

"لكون الزيز والحمامة صغيرين فهما لا يعرفان شيئاً عن الكبير" ـ فونغ يولان.

لا موضع لمقايسة الصغير بالكبير ولا الحياة القصيرة بالحياة المديدة. من أين لنا ان نعرف ان هذا هكذا؟ الكمأة لا تعرف أول الشهر ولا آخره. الـ (كريستاليس) لا يدري بتعاقب الربيع والخريف. هذه أمثلة على الحياة القصيرة... في جنوب دولة تشو يوجد مينغ ـ لينغ[٣] يبلغ ربيعه خمسمئة عام. وخريفه مثله. وكان في الماضي السحيق تا ـ تشون[٤] ربيعه ثمانمئة عام. ومثله خريفه. واشتهر بنغ تسه[٢] حتى اليوم لطول عمره. لو أراد جميع الناس مضاهاته لأورثهم التعاسة.

لو ان الدنيا بأسرها اعجبت به لن يتشجع. ولو أن الدنيا باسرها عذلته لم يُحبط. هو يدرك بلمح البصر فرق ما بين الجواني والبراني. يترسم بدقة حدود الشرف والضعة. كان ذلك أمثل ما فيه. ان هكذا انسان نادر في الدنيا. وتبقى لديه على أي حال أمور غير منجزة.

"يدري فقط انه هو نفسه على حق. ولا يدري ان كل شيء على حق" كووشيانغ.

كان ليه تسه[٥] يركب الريح ويشق طريقه في حال طيبة رائقة ليعود بعد خمسة عشر يوماً. انسان نادر من بين الذين حصلوا على السعادة. لكنه يبقى برغم استغنائه عن المشي مضطراً للاتكاء على شيء ما.

"هي الريح ـ فونغ

ولكن هب ان احداً يسوق عربته على سوية الكون، يمتطي تصيرات العناصر الستة ليقوم بجولة في اللانهاية فعلى من سيتكل؟

"الكون هو الاسم الجامع للاشياء. ولديه جميع الاشياء الموافقة له. ان السوية هي القاعدة الطبيعية المنشودة للاشياء كلها. "ما هو هكذا بالتلقاء (لم يصنع ليكون هكذا) فهو الطبيعي. يطير البنغ في الاعالي والسمانى في الاسافل. التا تشونغ يمكنه العيش عمراً مديداً والكمأة اياماً معدودات. وهذه القدرات طبيعية كلها لم تصنع ولم تلقَّن. وهكذا فهي أمور سوية. ومن هنا: السير وفق سوية الكون هو أن تقفو سجية الاشياء. وركوب تصيرات العناصر الستة هو للقيام برحلة في دروب التحول والارتقاء. فمن مضى على هذه الشاكلة متى يتمكن من بلوغ النهاية؟ ومن خب في سبيله غير عابئ فعلى اي شيء يتعين عليه الإتكال؟ تلك هي سعادة وحرية الانسان الكامل، المتوحد مع الغير.. اذا تعين على احد أن يتكل على شيء فلن يكون سعيداً مالم يتكل عليه. ومع ان ليه تسه شق دربه بوسيلة لطيفة كهذه فقد بقيت له حاجة هي الريح. بل ان البنغ اكثر اتكالاً... وحده الذي يتجاهل تمايزات الاشياء ويقتفي درب الارتقاء الاعظم هو من يكون مستقلاً على التحقيق وحراً على الدوام" - كووشيانغ.

ومن هنا قيل ان الانسان الكامل لا نفس له، والروحاني لا فعل له والحكيم الحق لا اسم له.

"كل شيء له سجيته الموافقة. وسجية كل شيء لها حدها الموافق. الفروق بين الاشياء تشبه على التمام ما بين المعرفة الصغيرة والكبيرة، وما بين الحياة القصيرة والمديدة.. الكل راضٍ بمضماره الخاص به ولا أحد متفوق بالفطرة على احد. بعد اعطاء ترسيمات شتى يختتم تشوانغ تسه بالانسان المستقل، الذي ينسى نفسه والآخرين. يتجاهل الفوارق بأجمعها. ان الاشياء باسرها

تتمتع بمضاميرها الخاصة بها لكن الانسان المستقل لا فعل له ولا اسم. وبذلك فمن يوحد بين الكبير والصغير هو من يتجاهل التمايز ما بينهما. والمصر على التمييز: البنغ والزيز والموظف الصغير وركوب ليه تسه الرياح فقد أوبق نفسه. ومن يساوي بين الحياة والموت هو من ينسى الفارق بينهما. ومع الاصرار على التمايزات فإن تا ـ تشون وبنغ تسه وكمأة الصباح تكابد من هلاك مبكر. ومن هنا فمن يقوم بالرحلة في لا تمايزات الكبير والصغير ليس له حد ومن يتجاهل تفارق الموت والحياة لا منتهى له. ومن ترتهن سعادتهم في المتناهي هم المحدودون. ومع انهم مسموح لهم بالرحلة فهم غير قادرين على ان يكونوا مستقلين" ـ كوو شيانغ.

"ان تمتعت الاشياء في محيطها المتناهي فالمتعة متناهية. مثلاً: ان يتمتع المرء بالحياة فقط فيكابد الموت او يتمتع بالسلطة فيكابد من خسرانه اياها. اما المستقل فيعبر المتناهيات مخفياً العالم في العالم كما جاء في الفصل الخامس، الى اللامتناهي: الانسان الكامل لا نفس له" لانه تجاوز المتناهي وتمهوى مع الكون. "الروحاني لا فعل له" لأنه يقفو طبيعة الاشياء ويترك كل شيء يتمتع بنفسه. "الحكيم الحق لا اسم له" لان فضيلته كاملة، اذ كل اسم هو تحديد ـ فونغ.

اراد ياو(٦) ان يعتزل لصالح شويو (٧) قائلاً: اذا اصر المرء على ايقاد المشاعل مع شروق الشمس والقمر الا يكون عسيراً عليها ان تضيء، واذا اصر على سقي الحقول والامطار الموسمية تهطل اليس في ذلك اهدار للجهد؟ والآن ايها السيد انت تقف الآن امام العرش حتى تكون الامبراطورية في أمان. ومع ذلك تترك رئاستها لي. انني واعٍ لنقيصتي. اتوسل اليك ان تأخذها مني.

أجاب شو يو: بل انت ايها السيد تول امرها تكن في سلام في الحال.

هب اني اخذت، أيمكن ذلك لأجل الاسم؟ ليس الاسم الا ظل الكسب الواقعي. ايمكن ذلك لأجل مكسب اصلي؟ يبني الزرزور عشه في الغابة الجبارة ولا يحتل منها سوى فنن واحد. يروي الحيوان غلته من النهر ويشرب فقط ما يكفيه لملء جوفه. ارجع انت وكن مطمئناً لا حاجة بي الى الامبراطورية.

"الطيور، البهائم، وجميع الاشياء راضية بطبيعتها. ياو وشويو كلاهما في موقعهما تماماً. وهذا تحصيل فعلي جداً. ومادام لكل واحد تحصيل فعلي فما الحاجة الى النشاط المصطنع؟ الكل يتمتع ببساطة. ومع ان ياو وشويو مختلفان في تناولهما للاشياء فإن سعادتهما واحدة - كووشيانغ.

قال تْشَينْ توو لـ لْينَ شو[٨]: سمعت من تشيه ان بعض ما ينطق به جليل انما غير مبرر، لانه ما ان يبدأ حتى يستمر الى مالا نهاية. وقد اجفلتني كلماته التي بدت لي بلا حدود مثل درب التبانة. كانت بعيدة عن الاحتمال وابتعدت جداً عن التجربة البشرية.

فسأله لْين شو: ماذا قال؟

أجاب تْشين وو : في منأى بعيد، عند جبل كو يي عاش رجل روحاني كان لحمه وجلده كالثلج والجليد وكان في لطفه ورهافته كالعذراء. وكان لايأكل اياً من الحبوب الخمسة انما يستنشق الريح ويشرب الندى.

"يعلو الروحاني على الماديات" - فونغ.

كان يمتطي السحب، يسوق التنانين الطيارة، يهيم على وجهه في البحار الاربعة.

"يذهب وراء المتناهيات - فونغ

"روحه مكتظه

ساكنة، مطمئنة فهو لا يتأثر بالبراني" ـ فونغ

كان مقتدراً على اصلاح الاشياء من الفساد وتأمين حصاد سنوي وافر.. كنت اعتقد ان هذه اقاويل لا معنى لها وأبيت ان اصدقها.

قال لْين شو: اجل! ليس للاعمى ما يفعله بالجمال ولا الاطرش بالموسيقى. والعمى والصمم عقليان كما هما يدنيان. وعن الاول تقدم انت نفسك الدليل. ذاك الانسان المغمور بالفضيلة يمكنه احتضان جميع الاشياء. وعنده ان كل شيء في الدنيا يرنو الى السلم، ترى لماذا ينبغي ان يتصدى البعض لحكم الامبراطورية؟

"مادامت جميع الاشياء ترنو الى السلم فلم لا نتركها تحصل عليه بنفسها؟" ـ فونغ

ذاك انسان لا يؤذيه شيء. لا يغرقه طوفان يبلغ السماء، وفي الجفاف حين تسيل المعادن وتشيط الجبال لا يشعر بالحر.

"ليس من مقدار يمكن للانسان الكامل أن يقنع به. فهو راضٍ حيثما كان. الموت والحياة لا يضيرانه، والاقل من ذلك الفيضان والقيظ. الانسان الكامل لا تعضله القوارع لانه قادر على تفاديها. وفي مجرى الاسباب يمضي قدماً ويلقى الخير طبيعياً ـ كوو شيانغ.

"مع ان الانسان الكامل قد يتأذى لسبب ما فان ذهنه لا يضار" ـ فونغ.

حتى غباره ومنخوله يبقى غرارياً ويمتزج فيه ياو وشون[٩] فأي شيء يوجب عليه الانشغال بالاشياء؟

رجل من دولة سُنغ[١٠] حمل قبعات احتفالية الى دولة يْويه[٢] لكن

رجال يويه تعودوا على قص شعرهم وصبغ ابدانهم فهم لا يتخذون مثل هذه القبعات.

ياو حكم شعب الامبراطورية واقام حكومة كاملة ضمن البحار الاربعة. توجه لرؤية الحكماء الاربعة في جبل كو يي النائي. وفي العودة الى عاصمته جنوب نهر فُن نسي امبراطوريته في صمت.

"ياو لا يحتاج الى الامبراطورية. تماماً مثلما ابناء بويه لا يحتاجون الى القبعات لكن من لا يحتاج الى الامبراطورية هو تماماً ذلك الانسان الذي تحتاجه الامبراطورية. ومع أن الامبراطورية اتخذت من ياو راساً لها فإن ياو نفسه لا يعتبر الامبراطورية ضميره المتكلم (تا ده). ولذلك نسيها وترك لذهنه ان يسيح في مملكة اللاتمايز. ومع انه استوى على العرش وهيمن على الاشياء كلها فليس من شيء قادر على اقلاق راحته" - كوو شيانغ.

قال هْوي تسه[11] لتشوانغ تسه: بعث الي ملك وي[1] شيئاً من بزر اليقطين فزرعتها واعطت ثماراً بقدر خمس قنطارات. اتخذتها وعاء للماء لكنها ليست صلدة بما يكفي لحفظه. قطعتها الى نصفين لعمل مغرفة لكن النصفين كانا من الضحالة بحيث لا يمسكان شيئاً.. ونظراً لعدم الفائدة هذا حطمتها وذرة وذرة". فعقب تشوانغ تسه:

انت يا سيدي لا تحسن استعمال الاشياء الكبيرة. رجل من سُنغ كانت لديه وصفة لعلاج الايدي المتشققة. وكان اسرته تحترف غسل الحرير من عدة اجيال. وسمع رجل غريب بوصفته فعرض عليه مئة قطعة ذهب مقابلها، واجتمعت الاسرة للنظر في العرض فقالوا: اننا نغسل الحرير من اجيال ولم نحصل الا على بضعة قطع ذهب. والآن في صباح واحد نبيع هذا الفن بمئة. فأخذها الغريب وانكفأ لابلاغ ملك وو، وكان هذا في نزاع

مع دولة يويه فقلده امرة الاسطول. وفي الشتاء اشتبك مع دولة يويه فهزمها هزيمة منكرة بعد ان استعمل المرهم لعلاج تشقق الايدي، وهو مالم تكن دولة يويه معنية بتوفيره لجنودها.

وكوفئ الرجل باقطاعة ولقب. وهكذا ورغم ان كفاءة علاج الايدي واحدة في الحالتين فقدأمّنت له هنا لقباً بينما هي لا تزيد هناك على كفاءة غسل الحرير. ومرجع ذلك الى تفاوت التطبيق.. والآن يا سيدي عندك خمس احمال يقطين فلماذا لم تعمل منها دبة ضخمة وتستعملها للعوم في الانهار والبحيرات بدلاً من ان تأسف لانها لا تصلح لامساك شيء.؟ ما اظنك الا مشوش البال.

اجاب هوي تسه: لدي دوحة يسميها الناس شجرة السماء جذعها من عدم الانتظام وكثرة العُجر بحيث لا يستطيع النجارأن يضع خطوطه عليها. واغصانها الصغيرة من الالتواء بحيث لا تصلح لاستعمال ادوات النجار. وهي تقف شامخة على قارعة الطريق من دون ان يلتفت اليها النجارون. وانت يا سيدي كلماتك كبيرة لكنها عديمة الفائدة ولا نفس لاحد فيها..

رد تشوانغ تسه: هل سبق لك ان رأيت قطة وحشية او ابن عرس؟ وكيف انها تحبو بانتظار فريستها، او تتقافز شرقاً وغرباً مع تجنب العالي والواطي من الاماكن. لكنها اخيراً تقع في مصيدة او تموت في شبكة. مرة اخرى، ثمت باك[١٢] حجمه بحجم الغيوم عبر السماء الا انه لا يقدر على اصطياد فارة. وانت لديك دوحة الا انك قلق لانها عندك عديمة الفائدة. لماذا لم تغرسها في ارض اللاوجود؟ في البراري العريضة المترامية؟ ولو فعلت لكنت تسيح منها في اللافعل وتنام تحتها في سعادة. ان كون الشيء عديم الفائدة عند الغير يجعله في منأى عن الاذى.

"ـ تبين هذه الامثال ان كل شيء له لياقته المخصوصة به وان كل شيء نافع بطريقة معينة وغير نافع في غيرها" ـ فونغ.

الهوامش

(١) كون: بضم الكاف. بنغ: يلفظ الباء قريباً من باء باريس، مع فتحة خفيفة.

شبه: بكسر الشين وعدم لفظ الهاء

– البحيرة السمائية: استعملت النسبة سمائي لمقابل sky . وسماوي لمقابل HEAVEN والمكلمة في الاصل الصيني لاتتمايز الا في السياق. واستعمالي للنسبتين المهموزة والواوية لزيادة التمييز.

سأستعمل أيضا "سماوات" في صيغة الجمع في معظم الحالات المقابلة لـ تْيان (HEAVEN).

(٢) لي: وحدة مسافة تعادل خمسمائة متر.

(٣) مينغ لينغ وتاتشون عند بعض الشّراح شجرتان . وعند آخرين علمان لشخصين ـ فونغ.

(٤) بنغ تسه(باء قريبة من باء باريس) رجل من أسرة شانغ (ثاني الاسرات) يقال انه عاش ثمانمائة سنة ـ فونغ

نوح الصيني ـ هـ.

(٥) ليه تسه: من آباء التاويين. والكتاب المسمى باسمه من مأثوراتهم الكبرى ـ هـ.

(٦) باو وشون من الملوك الحكماء

(٧) شويو ناسك حسب المأثورات الصينية

(٨) تشين: سكون التش وفتح الياء. لين: سكون اللام وفتح الياء

(٩) ياو ملك حكيم حسب المأثورات الصينية

(١٠)سنغ بضم السين، يويه بسكون الياء وفتح الواو وإمالة الياء، فن بضم الفاء

(١١) هوي تسه: بسكون الهاء وكسر الواو، زعيم المدرسة المنطقية . وكان يعاصر تشوانغ تسه

وَي: بفتح الواو.

(١٢)ياك: الجاموس التبتي ـ هـ

الفصل الثاني
في تساوي الاشياء

"كل شيء يرى نفسه محقاً وغيره مبطلاً. يرى نفسه جميلاً والآخرين قباحاً. كل شيء هو ماهو . تتخالف آراء الفرد والآخر لكن كلاهما له رأيه وهم في ذلك سواء" ـ كووشيانغ.

جلس نان كوو تسه تشيمتكئاً على منضدة. نظر الى السماء وتنفس بارتياح، بدا كأنه في غيبوبة،غير شاعر بجسده.

قال ين تشنغ تسه يو وكان في خدمته: ما هذا؟ ايمكن لجسد ان يكون كالخشب اليابس، والذهن كالرماد الخامد؟ الرجل المتكئ على منضدة ليس هو الذي كان هنا من قبل.

قال تسه تشي: سؤالك في محله تماماً. الآن بالضبط اضعت نفسي. لعلك سمعت موسيقى الانسان ولم تسمع موسيقى الارض. لعلك سمعت موسيقى الارض ولم تسمع موسيقى السماء.

رد تسه يو: اغامر فاطلب منك وصفاً عاماً لهذه.

قال تسه تشي: نَفَس الكون سمى الريح. هي الآن راكدة. عندما تنشط

تأتي اصوات غاضبة من كل منفذ. الم تسمع الدوي المتنامي؟ ان المظهر المهيب للغابة الجبلية، فتحات وتجاويف الشجر تشبه المناخر، تشبه الفم، تشبه الاذنين، تشبه الاقداح، تشبه الهاون، تشبه البرك.. تندفع الريح من خلالها محدثة اصوات مياه متدفقة، ازيز السهام، التعنيف، التنفس، الرمي، البكاء، العويل، انين المحتضر. بعض الاصوات عالي وبعضها عميق. الريح الرفيقة تنتج تجانسات صغرى. الريح العنيفة تنتج تجانسات كبرى. بعد ان تمر العصفة الشديدة تعود جميع المنافذ فارغة. الم تر توتر واستقرار الاغصان والورقة.

"ليس الاصوات هي المختلفة فقط بل الحركات ايضاً. الحركات تتنوع بطرق شتى لكنها متماثلة. ليس من سبب لاعتبار التوتير صحيحاً بالخصوص او الاهتزاز خطأ بالخصوص" ـ كووشيانغ

قال تسه يو: موسيقى الارض تتألف من اصوات تنتج عن فتحات متنوعة. أما موسيقى الانسان فتأتي من الانابيب والحزوز. واغامر بالسؤال من اي شيءتتألف موسيقى السماء؟

قال تسه تشي: حين تهب الريح تختلف بالوف الاشكال لكنها على اي حال تهب من ذاتها. لماذ نتصورها تهب باثارة من شيء آخر؟

"هذه هي موسيقى السماء. ليست هي شيئاً بجانب غيرها. فالفتحات والانابيب، والحزوز وبقية الكائنات الحية كلها تؤلف الطبيعة. ولما كان اللاكائن لا كائن فلا يستطيع انتاج الكائن واذا لم يكن الكائن منتوجاً (مخلوقاً) فليس بوسعه انتاج (خلق) غيره. فمن هو يا ترى منتج الاشياء؟ الجواب انها تُنتِج نفسها تلقائياً، ونحن نسمي صيرورة الشيء ما هو تلقائياً بالطبيعي. ان كل شيء هو ماهو بالطبع ولم يصنع ليكون هكذا. ومن هنا حين

يتكلم تشوانغ تسه عن السماء (الـ تيان) فهو يقصد الطبيعي،ولا وجود لشيء ينوع بوصفه تيان. ترى من سيمكنه ان يكون هو السيد الذي يأمر على الاشياء،كل شيء موجود بنفسه ولم يوجده احد. هذا هو سبيل الطبيعة" ـ كووشيانغ

"هبوب الريح متنوع لكن الرياح متساوية بالطبع وجيدة بالطبع. وهكذا الاشياء والآراء على شتاتها تكون متساوية بالطبع وجيدة بالطبع" ـ فونغ.

المعرفة الكبرى عريضة شاملة. المعرفة الصغرى جزئية مفيدة. الكلام الكبير غني ونفاذ، والكلام الصغير ليس إلا كلاماً كبيراً. حين ينام الناس تتشوش النفس وحين يستيقظون تكون حركة البدن.

"الحلم هو تشوش النفس" ـ فونغ

في علاقات الناس ببعضهم توجد مناورة وتدبير ونضال يومي. بين العقل والعقل. هناك حيرات واخفاءات وتحفظات. الادراكات الصغرى تسبب مصائب، الادراكات الكبرى تسبب مخاوف. عقل البعض يطير قدماً مثل الرمح، الحكم بين الحق والباطل، عقل غيرهم يبقى ثابتاً مثل ميثاق مقدس. حارس الحقوق مؤمن. عقل البعض يخمل كما تتحلل الاشياء في الخريف والشتاء. عقل غيرهم يغرق في المرح فلا يفيء (الى حفاظ).عقل آخرين له عوائد مثبتة مثل وشل قديم. فهو على وشك الموت ولا يمكنه ان يفيء الى نشاط.. الحبور والسخط، الاسى والسرور، القلق والاسف، التقلب والعزم، الشد والارخاء،التسامح والجربزة، هذه كلها تأتي كالموسيقى الصائتة من انبوب فارغ او كمأة نشأت من الدفء والرطوبة. تتعاقب يومياً وليلياً في داخلنا ولا ندري متى تنبثق. أفي وسعنا ان نتوقع في اللحظة ادراك كيفية انوجادها؟

"ما ورد اعلاه هو وصف لتنوع الظروف النفسانية. فهي تظهر تلقائياً مثل صوت موسيقى من قصبة او كمأة تنشأ في الدفء والرطوبة. وهي ناتجة بدون منتج، تماماً كما ان موسيقى الارض لا تحتاج الى عنصر مخصوص لاثارتها" - فونغ.

لولم يكن هو لم اكن انا. ولولم يكن انا لم يكن من يصنع التمايزات. يبدو هذا صحيحاً. ولكن ماهو مصدر هذه التنوعات؟ انه ليبدو كما لو ان هناك (سيد) ولكن لا دليل عندنا على وجوده. قد يعتقد البعض انه موجود لكن لا نرى صورته. قد يكون له واقع ولا صورة. ان الاجزاء المئة في الجسد مع فتحاته التسعة واحشائه الستة كلها مكتملة في مواضعها. اي منها هو الافضل؟ هل تحبها جميعها على السواء؟ او تحب بعضها اكثر من الآخر؟ هل هي كلها خدم، هل هذه الخدم غير قادرة على تدبير بعضها البعض وتحتاج الى حاكم؟ هل تتناوب الحكم على /وخدمة/ بعضها البعض؟ هل من فاعل حقيقي فوقها. هذه الاسئلة تبقى في الحساب. وسواء وجدت لها اجابات صادقة ام لا فهي لا تعني الا القليل من حقيقة "الحاكم" (ان كان قد وجد).

"في الكون الأكبر لا وجود لسيد حقيقي غير تنوعات الاشياء. ليس من رب. في الكون الاصغر لا وجود لحاكم حقيقي عدا الاجزاء المختلفة للبدن. ليس من روح" - فونغ

اذا اخذنا الصورة الجسدية باكملها نجد ان اجزاءها لا تفشل في اداء وظائفها حتى تحين النهاية. وفي التصادم والتوافق مع الاشياء فهي تتبع مجراها بسرعة الحصان الموجف الذي يتعذر ايقافه. اليست هذه مجلبة للاسى؟ ان يكون الكدح متواصلاً طول العمر من غير ان نرى ثمرة كدحنا،

ان نكون على قلق سائرين ولا يدري احدنا الى اين يمضي؟ قد يقول المرء: "هناك خلود". ولكن ماجدوى قوله؟ حينما يتحلل الجسد تتحلل الروح. الا يمكن لنا اعتبار ذلك من الموجعات؟ هل حياة الانسان على هذا القدر من الجهل؟ وهل أنا وحدي الجاهل ولا وجود لجاهل سواي؟

ان كان على الناس ان يسترشدوا بأحد فمن سيكون له مثل هذا المرشد؟ ليس فقط اولئك الذين يعرفون تعاقبات الحق والباطل ويختارون بينها تكون لهم اراء. فالمعتوهين لهم ذلك ايضاً. ان وضعاً يخلو من الآراء، بعد ان يكون التمييز بين الحق والباطل قد حصل لهو من صعوبة التصور كما لو ان احداً يذهب الى ئيوه اليوم ويصل اليها امس. اي اننا نجعل مالا يكون يكون. وانى لنا ان نجعل مالا يكون يكون؟ حتى يو[1] المقدس لا دراية له فماذا اقول انا؟

"يبين ذلك ان جميع التمييزات للحق والباطل خاضعة للرأي" - فونغ

الكلام ليس مجرد نفخ الهواء. فهو (المتكلم) يريد ان يقول شيئاً. لكن ما يريد قوله لم يتثبت اطلاقاً.

"ما يؤكده واحد قد ينكره الآخر" - فونغ

هل نفخ الهواء هو كلام حقاً؟ يرى البعض ان الكلام مختلف عن سقسقة الطيور. ولكن هل من فارق بينهما؟ كيف يكون التاو غامضاً بحيث يتوجب التمييز بين الحقيقي والزائف؟ كيف يكون الكلام غامضاً بحيث يتوجب التمييز بين الحق والباطل؟ أي مكان ليس فيه التاو؟ وفي اي مكان يكون الكلام غير مناسب؟

"التاو حالّ في كل مكان والكلام ملائم في كل مكان. جاء في فصل

"فيضانات الخريف" من كتاب تشوانغ تسه" من وجهة التاو لا تمييز للقيمة واللاقيمة. ومن وجهة الاشياء كل شيء يرى القيمة لنفسه ولا يراها لغيره. ان قلنا ان شيئاًما عظيم فلانه محسوب هكذا من طرف بعض الاشياء. ومعنى ذلك ان كل شيء هو عظيم. وان قلنا ان شيئاً ما صغير فلأنه محسوب هكذا من طرف بعض الاشياء. ومعنى ذلك ان كل شيء هو صغير. وان قلنا عن شيء انه صحيح فلانه كذلك عند البعض، ومن ثم فكل شيء صحيح. وان قلنا عن شيء انه خطأ فلأنه كذلك عند البعض ومن ثم فكل شيء خطأ. ان أي كلمة يمكن ان تكون محمولة لأي شيء. وكل كلمة ملائمة في كل مكان" ـفونغ

التاو غامضة بالمحاباة والكلام غامض بالبلاغة. النتيجة هي اثبات ونفي الكنافشة والموهيين. الواحد منهم يعتبر حقاً مايعتبره الآخر باطلاً او يعتبر باطلاً ما يعتبره الآخر حقاً. ان اردنا اثبات ما تنكره المدرستان كلاهما وانكار ما تثبتانه فليس افضل من استعمال ضوء العقل.

يميز الكنافشة والموهيون بين الحق والباطل. ولإثبات ما ينكرون ومالا ينكرون ننفي ان يكون للتمييز اساس في الاصل" ـ كوو شيانغ.

كل شيء هو "ذاك (غير للشيء)". كل شيء هو "هذا" (ذاته الخاصة به) الاشياء لا تدري ماهو "ذاك" لأن وعيها مقتصر على الـ "هذا". ان الـ "ذاك" والـ"هذا" ينتجان بعضهما. وعليه حيثما وجدت حياه يوجد موت. وحيثما يوجد موت يوجد حياة. حيثما يوجد امكان يوجد محال، وحيثما يوجد محال يوجد امكان، ولأنه يوجد حق يوجد باطل، ولأنه يوجد باطل يوجد حق. ومع احتساب هذه الحقيقة لا يسلك الحكماء هذا المسلك انما يرون الاشياء في ضوء الـ "تيان" ـ السماء أو الطبيعة. هـ. أن الـ"هذا" هو ايضاً "ذاك"، والـ"ذاك" هو ايضاً "هذا". وللـ"ذاك" نسق للحق والباطل

وللـ"هذا" مثله. هل من تمايز صادق ما بين الـ "هذا" والـ"ذاك". ان عدم تضاد الـ هذا والـ ذاك هو جوهر التاو الاقرب وهو المحور ومركز الدائرة المستجيب لتغيرات لانها ية...ومن ثم قيل: مامن شيء احسن من استعمال نور العقل.

"تمايزات الحق والباطل ترجع كلها الى الرأي. والقادر على استظهار الخطأ والصواب من الآراء هو العقل التعليمي الذي يرى الاشياء في ضوء السماء، مدركاً ان "نسق الخطأ والصواب" هو محاكمة بشرية وليس من قضايا الطبيعة الثابتة. ان رؤية هذا هو الجوهر الاقرب للتاو" ـ فونغ

استعمال اصابع في رسم اصابع بوصفها ليست اصابع ليس جيداً. كما لو تستعمل لا أصابع في رسم اصابع بوصفها ليست اصابع. اتخاذ حصان ابيض لرسم احصنة بوصفها ليست احصنة ليس جيداً كما لو تتخذ لاحصان في رسم احصنة بوصفها ليست احصنة. العالم كله اصبع الاشياء كلها حصان.

"لتبيان انه لا تفريق بين الحق والباطل فليس احسن من رسم شيء واحد بواسطة الآخر. ففي رسم واحد بواسطة الآخر نجد أن الاشياء تتفق في انها جميعها ترى نفسها على حق والغير على الباطل. ومادامت تتفق على ذلك فمعناه انه لا يوجد صواب في العالم. أما من جهة اتفاقها جميعها انها على حق فمعناه انه لا يوجد خطأ في العالم. أنى يكون هذا؟ ان كان الحق حقاً باطلاق فينبغي ان لا يوجد خطأ وان يكن الخطأ خطأ باطلاق فينبغي ان لا يوجد ما نعتبر انه حق. ان حقيقة انكار عدم التعيين بين الحق والباطل والتخبط في التمييزات تبين ان التمييز يرجع الى النظرة المنحازة. ان الاشياء متفقة في الحقيقة. ونحن نرى مصداق ذلك في كل مكان. ومن هنا اذ يعرف الانسان الكامل ان العالم هو اصبع وجميع الاشياء حصان يُخلد الى السلم الاعظم.

جميع الاشياء تعمل وفقاً لطبعها. وتتمتع. فلا فرق بين حق وباطل ـ كوو شيانغ.

"في هذا تمثيل للنظرية القائلة ان مهاجمة نسق واحد للخطأ والصواب مع نسق آخر هو قياس غير صحيح بقدر ما لو تهاجم النسق الكلي للخطأ والصواب مع نسق اللاتمييز بينهما. ان برهان الاصبع والحصان استعمله المناطقة القائلين بوجود تمايز مطلق بين الصح والخطأ. وانكره التاويون القائلون بعدم وقوع التمايز وقد اوقع ذلك النزاع بين المدرستين" ـ فونغ.

الممكن مكن والمحال محال. التاو يجعل الاشياء ماهي عليه (يعطيها ماهيتها ـ هـ) وأي شيء ماهي، وأي شيء ماليس هي! كل شيء هو بعض لشيء مامن شيء ليس بعضاً لشيء او غير صالح لشيء. يوجد الواح سقوف واساطين، قباحة وحسن، غريب وفوق عادي .وهذه كلها تتوحد بالتاو وتغدو متماثلة.. القيام بالتمييز هو القيام ببعض الانشاء لكن الانشاء هو التفكيك نفسه. وبالنسبة للاشياء ككل لا وجود لانشاء ولا تفكيك فهي تتجه للوحدة والتدامج. الذكي وحده يدرك وحدة الاشياء وهو بالتالي لا يصنع تمايزات وانما يقفو المشترك والعادي. المشترك والعادي هما الوظائف الطبيعية للاشياء والتي تعبر عن الطبيعة المشتركة للجميع. وباتباع الطبيعة المشتركة تكون الاشياء سعيدة. واذ تكون سعيدة تقترب من الكمال. وكمالها توقفها. فهي تقف وان كانت لا تدري انها واقفة. ذلك هو التاو.

ان ابلاء الروح والفطنة للوصول الى وحدة الاشياء بدون معرفة انها متفقة يسمى ثلاثة في الصباح. مامعنى ثلاثة في الصباح؟ تلقى ناظر سعادين امراً بخصوص راشن البلوط يقضي ان يكون لكل سعدان ثلاثة في الصباح واربعة في الليل. لكن السعادين غضبت لذلك. فقال الناظر: ليكن

لكل واحد اربعة في الصباح وثلاثة في الليل ففرحت السعادين كلها. ان العدد الفعلي للبلوط بقي نفسه وكان الفارق فقط في مشاعر السعادين فيما يخص الرضا والسخط، فسلك الناظر على منوالها. ومن هنا يموفق الحكماء نسق الصح والخطأ ويستريحون في دورة الطبيعة. هذا يسمى اقتفاء مجريين في آن واحد.

"مع ان انساق الصح والغلط ليست الا محاكمات بشرية وليس لها مشروعية من وجهة نظر الطبيعة فإن الناس يقومون بهذه المحاكمات كحقيقة، هي بدورها ظاهرة طبيعية. ولذلك يستريح الحكماء، في دورة الطبيعة تاركين الآراء المتضاربة لحالها دون ان ينازعوا او يتدخلوا فيها. هم لا يشطبون على الآراء انما يتجاوزونها وهو ما نسميه اتباع مجريين في آن واحد" ـ فونغ.

معرفة الغابرين كانت تامة. وكيف؟ اولاً لانهم لم يعرفوا وجود الاشياء وهذه هي المعرفة الاتم التي لا تقبل الزيادة. ثم عرفوا وجود اشياء لكنهم لم يمايزوا بينها. ثم قاموا بالتمييز ولكن لم يقوموا بالمحاكمات حولها فمع المحاكمات يفسد التاو. واذ يفسد التاو تنتهي الافضليات الجزئية. هل حقاً يوجد انشاء وتفكيك؟ هذا يشبه حقيقة عزف تشاو ون على المزهر. فالقول بأنه لا يوجد انشاء وتفكيك هو كالقول بأن تشاو ون لا يعزف على المزهر (وان كان قد عزف عليه فعلاً!)

لما عزف تشاو ون على المزهر استعمل شيه كوانغ العصا لضبط الوقت. حاجج هْوي تسه وهو متكئ على شجرة[٢]. وكانت دراية كل من الاساتذة الثلاثة بفنونهم تامة تقريباً، فمارسها كل منهم حتى آخر ايامه. ولانهم كانوا مولعين بها احبوا تنوير الناس بها لكن الناس رغبوا عنهم فانتهى هوي تسه بمحاججة غامضة عن الصلابة والبياض[٣].

بعد تشاو ون واصل ولده العزف على اوتاره، ولم يتمها. ان كان هذا يدعى "اتمام" فقد قمت انا باتمام شيء ما. وان لم يكن يدعى "إتمام" فلا أنا ولا غيري نكون قد انجزنا شيئاً. ومن هنا فما كان يرمي اليه الحكماء هو النور خارج العتمة. وهم لذلك لا يقومون بتمييزات ويتوقفون عند العادي من الاشياء. هذا يسمى استعمال نور العقل التعليلي.

"يتدرج تشوانغ تسه هنا من مناقشة المعرفة العقلية للتمايزات بخصوص الصواب والغلط الى الخبرة الباطنة لاتحاد الجزء في الكل. وينحفظ الاتحاد في ارض الخبرة الخاصة. وهذا هو منحى الغابرين، كانوا يأخذون التجربة الخالصة ببساطة، الاستحضار الفوري ، الـ "ذاك" باختصار. (لانه يجب ان تبقى الذاك خالصة، مجردة الى ان نقرر ماهي). هم يأخذون الـ"ذاك" بقيمتها المباشرة لأ اكثر ولا اقل. وأخذنا بقيمتها هذه يعني قبل كل شيء أخذها كما نشعر بها من غير أن نربك انفسنا بالكلام المجرد عنها ونحشد الكلمات التي تسوقنا الى اختراع تصورات ثانوية لتذهين اقتراحاتنا وجعل خبرتنا الفعلية تبدو مرة اخرى ممكنة عقلياً. وفي هذه الحالة يوجد دفق غير متكسر من التجربة لا يعرفه المجرب.. لم يعرف الغابرون وجود الاشياء حتى ينفوا عنها التمايز.. الاشياء لا تنفصل عن بعضها حتى نقول كلا للتمييز بين الذات والموضوع. وهكذا في حال تجربة كهذه لا وجود إلا للواحد" ـ فونغ.

"برانياً، ينسى الغابرون السماوات والارض، يهملون الاشياء قاطبة، فلا مراقبة قاصدة عندهم للعالم. جوانياً هم لا يعون ابدانهم. ومن هنا فهم احرار وبدون اشكالات يذهبون مع اي شيء ويتكيفون لاي مكان ـ كوو شيانغ.

لدي الآن شيء اقوله انا لا ادري ان كان ما ساقوله هو من غرار ما يقوله الأخرون. فبمعنى اول ان ماأقوله ليس من طراز واحد وبمعنى ثاني هو من نفس الطراز وانه لا فرق بين قولي وقول الاخرين. ولكن ومع ان هذه هي

الحالة فإني احاول الابانة: ثمت بداية. ثمت لابداية. ثمت لا ـ لا بداية..ثمت كائن، ثمت لا كائن، ثمت لا ـ لا كائن... فجأة يقع التمييز بين الكائن واللاكائن. لكنني لا اعرف بين الكائن واللاكائن ماهو الكائن الحقيقي وماهو اللاكائن الحقيقي. قلت للتو شيئاً ما لكنني لا ادري ان كان ما قلته هو شيء ما حقيقي يقال ام لا. ليس في العالم اكبر من رأس شعرة، لكن جبل تاي صغير. لا شيء اكبر من طفل ميت لكن بنغ تسه يموت بدون وقت. السماوات والارض وانا جئنا إلى الوجود معاً، وجميع الاشياء معي واحدة. وحيث تكون الاشياء واحدة فأي فسحة تبقى للكلام، ولكن مادمت قد تكلمت الآن اليست كلمتي كلمة بالضبط؟ كلام زائد واحد يعمل اثنين. اثنين زائد واحد تعمل ثلاثة. منطلقاً من هنا لن يكون حتى الحاسب الماهر قادر على الوصول الى النهاية. والاقل قدرة عليه هم الناس العاديون. ان كان بوسعنا التحرك من اللاشيء الى بعض شيء امكننا الوصول الى ثلاثة. كم سنصل اذن لو تحركنا من شيء ما الى شيء ما؟ فلنكف عن الحركة. لنقف ها هنا.

"في حالة التجربة الخالصة ليس لدينا معرفة عقلية من اي ضرب. وبالترابط مع الزمن او مع الاشياء في الزمن ليس لدينا معرفة عقلية تخص البداية. ليس لدينا معرفة عقلية تمس حقيقة اننا لا نملك معرفة عقلية تمس البداية. وبالترابط مع المكان او مع الاشياء في المكان ليس لدينا معرفة عقلية تخص الكائن. وهكذا في حال التجربة الخالصة، فمع انه يبقى من حيث الوجود مجال للتمايزات والفروقات فهي غير موجودة معرفياتياً. ومن حيث المعرفيات فإن الجزء واحد مع الكل" ـ فونغ

ليس للتاو "تمييزات. لا سبيل لانطباق الكلام على الابدي. وبسبب

الكلام تحصل تتخيمات سأقول عنها شيئاً: هناك يسار ويمين، مناقشات ومحاكمات. تقسيمات وبراهين،تنافسات وتصادمات. وهذه تسمى المحمولات الثمانية. الحكماء لا يمارون فيما هو خارج العالم مع انهم لا ينكرون وجوده. يماري الحكماء فيما هو ضمن العالم لكنهم لا يجرون محاكمات. وبخصوص التزمين وسجلات الملوك الغابرين يجري الحكماء محاكمات الاانهم لا يقدمون براهين. حيثما يكن تقسيم تكن بعض الاشياء غير مقسومة وحيثما يكن برهان تكن اشياء لا ينالها البرهان. وكيف ذلك؟ يحتضن الحكماء جميع الاشياء بينما الناس يحاججون حولها حتى يقنع احدهم الآخر. ان التاو الاكبر يأبى ان يكون موضوع كلام. البرهان الأكبر لا يستدعي كلمات. الاحسان الاكبر لا يتعمد الخير. الطهر الاكبر لا يتعمد التواضع. الشجاعة الكبرى لا تتعمد العنف. والتاو المكشوف مش تاو. الكلام الذي يحاجج يقْصر عن غرضه. الاحسان الذي يؤدىٰ باستمرار لا يحقق هدفه. الطهر اذا تظوهر به يلقي التشكيك. الشجاعة التي تتعمد العنف تفشل. هذه الخمسة، التي مثلما كانت مدورة تميل الى ان تصبح مربعة. وبالتالي فمن يحسن التوقف فيما لا يعلمه هو الكامل. من يعرف البرهان الذي لا يتطلب كلمات وان التاو لا تسمىٰ يدعى مخزن الطبع. المخزن الذي تخزن فيه الاشياء غير مملوء، وحين تخرج منه الاشياء فهو غير فارغ وهو نفسه لا يدري لماذا هي هكذا. هذا يسمى انحفاظ التنور.

"يبين ذلك حد الكيفيات المتناهية. على المرء ان ينخلع من الكيفيات. ان يوقف التجربة الخالصة حتى يقف في وعد اللانهاية" ـ فونغ.

قال ياو لشون: اريد مهاجمة دويلات تسنغ، كْوَي، وشو آو(٤). فمنذ

جئت الى العرش لم اتمكن من طردها عن خاطري. لم كان الامر هكذا.

اجاب شون: ان حكام هذه الدويلات الثلاثة لا يزالون يحبون حياة بدائية في الادغال فلم لا تخرجهم من بالك؟ لقد جاءت مرة عشر شموس في وقت واحد فأضاءت بها كل الموجودات، كم يمكن ان تضيء الفضيلة وهي تتفوق على الشمس؟

"مع ان الشمس والقمر غير انانيين في اضاءتهما تبقى اشياء خارج مدارهما. اما الفضيلة فلا شيء فيها غير سعيد. ان من يحاول تغيير تطلعات الناس الذين يعيشون في الادغال وارغامهم على اتباع وتيرته ليس على وفاق مع شمولية التاو. دع كل شيء يتمتع بطبيعته الخاصة به وقناعته الخاصة به. لا يهم أين وكيف الاشياء تكون. اتركها لحالها، كلاً في مضمارها الملائم، فسوف ترضى وتشملها السعادة" ـ كوو شيانغ

"يبين هذا تساوي المدنية والهمجية. الاختلاف في طرق العيش كالاختلاف في الاشياء. وهذه الطرق الشتى لها قيمةمتساوية" ـ فونغ.

سأل يه تْشويه وانغ يي(٥): أتدري فيم تتفق الاشياء؟

اجاب: أنّى لي ان ادري.

فسأله: أتدري ماالذي لا تدري به؟

اجاب: أنّى لي أن ادري

فساله: هل جميع الاشياء ليس لها دراية؟

اجاب:أنّى لي أن ادري. وعلى اي حال سأسعى لأقول شيئاً. كيف اعرف ان ما اقول أني اعرفه قد لا يكون في الحقيقة هو مالا اعرفه، كيف اعرف ان ما اقول اني لا اعرفه قد يكون في الحقيقة هو ما أعرفه واطرح

عليك هذه الاسئلة: اذا نام انسان في مكان وخم اوجعه حقوه وصار نصف جسده في حكم الميت. لكن الحال مختلف مع سمك الانكليس. اذا عاش انسان فوق شجرة يصاب بالرعب والرعدة ولكن هل هذا هو حال السعادين؟ من بين هذه الثلاثة من يعرف الطريقة الصحيحة في السكن؟ الناس يأكلون اللحم والغزال العشب. والحريش يحب الافاعي، والبوم او الغراب يحبان الفئران. من بين هذه الاربعة من يعرف المذاق السليم: القرد يقترن بالقردة وذكر الوعل بأنثاه. نظر الرجال الى ماو تشيانغ ولي تشي بوصفهما اجمل النساء لكن على مرأى منهما تغوص السمكة في الاعماق ويحلق الطير في الاعالي ويشرد الغزال (تهرب منهما ـ هـ) من بين هؤلاء الاربعة من يعرف المعيار الحق للجمال؟ حينما اتبصر في هذه الامور اجد ان مبادئ الاحسان والاستقامة وطرائق الصح والغلط في غاية الامتشاج والاختلاط. من اين لي ان اعرف الفارق بينها؟

وسأل يه تشويه: ان كنت لا تعرف المفيد والضار الا يعني ذلك أن الانسان الكامل يخلو من هذه المعرفة؟

رد وانغ يي: الانسان الكامل باطني، حينما تحترق البحيرات الكبرى لا يشعر بالحر وحينما تتجمد الانهار لا يشعر بالبرد وحينما تزعق الجبال بالرعود وتعصف الامواج بالبحار لا ينتابه الخوف. ومن هنا يمكنه امتطاء السحب السماوية وركوب الشمس والقمر والهيام على وجهه في عرض البحار. لا الموت ينال منه ولا الحياة. ماهو دور النافع والضار هنا؟

سأل تشو تْشياو تسه، تشانغ ووتسه: سمعت من السيد (كونفشيوس) ان الحكيم لا يعنّي نفسه بشؤون الدنيا وقليلاً ما يبحث عن المكاسب ولا يتحاشى الاذى وهو من لا يسعده البحث ولا يتعمد الانتماء للتاو. يتكلم

بدون كلام، لا يتكلم حين يتكلم وبذلك يتجول خارج هذا العالم الترِب.. ويعتبر السيد هذا وضعاً تقريبياً للحكيم. اما أنا فأرى ان هذه هي دروب التاو الخفي. ما قولك انت سيدي العزيز؟

اجاب تشانغ ووتسه: انت تحير حتى الامبراطور الاصفر. وهل لكونفشيوس من الاهلية ما يمكّنه من فهمها؟ اكثر من ذلك فأنت شديد العجلة في تقديراتك، ترى بيضة وتتوقع للحال سماع الديك. تنظر الى السفود وتتوقع في الحال ان توضع امامك حمامة مشوية. سأتكلم معك بضعة كلمات عشوائية فهل تستمع اليها عشوائياً كذلك؟ كيف يقعد الحكيم عند الشمس والقمر ويمسك الكون بذراعيه؟ الحكيم يحيل كل شيء إلى كلٍ متجانس. يرفض اختباط التمايزات ويتجاهل الفروق في المراتب الاجتماعية. يكدح الناس ويكدون والحكيم عديم المعرفة بدائي. يطوي عشرة آلاف سنة معاً ويقف عند الواحد، الكل، البسيط . جميع الاشياء هي ماهي وتقتفي مجراها بالتلقاء. كيف لي ان اعرف ان حب الحياة ضلال؟ ان اعرف ان من يخاف الموت لا يشبه انساناً كان خارج منزله في شبابه فلم تكن له نية العودة اليه؟ لي تشي ابنة حارس الحدود آي لما أخذتها دويلة تسين لاول مرة بكت حتى تبلل ثوبها بالدموع ثم لما وصلت الى المأوى الملكي وشاركت الملك سريره الفاخر وتذوقت الطعام الزاكي تأسفت لبكائها. ما يدريني ان الميت لن يندم على توقه للحياة؟ ان من يحلمون بوليمة في الليل قد يأتيهم الصباح فيبكون ويعولون. والذين يبكون ويعولون في المنام قد يخرجون صباحاً للصيد.وهم حين يحلمون لا يدرون انهم يحلمون. وانما يعرفون بعد ان يستيقظوا.. وشيئاً فشيئاً تجيء اليقظة الكبرى وعندها ندرك ان الحياة نفسها هي حلم كبير. يظن المعتوهون

في كل لحظة انهم في يقظة وانهم من اهل المعرفة، وبتمييزات لطيفة يفرقون بين الامراء والسوّاس. يا للبلاهة. كونفشيوس وانت كلاكما في حلم. وحين اقول انك تحلم فأنا ايضاً احلم. هذا القول يسمى مفارقة. لو أننا لقينا بعد عشرة آلاف سنة حكيماً يعرف كيف يشرحها لنا لكنا كما لو أننا لقيناه في وقت قصير جداً.

لنفرض انك حاججتني: لو غلبتني بدلاً من ان اغلبك هل انت بالضرورة على حق وأنا على باطل؟ هل احدنا محق والآخر مبطل؟ او هل كلانا محق او كلانا مبطل. لا انا ادري ولاانت. وغيرنا اشد ظلاماً. من نسأل ليعطينا القرار الصحيح؟ قد نسأل احداً يتفق معك ولكن مادام يتفق معك كيف يمكنه وضع القرار؟ قد نسأل احداً يتفق معي ولكن مادام يتفق معي كيف يمكنه وضع القرار؟ قد نسأل احداً يختلف معنا كلانا ولكن مادام يختلف معنا كلانا كيف سيضع القرار؟ وهكذا لاانت ولا أنا ولا غيرنا قادرون على الفهم المشترك والمتقابل فهل نبقى ننتظر اخر (يصنع لنا القرار)؟

"- سواء كانت الاصوات المتغيرة نسبية من واحد لآخر ام لا فإننا نموفقها داخل حدود الطبيعة. ونتركها وحدها في سيرورة الارتقاء الطبيعي. هذه هي وسيلة استكمال العمر. ماالمقصود بموفقة الاشياء داخل حدود الطبيعة؟ بالاحالة على الصواب والغلط، الكائن كذا والغير كائن كذا نقول: ان كان الصواب صواباً بالفعل فلن نحتاج الى المنازعة حول ما يختلف فيه عن الخطأ ولو ان الكائن كذا هو بالفعل كائن كذا فلن نحتاج الى المنازعة حول ما يختلف فيه عن الغير كائن كذا... لننسى الحياة.. لننسى التمييز بين الصواب والخطأ ولنأخذ متعتنا في مملكة اللانهاية ونبقى هناك." - فونغ

سأل الظل الناقص الظل التام: تتحرك في لحظة وتستريح في اخرى، تقعد في لحظة وتنهض في اخرى. لم هذا التقلقل في الغرض؟

فأجاب: اهو حتم علي ان اتكل على شيء آخر لكي أكون ما أنا عليه؟ اليس ذلك الشيء الذي اتكل عليه يتكل بدوره على شيء آخر حتى يكون ما هو عليه؟ أيتعين علي الاستناد الى حراشف افعى أو اجنحة زيز؟ كيف لي ان ابين لم انا هكذا ولم انا على العكس.

"يوضح ذلك ان كل شيء هو ماهو بالتلقاء. يحتاج المرء فقط الى اقتفاء طبيعته لا أن يسأل لم هو هكذا وليس العكس" ـ فونغ.

ذات يوم رأى تشوانغ تشو[٦] نفسه فراشة في المنام. كانت الفراشة تحوم وتتمتع ولم تعرف انها تشوانغ تشو. وفجأة استيقظ فاذا هو تشوانغ تشو نفسه. نحن لا ندري ان كان تشوانغ تشو قد حلم بأنه صار فراشة ام ان الفراشة حلمت بأنها تشوانغ تشو. ينبغي ان يكون بين تشوانغ تشو والفراشة بعض الفارق. ان هذا يسمى تصيرات الاشياء.

"ـ يوضح ذلك انه مع وجود فوارق بين الاشياء بالمظهر العادي، ففي الدوخان او في الحلم ايضاً/ يصح ان يكون غيره. "تصيرات الاشياء تظهر ان الفروق بين الاشياء ليست مطلقة" ـ فونغ.

الهوامش

(١) يو المقدس ملك حكيم في المأثورات الصينية

(٢)ون ـ بكسر الواو. شيه بكسر الشين. كوانغ بسكون الكاف. هوي بسكون الهاء وكسر الواو

(٣) يشير الى احد براهين هوي بوصفه من أئمة المناطقة الصينيين. وتشوانغ تسه يضيق بهذه المماحكات ويعتبرها خروجاً على الطبع وتعاطياً على الطبيعة. هـ.

(٤) تسنغ: سكون التاء وضم السين. كوي: سكون الكاف وفتح الواو

(٥) يه: بفتح الياء، تشويه: سكون التش وفتح الواو وامالة الياء

(٦) تشوانغ تشو هو الاسم الاصلي لتشوانغ تسه

الفصل الثالث
اساسيات تهذيب الحياة

حياتنا لها حدود ومعرفتنا بلا حدود. ومتابعة ماهو غير محدود بما هو محدود معضلة فادحة. ومن خلال هذه الحقيقة نواصل البحث في زيادة معرفتنا، ذلك المأزق الذي لا سبيل الى نكرانه.. في عمل مايراه العرف حسنا نهرب من الشهرة. في عمل ما يراه العرف رديئاً نهرب من الوصمة او العقوبة متبعين المجرى الأوسط دوماً. هناك وسائل لحفظ البدن، لإدامة حياتنا، لمساعدة ابوينا، لاستكمال ترمنا من السنين.

كان طباخ الامير ون هوي يقصب ثوراً: كل ضربة من يده، كل رفعة من كتفه كل دوسة من قدمه، كل لوية من ركبته، كل صوت من اللحم المقصوب وكل دقيقة من دقائق حركة القصاب كانت تجيء في توافق تام موزونة كأنها رقصة "اخدود التوت"، تلقائية مثل اوتار تشينغ شَوْ[1].

قال الامير: مدهش. هكذا فنك الكامل يكون.

فالقى الجزار ساطوره وعقب: ما يحبه خادمك هو التاو، الذي هو اكثر تقدماً من الفن. لما بدأت لأول مرة تقصيب الثور كان ما رايته ببساطة هو الثيران كلها. وبعد ثلاث سنوات من العمل لم ارى المزيد من الثيران. وانا

اليوم اشتغل بذهني لا بعيني، توقفت وظائف احساسي وتغلبت روحي..، متبعاً عروقي الطبيعية ينزلق ساطوري خلال التجاويف الكبرى، والفتحات الكبرى مستفيداً مما هو حاصل بالتمام. لا اتقصى العروق المركزية وتفرعاتها والترابطات ما بين اللحم والعظم ناهيك عن العظام الكبرى. الطباخ الجيد يبدل ساطوره مرة في العام لانه يقطع. الطباخ العادي يبدله كل شهر لانه يحزز. وساطوري مر عليه تسعة عشر سنة. وجزرت به عدة الوف من الثيران وماتزال حافته حادة كأنما جيء به من المسن تواً. تحتوي الاوصال دائماً على صدوع وحافة الساطور بلا سمك إن أولجنا ماليس فيه سمك فيما فيه صدوع تكن له فسحة كافية للتحرك. على اني اذ أصل الى شلو معقد وأجد بعض الصعوبة اواصل بحماس وبلا حذر. اثبت عيني فيه. اتحرك على مهل ثم، وبحركة في منتهى الرفق من ساطوري، ينفصل الشلو بسرعة مثل تراب يتفتت فوق الصعيد. بعدها اجيل النظر واقفاً والساطور في يدي مفعماً بنسيم الرضا والفوز، ثم امسح ساطوري وأضعه في قرابه.

عقب الامير: هائل..لقد تعلمت من كلمات هذا الطباخ وسائل تهذيب الحياة.

تحكي القصة عن الوسائل الطبيعية لعمل الاشياء، عن الحلول الطبيعية للمعضلات. لو استطعنا العمل تبعاً للطريق الطبيعي لأنجزنا المطلوب بلا إرباك لاذهاننا.. ستكون اذهاننا حيوية مثل ساطور الطباخ" - فونغ

لما رأى كونغ ون شْينَ[٢] سيد الحق جفل وقال: من هو؟ كيف تكون له رجل واحدة فقط؟ هل هذا من فعل الطبيعة ام الانسان؟

اجاب سيد الحق: من فعل الطبيعة لا الانسان. الطبيعة توجد الرجل وتجعلها واحدة. ان مظهر الانسان متوازن جداً ومنها تعلمت انه من فعل الطبيعة لا الانسان.

"ماهو متوازن راجع للطبيعة. واذا انوجدت رجل واحدة فليس عن غلط بشري وبالتالي فمن يدرك حقيقة الحياة لا يفعل مالا ينفع. والذين يعرفون ضروريات القدر يتبعون تعيناته. يتمسكون ببساطة بما هو طبيعي" - كووشيانغ.

التدْرج في الاهوار يحصل على نقرة واحدة في عشر خطوات ويشرب مرة واحدة في مئة خطوة. ومع ذلك لا يحب الطعام في القفص. ان روحه معافاة في الاهوار ومن ثم ينسى العافية.

* * * *

لما توفي لاوتسه ذهب تشين شيه للنوح عليه. وهناك اطلق ثلاث صيحات ثم رجع. فسأله احد المريدين: الم تكن صديقاً للسيد؟

اجاب نعم.

قال المريد: ان كان ذلك فهل من اللائق ان تنوح عليه بالشكل الذي فعلته؟

اجاب تشين شيه: ظننت اولاً ان النائحين كانوا من رجاله وعرفت الآن انهم ليسوا كذلك! رايت هناك رجالاً كباراً يبكون كما لو أنهم فقدوا اولادهم وشباناً كأنهم يبكون على امهم، تجمعوا يرددون كلمات ويذرفون الدموع. وفي هذا ما فيه من خرق لنواميس الطبيعة وزيادة في الانفعالات ناسين كم اخذنا من الطبيعة. هذا يسميه الغابرون عقوبة خرق المبادئ الطبيعية.. لماجاء السيد فلأنه وجد المناسبة لأن يولد ولما رحل فلأنه اتبع ببساطة مجرى الطبع. ان المتماسكين امام الحدث الموافق والمقتفين مجرى الطبع لا ينالهم لغب او طرب. اولئك الذين قال عنهم الاولون انهم من اتباع الآلهة المتحررين من القيود.

"فيما حصلنا من الطبيعة كمية مناسبة لا سبيل لزيادتها او انقاصها بجهد بشري . ومن يسترسل في الانفعال يخرق مبادئ الطبيعة سائحاً في ساحات الحزن والفرح وهذا بذاته عقوبة له على الخروج مما هو ملائم للطبع. الحزن والفرح ناتجان عن الفقد والكسب. ومن شأن الانسان اذا تعمق وفكر وتمهوى مع التغيرات ان يتطامن في أي منعطف ويتبع اي مجرى، متوحداً مع الارتقاء حاضراً في كل مكان لا خسارة عنده ولا ربح، ولاموت ولا حياة، يأخذ مايلقاه دون حزن او سرور. حيثما تكن آصرة تكن قيود وتنفك القيود اذا انسلست الاواصر (مع الاشياء) وبانفكاك القيد تكون السعادة. هذا هو جوهر تهذيب الحياة" ـ كوو شيانغ.

*"السعادة هي الخلو من الحزن والسرور عند التاويين. وعند المسلمين هو الزهد. عن علي بن ابي طالب: الزهد بين آيتين في القرآن: لكي لا تأسَوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم" ـ هـ

"العقاب على خرق ناموس الطبيعة هو ما دعاه سبينوزا القيد البشري، المتسبب عن فرط الانفعال. ومعرفة حدود الطبيعة البشرية يعني التزام ما سماه سبينوزا الحرية البشرية، "الانفكاك من القيود" ويتخلص الانسان من الانفعالات عندما يتوصل الى تصور الاشياء في صيغتها الابوية، حسب عبارته" **فونغ.**

قد لا تستطيع الاصابع تجهيز الوقود كله. لكن النار تتحول ولا ندري متى تبلغ الغاية.

هذا هو تصور تشوانغ تسه للخلود وهو لا يفترض عالماً روحياً لا دخل فيه للعلم او فلسفة الطبيعة. ان بدن الفرد لابد أن يزول، وكذلك الروح التي هي وظيفة البدن .لكن العالم ككل يبقى ابدياً، ومعه يبقى اولئك الذين يمهوون

انفسهم مع الكل.قال تشياو هونغ، من شراح تشوانغ تسه في اسرة مينغ، : مع ان الامواج قد تزول فالبحر باقٍ. البحر لا موت ولا حياة (بل وجود ـ هـ). في الفقرات الاخرى من هذا الفصل تكلم تشوانغ تسه عن تهذيب الحياة. وفي هذا الجزء يقول ان الموت والحياة سواء. ولا تناقض بينهما فمن يدرك ان الحياة والموت سواء يحصل على تهذيب افضل للحياة ـ فونغ.

الهوامش

(١) اخدود التوث وتشينغ شوو معزوفتان. يقرأ شوو بفتح الشين وسكون الواو الواو الاخيرة زائدة اضفتها لاشباع لفظ الواو الاولى ـ هـ.

(٢) ش: شين ساكنة وياء مفتوحة مشبعة قليلاً

الفصل الرابع
العالم البشري

"لأننا نعيش مع الناس لا يسعنا الانفكاك عنهم لكن دنيا الناس دائبة التغير، جيل يختلف عن جيل. والقادرين على مجاراة التغير دون معاناة هم المتنزهون عن التحامل، الذين لا يحومون حول ذواتهم". كووشيانغ.

توجه يين هْوي ليرى كونفشيوس ويستأذن للسفر. فساله السيد: الى أين؟ فقال الى دولة وي[1]. فساله لاي حاجة؟ فقال: سمعت ان اميرها في عز الشباب وانه صمصام في افعاله يتصرف كما لو ان الدولة لا اهمية لها ولا يرى في نفسه اعوجاجاً، قليل التفكير بهلاك رعيته حيث يتناثر الموتى في انحاء البلاد ولا يدري الناس الى أين يتوجهون. سبق لك يا سيد ان قلت لي: اترك الدولة المحكومة بالحسنى واقصد الى الدولة المضطربة الأحوال. على باب الطبيب يتكدس الاعلاّء. ومن وراء ما سمعته منك فكرت في عمل قد يمكّنني من ردع الشرور في وي.

رد كونفشيوس بدهشة: اخاف عليك ان توفق فقط في جلب العناء والعذاب لنفسك. الطريقة المثلى لا تتحمل التخليط لأن التخليط اذا حصل يتعدد وحيث تتكاثر الطرق يقع الاختباط واذا وقع الاختباط حصلت الحيرة

ومع الحيرة يتعذر انقاذ الوضع. الانسان الكامل عند الغابرين كان مطلوباً منه الاعتناء بنفسه اولاً. ومع الاعتناء بالنفس يتبقى شيء غير مكتمل. اي راحة يجدها المرء في مسلك الاشرار؟ ثم هل تعرف أين تفسد الفضيلة واين تبدأ المعرفة؟ تفسد الفضيلة بالتوق الى الشهرة وتبدأ المعرفة مع الخصام حيث يتصادم الناس على الشهرة فيدمر بعضهم بعضاً وتُتخذ المعرفة سلاحاً في الخصام. وكلاهما ادوات للشر يلزم النزوع عنها. في الناس من لديهم فضيلة راسخة، اخلاص وطيد، وعزوف عن الشهرة والسمعة ولكن بلا معرفة للطبيعة او ذهن الانسان. وهم مع ذلك يفرضون بالاكراه تعليم الاحسان والاستقامة والتحكم في الاشرار وتكون عاقبتهم المقت من الناس، تماماً بسبب انهم اخيار . هذا يسمى "ايذاء الغير" ومن يؤذي الغير يأتيه الاذى من الغير وقد تكون هذه هي نهايته.

ثم، اذا كان الامير يحب الخير ويكره الشر فما غرضك من دعوته الى تبديل نهجه؟ وان لم يكن كذلك فلن يسعك الا السكوت. فإن لم تفعل هذا وطفقت بالاعلان عن نظراتك فسينتهز الامير الفرصة للتصادم معك على النصر. ستنبهر عيناك وتمتلئ بالحيرة. تعابيرك ستضمحل. فمك سوف يلوك الكلمات لمعذرة نفسك.. وستعبر حالك عن اختباطك الداخلي . سينشغل ذهنك بتوكيد ماقال. وسيكون هذا مثل كبح النار بالنار والماء بالماء، زيادة الشر شراً. ان تبدأ بالتراجع تستمر الى مالا نهاية. وإن تصر على كلماتك الطيبة التي لا يعتقدها تموت بيد الطاغية.

في الماضي قتل تشيه كوان لونغ بانغ[٢] وقتل تشو بي كان. وكان هذان الضحيتان من اهل الفضل الذين التزموا بتأمين الرعاية للناس. ومن

موقع الدون حيث هم هاجموا المافوق. فحظمهم حكامهم بسبب غلوهم في الفضيلة. الجميع يناضلون من اجل الشهرة.

كذلك هاجم ياو دولتي تسونغ تشي وشو آو، وهاجم يو دولة يوهو. استؤصلت هذه الدول وقتل حكامها . كانو قد انزجوا في حروب لا نهاية لها بسبب نهمهم الفاحش بالكسب الحقيقي. كان هؤلاء الرجال موزعين بين الشهرة والكسب ألم تكن قد سمعت بهم من قبل؟ حتى الحكماء يصعب عليهم التغلب على الرغبة في الشهرة والكسب الحقيقي. فهل يمكنك النجاح؟ ومع ذلك ينبغي ان تكون لك خطتك الخاصة بك فقل لي ماهي؟

اجاب ين هوي: الرصانة في السلوك وعدم الانفعال، طاقة وواحدية الغرض، اليس لهذه فعل؟

رد كونفشيوس: كلا لا فعل لها ان أمير وي مملوء بروح السيادة وشايف نفسه، ومزاجه غير ثابت. وما من أحد يجرأ على معارضته. وهو لذلك يتلذذ بالدوس على مشاعر الآخرين. واذا كان قد عجز عن الفضائل العادية فهل تتوقع ان يكون مستعداً للتحلي بماهو ارقى؟ سوف يستنكف ويرفض الاهتداء بك. قد يتفق معك ظاهراً وباطنه يأبى الادانة. أنىّ لك ان تفلح معه؟

قال ين هوي: حسناً، بينما يحتفظ باطني بالاستقامة فإن ظاهري سيبدو مخدوعاً سوف اجسد مااقول بالرجوع الى الغابر. محتفظاً باطني بالاستقامة ساكون تابعاً للطبيعة. ومن يكون تابعاً للطبيعة يعرف أنه والأمير سواء. كلاهما أبناء الطبيعة.

ألا يهمه ان يستحسن او يستهجن كلامه؟ مثل هذا الرجل يعتبره الناس

صبياً. ذلك ما ادعوه ان تكون تابعاً للطبيعة. في المظاهر الخارجية أبدو ملتوياً، سأكون تابعاً للناس: الانحناء، السجود، الركوع هي من الزامات الوزراء. ما يفعله الناس لن يلومني احد إن فعلته.. هذا ما أدعوه أن تكون تابعاً للناس..(لكني) مجوهراً قولي بالرجوع الى الغابر سأكون تابعاً للغابرين. ومع أن كلماتي التي أقولها بناءة ومحملة بالادانة فهي كلمات الغابرين لا كلماتي. بهذه الطريقة ورغم المصارحة ساكون بريئاً من الملام. هذا ما أدعوه أن تكون تابعاً للغابرين. الا تراها مجزية؟

قال كونفشيوس: كلا غير مجزية ان لديك العديد من الخطط الصائبة انما الغير حاذقة. ومع عسرها فهي تنجيك من الاذى. لكن هذا فقط، فهي ليست الأكثر كمالاً. مازلت تتخذ دليلك هواك.

قال ين هوي: لن ادهب بعيداً واغامر بسؤالك عن حل.

رد كونفشيوس على عجل: اقولها لك... ان يكن لديك هوى هل تعتقد ان من السهل ان تتعامل مع الاشياء. ان من يعتقد ذلك يلقى الاستهجان من السماوات النيرة. استطرد ين هوي: عائلتي فقيرة، مرت علي شهور لم أتذوق خمراً ولا لحماً ايمكن اعتبار ذلك صوماً؟

اجاب كونشيوس: هذا هو الصوم الملائم للقربنة وليس هو صوم الذهن.

قال ين هوي: اغامر بسؤالك عن معنى صوم الذهن

اجاب كونفشيوس: تمسّك بوحدة ارادتك. لا تستمع بالاذنين بل بالذهن. لا تستمع بالذهن، بل بالروح. وظيفة الاذن تنتهي عند السماع. وما يخص الذهن فهو رموز او افكار لكن الروح فارغة وجاهزة لاستقبال جميع الاشياء. التاو يقيم في الخلو، الخلو هو صوم الذهن.

قال ين هوي: ان امتنعت عن صوم الذهن استبقي فرديتي ومتى حاولته فقدتها. ايمكن لهذا ان يسمى خلواً؟

اجاب كونفشيوس: بالضبط. دعني أقول لك: ادخل في خدمة هذا الرجل ولكن لا تتخاصم على الشهرة. واذا لمست بعض الموافقة يمكنك اسماع صوتك والا فالزم الصمت.

"يجب أن يكون الكلام كالنغمات الموسيقية المنطلقة بلا جهد من الذهن الصاحي. الكلام يعني اسماع صوت. والاستجابة بدون ذهن صاحي تعني ان تدع الاشياء لوحدها ولا تفرض عليها شيئاً" - كووشيانغ.

لا تُظهر طريقة منافية. لا تعرض منافياً. عش مع واحدة وتوقف حين تعجز عن التدبير.

"ما نعجز عن تدبيره هو ما هو ضروري في العقل" - كووشيانغ.

وعندها تقترب من الفلاح. من السهل عليك التوقف عن المشي لكن الاصعب ان تمشي ولا تمس الصعيد.

"من السهل أن لا تفعل شيئاً. لكن الاصعب ان تفعل شيئاً ولا تؤذي الروح"- كووشيانغ.

تصرف على شاكلة الانسان تكن مصطنعاً بسهولة. تصرف على شاكلة الطبيعة يصعب عليك ان تكون مصطنعاً. سمعت عن طيران باجنحة ولم اسمع عن طيران بدونها. سمعت عن تعرف بمعرفة ولم اسمع عن تعرف بدونها. انظر الى ذلك الفارغ. في الغرفة الفارغة ضوء ساطع. سعادة. اذا لم تطق التوقف هناك يهرع ذهنك بعيداً برغم ان جسدك في مكانه. ان استطعت ان تحفظ اذنيك وعينيك للتواصل واغلقت باب الوعي والمعرفة عاش معك الفوق طبيعي فضلاً عن الأنسي. هذا هو لغز الاشياء؛

المفْصلة التي تحرك عليها يو، وشون. هذا هو ماقام به فوشي وتشي تشو في حياتهما. الى أي مدى يستطيع غيرهم اتباع نفس المجرى؟

تكشف هذه القصة ان الخلو الى حد التجرد عن الذات، هو السبيل الامثل للتعامل مع الانسان. السبيل الامثل للعيش مع الناس ـ ان تكون بلا نفس هو جوهر مذهب تشوانغ تسه "الانسان الكامل لا نفس له". من اطاق ان يكون بلا نفس في عالم الانسان لا يضير أحداً ـ فونغ.

لما عزم تسه كاو، الوجيه في دولة ش[٣]، التوجه في بعثة الى دولة تشي سأل كونفشيوس:

الملك اوفدني في بعثة هامة للغاية وقد تستقبلني دولة تشي كسفير في غاية الاحترام.

لكنني لست في عجلة من امر هذه الشغلة. الانسان العادي لا يسعه الاندفاع بيسر فما قولك بالامر؟ انا على دراية كاملة. قلت لي دائماً ان من بين جميع المآخذ صغيرها وكبيرها، التاو وحدها تأخذ بك الى الغاية السعيدة. وفي مثل حالتي هذه إن أنا لم افلح فالمصيبة من الناس.

العقوبات من الملك ـ فونغ

وان افلحت فالمصيبة من الطبيعة

مكابدة الانفعال والفرح الزائد ـ فونغ.

وحده الانسان ذو الفضيلة هو من يكون خلياً من هذه المتاعب سواء افلح ام اخفق. انا لا أتخير الطعام وفي المطبخ لا يحتاج احد لتبريد المشروبات.

المطبخ بسيط جداً ـ فونغ.

على اني تسلمت في الصباح وظيفتي، وفي المساء كنت اشرب الماء المثلج[٤]. أشعر بمرارة في داخلي. لقد لقيت المصايب من الطبيعة حتى قبل الارتهان بعمل فعلي.. وان انا لم اوفق في الوظيفة لقيت من جهتين مصاعب لا احتملها بوصفي وزيراً. هلا بينت لي ما العمل؟

قال كونفشيوس: في الدنيا مبدآن متلازمان جليلان. الأول هو القدر والثاني هو الواجب.. محبة الولد لوالديه قدر لأنها لا تنفصل عن قلب الولد. ولاء الرعية للراعي واجب اذ لا بد للرعية من راعي ولا مهرب في الدنيا. هذان هما المبدآن المتلازمان الجليلان. وبناء عليه: خدمة المرء والديه دون تعلق بالظروف التي يكون فيها هو غاية السمو البنوي. وخدمة الحاكم عن رغبة بغض النظر عما يطلبه من الرعية هو قمة الاخلاص[٥]. لكن خدمة روح المرء لا للحصول على المتعة او الخلاص من الحزن بل لاعتبار مالا بد منه بوصف ذلك من تعينات القدر والانسجام فيه، هو غاية الفضيلة. ان من يكون في موضع رعية او ابن يلزمه غالباً مالا يُعذر في عدم فعله. ومن ثم فهو ينغمس في الشؤون الفعلية وينسى حياته الخاصة: فأي راحة له في حب الحياة وكره الموت؟ هكذا يا سيدي يسعك المضي في بعثتك.

أود أن اقص عليك شيئاً سمعته.. في التجامع بين الدول ان كانت قريبة من بعضها يسع اظهار الصداقة المتبادلة مع الافعال الحقيقية. وان كانت متباعدة فالسبيل الى تجديد الاواصر هو الرسائل الشفوية. وهذه الرسائل يؤديها ناس معينون. وتكون عسيرة اذا تعلق موضوعها بالسخط او الرضا. فحين يكون الطرفان راضيين يلزم تضخيم الرسالة باطراء زائد. وحين يكونان متساخطين يلزم تضخيمها بالادانة الزائدة. والتضخيم مظهر للزيف. ومظهر الزيف يحكم الصدق. وحيث يكون كذلك تقع البلية على رأس

الرسول. ومن هنا قيل في "فاين"[٦]: أوصل ما اراد الطرفان قوله من غير تضخيم زائد. وهو سبيل الآمان.

أكثر من ذلك، المصارعون المهرة يبدأون بالود ويختمون بالعداوة. ومع تصاعد الاثارة عندهم تصبح مهارتهم فوق العادة. وفي الاحتفالات يكون الشرب اولاً بمراعاة الاصول وينتهي الى التهويس. ومع تصاعد الاثارة يتصاعد الصخب.وهكذا جميع الاشياء. تبدأ بالاخلاص وتَختِم بالشقاق. تبدأ بالبسيط ومع اقتراب الخاتمة تصير معقدة. الكلمات تشبه الريح والموج. الافعال تقود الى غَرَر الخسارة الفعلية. الريح والموج يمكن اثارتهما بسهولة. المخاطرة قد تنقلب الى خطر حقيقي. الغضب يتسبب رئيسياً عن الكلمات المفنَّنة والكلام المنحاز وحين يستبد الغضب بالناس، تنفجر تعابيره مثل غمغمة حيوان في سكرات الموت. تغدو انفاسهم متسارعة ومسموعة. وتطفح العداوات على كلا الصوبين،وحينما يحشر احد الطرفين الآخر في زاوية تستثار الافكار القاسية من حيث لا يدري المرء. واذا صدر الفعل من دون معرفة كيف صدر من يدري ماذا ستكون النهاية؟ ومن هنا قيل في "فاين" لا تنحرف عن التعليم الاصلي الذي اخذته. لا تجادل في تسوية. عبور الحد يعني التجاوز" ان الانحراف عن التعليم الاصلي والمجادلة في تسوية خطر. التسوية المُرضية تتم مع الوقت. التسوية الغير مرضية حيثما تمت لا مجال لتغييرها. الا ينبغي على المرء ان يكون حذراً! اترك لذهنك ان يسيح بصرف النظر عما يحدث. ولنفسك ان تقبل ما هو ضروري ولا بد منه لأجل تهذيب الروح. هذا هو سبيل الكمال. لماذا تكون قلقاً بخصوص جواب الدولة الاخرى؟ لاشيء أحسن من ترك الكل الى القدر ولو أن ذلك ليس بالأمر اليسير.

تبين هذه القصة ان في العالم اموراً لا بد منها ولا نملك الا الاتيان بها.. لنلجأ الى مالا بد منه ولنكن متضامنين امام اي شيء يقع ولنترك الكل للقدر. وانه لضروري ايضاً ان ينسى المرء نفسه فلا يحب الحياة ولا يكره الموت فالنجاح او الفشل في الدنيا ليس بذي اهمية ـ فونغ.

أُريد من لْين هُو[٧] ان يكون مؤدباً للابن الاكبر للوجيه لينغ في دويلة وَي فاستشار تشو بو يو[٨] قائلاً: ها هنا رجل سلوكه الطبيعي من نمط واطيء. اذا انا سمحت له ان يتصرف بدون مبدأ تعرضت دولتنا للخطر واذا اكدت على وجوب ان يسلك سلوكاً مبدأياً تعرضت انا للخطر. أن لديه من الفطنة ما يكفي لرؤية عيوب الناس دون عيوبه. ماذا يجب ان افعل في حالة كهذه؟

رد تشو بو يو: سؤال كيس في الحقيقة. عليك ان تكون حذراً وتبدأ بالاصلاح الذاتي ففيما يخص وضعك الخارجي لا شيء افضل من التكيف والتطابق. وفيما يخص ذهنك الباطن لا شيء افضل من السلم والانسجام. وثمت على أي حال نقطتان للاحتراس: ان لا تدع التكيف الخارجي يتوغل عميقاً ولا الانسجام الداخلي يكشف عما بنفسه داشراً. وفي الحالة الاخيرة تسقط، تخرب ذاتك، تنهار، تتدهور.

تكون تحت دائرة السوء وتصبح انساناً رديئاً ـ فونغ

في الحالة الاخيرة ستحصل على الشهرة، السمعة الحميدة وسينظر اليك بوصفك بعبع مخلوق للسانح الشرير.

تكون موضع غيرة الآخرين ـ فونغ

اذا تصرف ابن الامير كما لو كان صبياً فتصرف انت كما لو كنت صبياً. وإن هو أطّرح جميع الفروقات فافعل انت نفس الشيء. وأن أطرح

جميع التمايزات فافعل انت نفس الشيء. وعندها ستأخذ بيده الى البراءة.

هل تعرف قصة فرس النبي؟ في غضبة مضرية مد ذراعيه لايقاف تقدم العربة من دون ان يعرف انه غير مؤهل لذلك. كان يعتقد ان مقدرته ممتازة. احترس! كن حذراً.. اذا انت اظهرت كفاءاتك دوماً لابن الامير لكي تهيمن عليه فربما وقعت انت نفسك في المحذور. أتدري كيف يتصرف ناظر النمور؟ هو لا يخاطر في تقديم الحيوانات العائشة طعاماً لها لانه يخشى من تهيجها حين تفترسها. ولا يخاطر في تقديم حيوان كامل طعاماً لها لخوفه من تهيجها حين تقوم بتمزيقه. هو يعرف متى تكون النمور جائعة ومتى تكون شبعانة ويفهم السبب الذي يجعلها تغضب. ان النمور من نوع آخر مغاير لنوع الانسان وهي مع ذلك تسعى لامتاع ناظرها وهذا لأنه تكيف لها. بعض الناس يتصرف بخلاف طبيعة النمور فتقتلهم النمور.

ومن المولعين بالخيل من يستعمل السلال والجرار لاخذ الروث والبول منها وحين يسقط البعوض او الذباب عليهم ومن ثم على الحيوان يطردها السائس بالفرشاة. وتكون النتيجة ان الحصان يكسر الشكيمة ويؤذي رأس السائس وصدره. يريد السائس ان يفعل خيراً لكنه في النهاية يخسر ما عزم عليه. الا يجب علينا ان نكون حذرين؟

الطريقة المثلى للتعامل مع الانسان هو التصرف تبعاً لطبيعته ـ فونغ.

كان الاسطى السمكري شيه في طريقه الى تشي فوصل الى تشويْوان(٩). وكانت فيها شجرة بلوط استعملت مذبحاً لروح الارض. كانت الشجرة من الضخامة بحيث تحجب الثور من ورائها عن النظر. وكانت حلقاتها تبلغ المئة وارتفاع اغصانها عن الارض يزيد على ثمانين ذراع. ومن اغصانها عشرة او ما يقاربها يكفي الوحد منها لتنجير قارب .

جاء الناس ليروها في زرافات كما يأتون الى السوق. أما الاسطى فلم يلق عليها نظرة ومضى دون توقف. لكن صناعه وقفوا ينظرون اليها حتى كلّوا ثم ركضوا وراء معلمهم وقالو له: منذ اشتغلنا في معيّتك بفؤوسنا وشفراتنا لم نشاهد خشباً في جودة هذه. لماذا لم تنظر اليها يا معلمنا وواصلت طريقك دون توقف؟

اجاب الاسطى: اتوقف؟ ذلك الخشب لا نفع فيه. القارب الذي ينجر منه يغرق. التابوت او الهيكل يتفسخ بسرعة. أي قطعة اثاث تتفكك حالاً الى قطع. الباب يغطيه الصمغ المستحلب، والاعمدة ينخرها السوس. عديم الفائدة ولا يصلح لشيء.ولهذا السبب احتفظت الشجرة بهذا العمر الطويل.

بعد عودة الاسطى الى المنزل جاءته الشجرة في المنام وقالت له: مع أي شجرة اخرى تريد مقارنتي! أتريد مقارنتي مع اشجار الزينة؟ هناك الزعرور البري، الكمثرى، النارنج، الليمون الهندي، واليقطين وماااليها، كلها تندق ثمارها عند النضج وتنتهك، تكسر اغصانها الكبيرة وتمزق الصغيرة. ان حياة هذه الاشجار الصغيرة معمودة بالبؤس بسبب انتاجيتها. ولذلك لا يمكنها استكال ترمها الطبيعي في الوجود وتنتهي الى نهاية سابقة لأوانها في منتصف عمرها متحملة المعاملة التدميرية من المجتمع. وهكذا الامر في جميع الاشياء. لقد تعلمت من وقت مديد ان اكون عديمة الفائدة. مرت بي عدة مناسبات كدت اتدمر فيها والآن توصلت الى أن اصبح بلا نفع، والذي هو نفع عظيم لي. لو كنت نافعة اكنت ساصبح بهذه الضخامة؟ الاكثر من ذلك نحن كلانا من الاشياء كيف يجوز لشيء ان يحكم على شيء آخر؟ انت بدورك رجل عديم الفائدة وتدنو من الموت. من أين لك ان تعرف الشجرة العديمة الفائدة؟

قص الاسطى حلمه على صناعه فسألوه: ان كانت ارادت ان تكون عديمة الفائدة فلمذا صلحت لتكون مذبحاً لروح القاع؟

اجاب الاسطى: على مهلكم لا تتفوهوا بكلمة ـ فهي قد أرادت ان تكون مذبحاً لتحمي نفسها من اذى من لا يعرف انها عديمة الفائدة ولو انها لم تكن مذبحاً لبقيت عرضة لخطر القطع. زد على ذلك ان ما تحظى به هذه الشجرة يختلف عن الاشجار العادية. ومن ثم فإن اطراءها وفق الاخلاقية المتعارفة لا مناسبة له هنا.

قال نان بوتسه تشي وقد رأى وهو يجوس خلال مرتفعات شانغ، شجرة ضخمة وفوق عادية، يمكن ايواء الف عربة تحتها ويغطيها ظلها جميعاً: اية شجرة هذه؟ يجب ان نجعل منها قطعة خشب مدهشة. ثم صعّد نظره الى افنانها الصغرى فرآها ملتفة ومتكسرة ولا تصلح رافدة ولا عارضة. وصوبه الى جذورها فرأى الساق مقسماً الى اجزاء مدورة بحيث لا يصلح لتابوت ولا هيكل. ولحس ورقة منها فشعر بحلقه يتشقق وينجرح.

ثم شمها فتهيج جسده وبقي كالمسموم ثلاثة ايام فقال: شجرة لا تصلح لشيء ابداً. ولهذا السبب طال عمرها آه!ان الانسان الروحاني يعيش هذا الشكل من اللاجدوى.

كان في سونغ ناحية تسمى تشينغ شيه تنمو فيها اشجار الكتلبة والتوت والسبريس. وكان الناس يقطعون منها ما يتألف من حلقة او حلقتين لعمل اوتاد تربط بها السعادين. وما يتألف من ثلاثة أو اربعة يقطعها من يريد عمل عوارض لمساكنهم. وما يتألف من سبعة او ثمانية يقطعها الاشراف والتجار الاغنياء الذين يرغبون في صنع توابيتهم من لوح واحد ثخين لكل جانب.

وبالنتيجة لم تتمكن الشجرة من بلوغ عمرها الطبيعي بل انتهت قبل الاوان تحت الفؤوس والمحزات وهي في منتصف نموها. وهذه معضلة جدارتها.

في القرابين للنهر الاصغر لا تستعمل الثيران ذات الجباه البيضاء والخنازير ذات الفِطّيسة المقلوبة والرجال المصابون بالبواسير[١٠] وهي أمور يعرفها المعزمون الذين يعتبرون هذه المخلوقات غير محظوظة! ولكن في هذا الحساب بالضبط يعتبرها الانسان الروحاني من ذوات الحظ العظيم.

كان هناك رجل مشوه يدعى شو. كان ذقنه يختفي تحت سرته، واكتافه اعلى من قوقة رأسه وعموده الفقري متوجه نحو السماء وجميع فتحاته الخمسة مقلوبة الى فوق وعظام فخذيه تشبه الاضلاع. وقد عاش على شحذ الإبر وغسل الملابس. كما اشتغل في جرش الشلب[١١] وتنقيته وكان قادراً بذلك على اعالة عشرة افراد. ولما كانت الحكومة تعلن النفير كان يمشي بين الجنود دون ان يخفي نفسه وحين تحتاج الحكومة الى مهام جليلة لم يكن يكلف بشيء منها بسبب علله المستديمة. وحين تقدم الحكومة الحبوب للمرضى يستلم ثلاثة تشونغ وعشر ربطات حطب. فان يكن هذا الرجل الاخرق البدن قادراً على تأمين عيشه وإكمال ترم وجوده فكم سيكون في مقدور من هو أخرق في فضيلته ان يفعل؟

"الانسان الكامل عديم النفع للغير لكن كل شيء نافع لنفسه وذلك يترك الانسان الكامل كل شيء يتمتع بانجازه واسمه بينما هو نفسه يزاول الاشياء بلا تمييز، وبذلك يبتعد عن اذية عالم الانسان ويحصل دائماً على فوائد حقيقية. وهذا هو الاخرق في فضيلته - كوو شيانغ.

لما ذهب كونفشيوس الى تشو تلقاه البهلول تشيه يو وقال له: او ياعنقاء او ياعنقاء ايش انت فاعل مع هذي الدنيا المتداعية؟ المستقبل لا يمكن

انتظاره. الماضي لن يعود. وحينما يسود نظام خيّر في الدنيا يحث الحكيم عن انجاز. ولما يسود الاضطراب فهو يصون حياته فقط. وفي هذه الايام احسن ما يفعله الوحد هو الافلات من العقاب. السعادة اخف من الريشة ولكن ولا واحد يقدر على حملها . الشدائد اثقل من الارض ولا واحد مع ذلك يقدر على تجنبها. يجب ان تتوقف مساعيك لجلب الناس الى فضيلتك. سلوكك الموسوم بالنظام خطر خطر. انني اتجنب سوء السمعة لئلا ينقطع علي الدرب. امشي منحنياً لئلا تتأذى قدمي. اشجار الجبل تسبب القطع لنفسها. الشحم يجلب لنفسه النار. شجرة الكمُّون تؤكل فتقطع شجرة البرنيق نافعة فيشقون جذعها. جميع الناس يعرفون منفعة النافع لا منفعة الغير نافع.

ـ الاشجار العديمة النفع لا تنفع الاخرين لكنها بعيدة عن الاذى. وهذا مثال على منفعة اللا نافع لكن تشوانغ تسه على أي حال لا يريد بالضرورة ان يكون كل انسان عديم النفع بالمعنى العادي للكلمة ففي الفصل العشرين المعنون "شجرة الجبل" ترد هذه القصة.

كان تشوانغ تسه يمشي في جبل حين رأى دوحة شامخة باغصان ضخمة وعَبل باذخ وكان خشاب يستريح بجنبها من دون ان يمسها ولما سئل عن السبب قال ليس من سبب فقال تشوانغ تسه، هذه الدوحة لانها عديمة النفع فهي قادرة على استكمال ترمها الطبيعي في الوجود. وبعد مغادرة الجبل آوى تشوانغ تسه الى منزل صديق. ففرح به الصديق وأمر غلامه ان يذبح بطة ويسلقها فقال الغلام: واحدة من بطاتنا تقوقي والاخرى لا تستطيع فأيها تريدني أن اذبح؟ فأجاب: اذبح التي ما تقوقي.

في اليوم التالي سأل تلميذ تشوانغ تسه استاذه: بالامس رأينا الدوحة الجبيلة القادرة على استكمال ترمها الطبيعي في الوجود لعدم نفعها والآن

ولنفس السبب ذُبحت بطة مضيفنا. اي حالة من هذين تفضلها يا مولاي؟
ضحك تشوانغ تسه وقال: افضل ان اكون في موضع بين النافع والغير نافع. ويبدو لي هذا هو الوضع السليم لكنه ليس كذلك في الحقيقة. ومن هنا لم اسلم من الاشكالات لكن من يقوم برحلة في التاو والـ تي لا يتعرض لاي اشكال. ويكون خارج متناول المدح والذم. الآن كالتنين، الآن كالحية، يتبدل مع الوقت ولا اصرار عنده. هو الآن عالي والآن واطي جاعلاً من الانسجام مقياساً يمتع نفسه بيسر مع مؤلف الاشياء. يعامل الاشياء كأشياء. ولا يعامَل هو كشيء من طرفها. فما الذي يوقعه في المتاعب!

يعيدنا ذلك الى ما ورد في الفصل الأول من ان الانسان الكامل لا يتكل على شيء ويترحل في اللا نهاية، الانسان الكامل لا نفس له، الانسان الروحاني لا انجاز له والحكيم لا اسم له وهم كانوا كذلك لانهم تركوا كل شيء يفعل تبعاً لقدرته الخاصة به متخذاً اسمه الخاص به.

لأنهم كذلك فهم دائماً يكونون، أو يبدو انهم يكونون، عديمي النفع، عديمي التمييز. وبهذا السبب كانواأبعد عن المتاعب . وكما يقول كووشيانغ: هذا هو من هو أخرق في فضيلته" هذا هو النفع العظيم لعدم النفع.

تبين القصة الاخيرة في هذا الفصل خطر اظهار مزية المرء الخاصة به للآخرين، خطر محاولة مد المرء معياره الخاص به الى الغير.. حين يكون العالم في سلام اتركه لوحده. وحين يكون مضطرباً اتركه لوحده ايضاً. بامكان الناس ان يدبروا خلاصهم بانفسهم. واذا المرء لم يتصرف تبعاً لهذا المبدأ واختار الاصرار على معياره الخاص به وتقويم الآخرين اصطناعياً بموجبه فلا بد من وقوعه في المأزق. لكن هذا ما يفعله الناس في المعتاد لانهم يعرفون منفعة النافع ولا يعرفون منفعة العديم النفع - فونغ.

الهوامش

(١) ين هوي: مرسد لكونفوشيوس. يلفظ بكسر الياء وسكون الهاء وكسر الواو وي: بفتح الواو

(٢) تشييه وتشو من طغاة سالف الاوان قتلا وزيريهما الكفوءين كوانغ لونغ بانغ و بي كان.

يلفظ تشييه بكسر التش وإمالة اليائين. يانغ: يلفظ بصوت باء باريس وكذلك بي كان.

(٣) ش: شين مفتوحة

(٤) شرب الماء البارد عند الصينيين كناية عن المعافاة ـ هـ.

(٥) كونفوشيهْ فاقعة ترجح الشك في نسبة هذا النص الى تشوانغ تسه ـ هـ.

(٦) فا ين : مأثور في الاخلاق والقانون ـ هـ.

(٧) عارف من دويلة لو

(٨) وزير في دويلة وي.

(٩) شيه بكسر الشين ومد الياء. يوان بتسكين الياء

(١٠) لعلها اشارة الى القرابين البشرية التي كانت تقدم للانهار الكبرى كالنهر الاصفر والنيل. وقد استمرت في النيل حتى الفتح الاسلامي عندما منعها عمرو بن العاص فاتح مصر في القرن السابع م. ومنعت في الصين قبل هذا التاريخ، الا انها استمرت في التبت حتى العصر الحديث ومنعت رسمياً بعد فتحها من قبل جيش التحرير الصيني عام ١٩٥١ .

(١١) الشلب مصطلح عراقي للرز الغير مجروش، الرز الخام، بكسر الشين.

الفصل الخامس
دليل الفضيلة الكاملة

الغرض الارأس لهذا الفصل تبيان معنى الفضيلة الكاملة وشدة نفوذها ـ فونغ.

وانغ تاي رجل من ابناء دولة لُو كان قد فقد احدى قدميه وكان له اتباع بقدر اتباع كونفشيوس. ومرة سأل تشانغ تشي كونفشيوس: ان وانغ تاي رجل ابتر ومع ذلك يقاسمك التعليم في دولة لو.. هو لا يعظ ولا يناقش لكن الذين يقصدونه يكونون فارغين والذين يخرجون منه يكونون ملأى. هل حقاً يوجد ما يسمى تعليم بدون كلمات؟ وبينما الجسد مشوه، أيمكن للذهن ان يكون كاملاً؟ أي صنف من الرجال هو؟

اجاب كونفشيوس: هذا السيد حكيم. وأنا نفسي لم اذهب اليه لانني ببساطة كنت متأخراً. أنني أعده شيخاً ولا أقول شيئاً عن الذين يساونني. سأقود العالم كله لاتّباعه، ولا أقول شيئاً عن دولة لو.

قال تشانغ تشي: انه الرجل، ذلك الابتر المشوه الذي يتفوق عليه رغم ذلك. ينبغي ان يكون شديد الاختلاف عن الناس العاديين. ما هي هذه الطريقة التي يشتغل بها ذهنه؟

قال كونفشيوس: الموت والحياة اعتبارات عظيمة، لكن ولا واحد منها يقدر على النيل منه. ولو ان السماوات انطبقت على الارض لبقي في مكانه لا يتحرك. هو يرى الكمال بوضوح تام ولا تؤثر فيه الاشياء. وهو يدرك ان ارتقاء الاشياء يرجع الى القدر ولذلك يحفظ ما هو ضروري.

وهنا سأله تشانغ تشي: ماذا تقصد؟

رد كونفشيوس: اذا نحن راينا الاشياء من جهة اختلافها وجدنا حتى الكبد والصفراء بعيدين عن بعضهما بُعد تشو عن يّويه. واذا رأيناها من جهة اتفاقها فهي جميعها سواء. وهذه الاخيرة هي ما يتمسك به هذا الرجل وبذلك فهو يعرف ليس فقط ما هو موافق لاذنيه وعينيه بل ويداعب في خياله انسجام الفضيلة. هو يرى وحدة الاشياء وليس خسارته الخاصة ويعتبر فقدان قدمه مثل تراب كثير يتساقط.

قال تشانغ تشي: وفي تهذيب نفسه بالمعرفة فهو يحرز عقله وباحراز عقله يحرز العقل الابدي ولكن لماذا تتجمع الاشياء من حوله؟ اجاب كونفشيوس: ان الناس لا ينشدون رؤية انفسهم في الماء الجاري بل الراكد. والراكد وحده هو ما تتجمع الاشياء من حوله. أما بخصوص الاشياء التي تتلقى تاثير الارض فإن الصنوبر والسبريس وحدهما يخضوضران في الشتاء والصيف. واما الذين يتلقون تأثير السموات فإن شون وحده هو المصيب. ولحسن الحظ هو يستطيع تقويم حياته الخاصة به ومن ثم حياة الآخرين. وعن طريق ضغط القوة الأصلية وازالة الخوف فإن انساناً بمفرده يمكن ان يشق طريقه بنجاح مخترقاً تسعة جيوش. وحين يتوصل رجل شجاع الى نتيجة كهذه فمن سيضحي بنفسه في البحث عن الشهرة؟ اي دور سيؤديه من يسيطر على السموات والارض ويحتضن جميع الاشياء؟ من يرى بدنه

موقتاً كالميت وعينيه واذنيه مجرد صور، من يوحد كل المعرفة التي تعلمها ومن لا يموت عقله ابداً. هذا الانسان هو من يختار يوم رحيله ويتبعه الناس في النهاية فما الذي يجعله مهموماً بشؤون الدنيا؟

شَن توتشيا رجل فقد احدى قدميه. درس على بو هون وُو جَن مع تسه تشان من دويلة تشنغ[1]. قال الاخير له: ان ترتب علي المغادرة اولاً فهل ستمكث بعدي قليلاً؟ ان ترتب عليك المغادرة اولاً فسأبقى بعدك .

تسه تشان، كبير وزراء دولة تشنغ عير لتمشيه مع رجل مشوه ـ فونغ

في اليوم التالي كانوا جالسين في نفس المكان. فقال تسه تشان: اذا ترتب علي المغادرة اولاً فهل لك ان تبقى بعدي قليلاً؟ لو ترتب عليك المغادرة اولاً فسوف ابقى. والآن حان وقت انصرافي. فهل تبقى ام لا؟ اكثر من ذلك، اذا رايت وزيراً لدولة فلا تحاول الابتعاد عن طريقه. هل ترى نفسك كفئاً له؟

قال تشن توتشيا: في مدرسة شيخنا أيمكن يوجد هكذا وزير؟ انت من يفتخر بمنصبه ويعتقد انه ارقى. سمعت انه اذا كانت المرآة تامة النصوع لا تتجمع عليها الاتربة والاوساخ، ولو حدث ذلك فقدت المرآة لمعانها. ان من يقارن العاقل لوقت طويل يكون خلواً من الخطأ. والآن فالرجل العاقل الذي اخترته ليجعلك عظيماً هو استاذنا ومازلت مع ذلك تتلفظ كلمات كهذه، اليست تلك هي غلطتك؟

قال تسه تشان لقد كنت (في البدء) ما انت عليه لكنك ماتزال تسعى لمضاهاة طيبة ياو. هل لتقديرٍ ما عن فضيلتك ان لا يقودك بكفاءة الى امتحان نفسك؟.

قال شن تو تشيا: ان الذين يجلبون سوء السمعة لانفسهم كثيرون في الناس. وبخلافهم اولئك الذين يترفعون عن ذلك ويعتقدون ان عليهم ان لا يحتفظوا بشيء فهم قلائل. ان الاقرار بالمحتوم والاذعان له بصمت كإرادة من القدر هو فعل الفضلاء فقط.. حينما يتجول الناس داخل مرمى سهم يي[٢] فإن وسط الحقل هو المكان الذي يضربون فيه واذا لم يتم ضربه فهذا فعل القدر.

"بسبب تصادم مصالحهم يتصارع الناس دائماً ولذلك نجد يي حاضر في كل مكان. ومع استثناء اولئك الذين لا نفس لهم ولا معرفة فيتبعون مجرى الطبيعة، يقع كل انسان في مدى سهم يي. القدر وحده يقرر من تناله الضربة. لكل انسان حال لكن ليس كل الناس يعرفون ان كل حال مقدر ولذلك نجد الذين لا تنالهم الضربة يحسبون انهم مهرة ويغتبطون لها. ولكن حينما تصيبهم ضربة في وقت ما يأسفون لاخطائهم ويؤذون بذلك ارواحهم. وهذه لانهم لا يعرفون شيئاً عن القدر. نحن نمتلك الحياة ليس لاننا اردناها ان تكون لنا. وفي دورة حياتنا المئة سنة جلوس وقيام، مشي ووقوف، فعل وراحة ، كسب وخسارة، شعور، غريزة، معرفة، وقابلية. جميع ما عندنا وجميع ما ليس عندنا، وجميع ما نفعله، جميع ما نلقاه، لا يكون هكذا لأننا أردناه.فهي ماهي بسبب الطبيعة. ويبقى العديد مع ذلك لا يتفهمون الحال ولذلك نراهم واقفين ضد الطبيعة وكثيري الخطأ. كووشيانغ.

الذين لهم قدمان ويضحكون علي لأن لي قدم واحدة هم كثيرون. كنت في الماضي اغضب عليهم جداً. ولكن من يوم جئت الى شيخي كففت عن الانزعاج بسبب ذلك. لعل شيخي قد طهَّرني بالخير. انا معه منذ تسعة عشر عام ولم افطن يوماً الى ان لي رجل واحدة. والآن قمت انت وأنا برحلة في دنيا الباطن ولا تزال تولي اهتمام ببدني الخارجي، ألست على خطأ في ذلك؟

شعر تسه تشان بعدم ارتياح فبدل عباراته الموزونة وقال: سيدي. اتضرع اليك ان لا تذكر المزيد عنها.

* * * *

رجل من دويلة لو كان ابتر يدعى شو شان العديم اصابع الرجل. مشى على كعبيه لكي يرى كونفشيوس الذي قال له: لم تكن حذراً فجلبت هذا البلاء لنفسك. مجيئك لرؤيتي متأخر جداً.

قال العديم اصابع الرجل: من وراء جهلي بالسبيل القويم وعدم اتخاذي الاحتياط المطلوب فقدت قدمي وقد جئتك الآن لاني مازلت املك ماهو اقيم من قدمي وما احرص لذلك على صونه تماماً. ليس من شيء لا تُظله السماء، ليس من شيء لا تحمله الارض. وقد اعتقدت فيك يا سيدي انك مثل السماء والارض ولم اتوقع ان تستقبلني بهذه الطريقة.

رد كونفشيوس: انا غبي. لماذا لا تدخل حتى أقصُّ عليك ما تعلمته؟

ولما انصرف العديم اصابع الرجل قال كونفشيوس: هذا العديم اصابع الرجل قد تشوه لكنه مايزال تواقاً لتعلم كيف يعالج الشر في تصرفه السابق. كم يتعين اذن على اولئك المكتملي الفضيلة ان يفعلوا؟

مضى العديم اصابع الرجل ليرى لاوتسه وقال: اعتقد ان كونفشيوس لم يصبح بعد انساناً كاملاً فلماذا هو دائماً يسعى لتقليدك! هو يبحث عن السمعة في ان يكون فوق العادة وخارق من غير ان يعلم ان الانسان الكامل يعتبر هذه كالقيد والغل.

وعقب لاوتسه: لماذا لم تجعله يفهم ان الحياة والموت شيء واحد وان الصح والغلط سيان فتحرره بذلك من قيوده واغلاله؟

قال العديم اصابع الرجل، هو قد نال العقاب الطبيعي[٣] فأنى له ان يتحرر؟

سأل الامير آي، من دويلة لو، كونفشيوس: رجل دميم في دولة وي اسمه آي تاي تو. فكر فيه الناس الذين عاشوا بقربه الى حد أنهم لا يستطيعون ان ينأوا بأنفسهم عنه. والنساء اللواتي رأينه، عشرة او اكثر قلن لآبائهن: اننا نفضل ان نكون سراري له على ان نكون زوجات لغيره. اما هو فلم يسمع عنه التصدر بشيء غير اتباع الآخرين. لم يكن في وضع حاكم حتى يكون قادراً على تخليصهم من الموت ولا مال له حتى يكون قادراً على ملء بطون الناس. والأزيد من ذلك انه كان من الدمامة بحيث يُفزع العالم بأسره. كان يتبع الآخرين ولا يتصدرهم. معرفته لم تتجاوز جيرانه الاقربين. ومع ذلك فقد التم حوله الرجال والنساء. ينبغي في الواقع ان يكون مثل هذا الرجل مختلفاً عن الناس العاديين. وقد أرسلت عليه فرأيته فإذا هو بالفعل من الدمامة بحيث يفزع الدنيا كلها. ولما عاش معي اقل من شهر شرعت التفت الى شخصيته. وقبل ان يمضي علينا عام كامل وثقت به بعمق. واذ كانت دولتي في حاجة الى وزير اكبر عرضت عليه الحكومة فرد علي بهدوء وانسجام مشعراً أياي بالرفض. فخجلت من نفسي وسلمت الحكومة اليه اخيراً. لكنه بعد وقت وجيز تركني وراح. واحزنني ذلك وشعرت أني حصدت الخسارة حيث لم يكن في الدولة من يشاركها في بهجتها. اي صنف من الرجال هو يا ترى؟

قال كونفشيوس: مرة وكنت في بعثة الى دويلة تشو رأيت بعض الخنانيص ترضع امها الميتة. وبعد لحظة تركنها مجفلات. لقد شعرن انها لم تراهّن وانها لم تعد شبيهة بهن. ما احبته الخنانيص من امهن ليس جسمها

بل هو ما جعل الجسم على ما هو عليه. حين يموت رجل في معركة يدفن بدون تزيينات عسكرية. وحين يكون رجل ما عديم القدم لا يهتم بالحذاء. وفي كلتا الحالتين نراهم قد فقدوا ما هو اساسي.

زوجات الملك لا يقصصن اظافرهن أو يثقبن اذانهن. حين يكون رجل حديث عهد بالزواج يبقى خارج البلاط خلياً من واجباته الرسمية. وذو البدن الكامل يمكنه ان ينجز بعض النتائج .كم ينجز اذن من يملك الفضيلة الكاملة؟ والآن لم يقل آي تاي تو شيئاً لكنه مصدَّق. لم يفعل شيئاً لكنه محبوب. لقد حمل رجلاً على اعطائه الحكومة وكان خائفاً فقط من أن يرفضها. بنبغي ان يكون في الحقيقة رجلاً مكتمل الطباع وفضيلته مكتومة.

وهنا سأله الأمير آي: ماذا تقصد بالطباع المكتملة؟

فرد كونفشيوس: الموت والحياة، الوجود والغَرر، العلة والحظ الحسن، الثروة والفقر، الجدارة وعدمها، الثناء والعذل، الجوع والعطش، البرد والحر - هذه تبدلات الاحداث وعملية القدر. وهي تتعاقب تعاقب الليل والنهار ولا يعرف احد أين تبدأ. وينبغي على المرء ان لا يسمح لمثل هذه الاشياء ان تكدر انسجامه. لا يسمح لها ان تلج الى ذهنه. يجب ان يبقى الذهن منسجماً راضياً ومكتملاً. وان يبقى المرء على الدوام مرحاً ورقيقاً مع الاشياء. الذهن يتبع تبدلات الاحداث. هذا يُسمّى الطباع المكتملة.

وماذا تريد بالفضيلة المكتومة؟

اجاب كونفشيوس: الميزان الأتَّم هو فضيلة الماء الراكد. هذا هو غرارنا. السلم الداخلي مصون ولا تكديرات من الخارج. الفضيلة هي الانحفاظ الأكمل للانسجام. الانسان الكامل له فضيلة لكن مظهره لا يشي بها. مثل هذا الانسان لازم لجميع الاشياء.

بعد أيام قص الامير آي هذه المحادثة على مينغ تسه[٤] وقال:

سابقاً لم استويت على العرش حتى احكم الدنيا والامساك بالزمام والاعتناء بالشعب اعتقدت انها الكمال الاوفى. والآن وقد استمعت الى اقوال الانسان الكامل، ينتابني الخوف من ان لا تكون لي فضيلة حقة وانني باستعمال نفسي في لا مبالاة واستخفاف قد اخرب دولتي. كونفشيوس وانا لسنا أمير ورعية بل اصدقاء فضيلة.

رجل عديم الشفتين ساقاه مطويتان إلى حد أنه يستطيع المشي فقط على اصابعه كان قد بعث بمشورته الى لينغ امير وي. واستبد الفرح بالامير بحيث نظر الى الرجل الحسن الهيئة وكأنه يملك اصغر واليق رقبة. رجل آخر كانت له غدة بحجم الجرة بعث بمشورته الى هوان، امير تشي، ففرح الأمير الى حد أنه نظر الى الرجل الحسن الهيئة وكأنه يملك اصغر واليق رقبة .

يرينا ذلك ان الفضيلة الراقية تغطي عيوب الجسد. وحيث لا ينسى الناس ما وجب عليهم نسيانه وينسون مالا يجب عليهم تكون لدينا حالة نسيان حقيقي.

من هنا يكون للحكيم مكان آخر لترحله. هو يرى في المعرفة لعنة، وفي التقاليد غراء، وفي الاخلاق فن التجامع البشري وفي الفنون العائدة لفصيلة واحدة تجارة. هو لا يعمل خطة فلا يحتاج الى معرفة. لا يقسم الاشياء فلا يحتاج الى غراء. وليس في طباعه عيب فلا يحتاج الى الاخلاق. ولا يريد بضاعة فلا حاجة فيه الى التجارة. وفي هذه السبل الاربعة يتغذى بالطبيعة والاغتذاء بالطبيعة يعني العيش عليها. وحيث انه يعيش بالطبيعة فما فائدة الفن؟ ان لديه صورة بشر ولكن دون تأثير بشري. وحيث ان له صورة بشر

فهو انسان بين الناس. واذ لم يكن له تأثير بشري يقف فوق التمييز العادي بين الخطأ والصواب. ويأتي من انتمائه للبشرية صغره ولا اهميته اما العظمة والجبروت فمن تمهويه الفذ مع الطبيعة.

سأل هُوي تسه تشوانغ تسه: هل في الدنيا اناس لا تأثير لهم؟

أجاب: نعم.

فقال هوي تسه: إن لم يكن لانسان تأثير كيف نسميه انسان؟

اجاب: التاو يعطيه المظهر والطبيعة تعطيه الصورة. فلماذا لا يمكن تسميته انسان؟

قال هوي تسه: اذا كنا نسميه انسان كيف يكون بلا تأثير.؟

اجاب تشوانغ تسه: ليس هذا ما أعنيه بالتأثير. حينما اقول عن انسان انه بلا تأثير فإنما أعني من لا يلحق الأذى بنفسه من المرغوبات والمكروهات، من هو دوماً في اتفاق مع الطبيعة ولا يفعل شيئاً لزيادة مصطنعة على ما هو حاصل عنده. وسأل هوي تسه: ان كان يفعل شيئاً لزيادة مصطنعة على ماهو حاصل عنده فكيف يمكنه الادامة؟

قال تشوانغ تسه: التاو تعطيه المظهر والطبيعة الصورة. ولا يلحق الاذى بنفسه. لكنك تكرس نفسك للبراني وتهلك بذلك حيويتك. تسند نفسك الى شجرة وتغمغم او تتكئ على منضدة وتنام. لقد اختارت لك الطبيعة صورتك البدنية وانت تهذي بمناقشة "الصلب والابيض"[٥]

الهوامش

(١) شن بفتح الشين. جن بفتح الجيم. تشنغ بفتح التش. بو : باء باريس

(٢)بي قواس مشهور في الغابر – فونغ. والكناية هنا عن الحروب ـ هـ.

(٣) العقاب الطبيعي: يقصد انه نال الشهرة والمكانة وهذا عقاب الطبيعة على التمييز بين الموت والحياةوالصح والغلط ـ هـ.

(٤) من مريدي كونفوشيوس

(٥) يشير الى مفارقات هوي تسه المنطقية ـ هـ.

الفصل السادس
المعلم العظيم

يتضمن هذا الفصل وصفاً للانسان الكامل أو "الانسان الصادق" الذي يمكنه ان يكون المعلم الاكبر للعالم - فونغ.

من يعرف عمل الطبيعة وعمل الانسان هو من يعتبر في العادة كاملاً. من يعرف عمل الطبيعة يعيش تبعاً للطبيعة. من يعرف عمل الانسان يغذي ماهو غير معروف في معرفته بما هو معروف.

الغير معروف للمعرفة هو عمل الطبيعة مثل دوران الدم، اشتغال الاحشاء وغيرها. المعروف للمعرفة هو عمل الانسان مثل القراءة والكتابة- فونغ.

ويمكنه بذلك استكمال ترمه الطبيعي من السنوات ولا يصل الى نهاية غير موقوته وهو في منتصف العمر. هذه هي المعرفة في ذروتها.

وتبقى بعض المشكلات. هنا يترتب على الانسان ان يعتمد على شيء ما هو المعرفة. والمعرفة أبعد ما تكون عن اليقين. وهو يعرف ان ما يدعوه طبيعة ليس هو الانسان وما يدعوه انسان ليس هو الطبيعة.

حيثما كانت المعرفة كان الاختباط. فالسبيل الأقوم هو في تجاوز المعرفة. ذلك ما قد نوقش بتمامه في الفصل الثاني. المعرفة الصادقة للانسان الصادق

هي معرفة ما نسميه تجربة خالصة. هذا ما سنراه في الوصف التالي للانسان الصادق - فونغ.

الانسان الصادق له فقط معرفة صادقة. ماهو الانسان الصادق؟ الانسان الصادق قديماً لم يكن يعارض حتى الاقلية. لم يبحث عن انجاز بطولي. لم يضع خطة ومن ثم كان لا يأسى على الفشل ولا يفرح بالنجاح. وبذلك كان يمكنه صعود المرتفعات بلا خوف، والدخول في الماء دون ان يتبلل وفي النار من غير شعور بالحر... مثل هذا هو من ترتقي معرفته الى التاو..

الانسان الصادق من السلف كان ينام ولا يحلم ويستيقظ ولا يقلق. يأكل بدون تخيير، يتنفس بعمق وتنفسه يأتي من عقبه بينما يتنفس الناس العاديون من حناجرهم، بعيداً عن الذين تنقذف كلماتهم مثل القيء.

الانسان الصادق هادئ، ساكن، متطامن، بينما عموم الناس مستغرقون في الاختباط والقلقلة - فونغ.

من كانت شهواته في العمق فينبوع طبيعته ضحضاح.

الانسان الصادق من السلف لا يعرف حب الحياة ولا كره الموت. يعيش فلا يشعر بالاغتباط، يموت فلا يقاوم. يروح غير واعي، ويجيء غير واعي. لا يحاول ان ينسى بوعي كيف كانت بدايته او يبحث عن نهايته كيف تكون. يتلقى بالحبور اي شيء يأتيه ويترك اي شيء يكون قد نسيه فلا يعبأ به. لا يؤثر الذهن الصاحي على التاو او الطبيعة المكملة للانسان... مثل هذا هو من نسميه الانسان الصادق.

وفي كينونته هذه يتحرر ذهنه من جميع الافكار. حركته راسخة صافية. جبهته تشع بالبساطة، بارد كالخريف دافئ كالربيع. انزعاجه وارتياحه يأتيان عفواً كالفصول الاربعة. في انسجام مع الاشياء كلها دون معرفة أي معيار ثابت. ومن

هنا يمكن للحكيم في ادارته للحرب ان يدمر بلداً من غير ان يفقد ثقة الناس به. ان نفعه قد يمتد الى عشرة آلاف جيل من غير أن يكون "محب الانسان".

من هنا ليس حكيماً من يحاول لغرض ما ان يعرف جميع الاشياء. ومن يتوخى اظهار تأثراته ليس من اهل الاحسان. ومن يرقب التغيرات في الوقت عن غرض ليس من اهل الحكمة. ومن لا يستطيع توحيد النافع والضار ليس من اهل الفضائل. ومن يعمل للشهرة ويفقد بذلك طبيعته الخاصة به ليس من اهل المعرفة ومن يفقد طبيعته الخاصة ويضل بذلك عن سواء السبيل لا يمكنه ان يستقل عن الغير. ومن هذا الغرار البشري كان هُو بو تشيه، وو كوانغ بو يي، شو تشي، تشي تسه، شو يو، تشي تو، شَن تو تي[1].

ـ من اخلاقيي الازمنة الغابرة ـ فونغ.

الجميع تصرفوا تبعاً لمعيار الآخرين وليس لطبيعتهم الخاصة بهم. الجميع عملوا لاسعادالغير، وليس لانفسهم.

مظهر الصادق من السلف كان يشبه شيئاً ما سامياً لكن بعيداً عن خطر الهبوط. شيئاً ما غير كافي لكن لا يحتاج الى الاضافة . يتصرف باستقلال لكن غير قاطع . خلوّه بينّ لكن لايستعرضه. يبتسم ويبدو جذلاناً. يستجيب تلقائياً كما لو انه لا خيار له. يراكم الجاذبية الظاهرة في تعبيره. فراغيته تثبت تبعية الانسان للفضيلة. تساميه يبدو غير قابل للسيطرة. وخفياته غير مكشوفة. ولكونه دوماً غير واعي ينسى ما يقول. يعتبر القانون تمظهراً برانياً للحكومة والاحتفالات اجنحة والمعرفة مطلوب الوقت والفضيلة هادياً. اعتبار القانون تمظهراً برانياً للحكومة يعني أنها من عادات عالم الانسان . اعتبار المعرفة مطلوب الوقت يعني اتباع المجرى المحتوم للاشياء. واعتبار الفضيلة هادياً يعني العودة الى المنزل السابق.

الطبيعة ـ فونغ.

مع هؤلاء القادرين على المشي، يفعل تلقائياً والناس يعتقدون انه يبذل جهداً خاصاً. وبهذه الطريقة فإن ما يحبه هو الانكفاء الى واحد. وما لا يحبه ايضاً هو الانكفاء الى واحد، فما ليس واحداً عنده هو ايضاً واحد. هو من يعرف ان الواحد من أُتباع الطبيعة وليس من أُتباع الانسان. لاالطبيعة ولاالانسان ينبغي لهما إسقاط الآخر. هذا هو الانسان الصادق.

الصادق يوّحد الطبيعة بالانسان ويساوي بين جميع الاشياء. لا وجود عنده للتعارض بين الاشياء ولا تقاهر بين الطبيعة والانسان وهو لذلك فارغ كما هو كل شيء. غير واعي وفي كل مكان ومن يوّحد باطنياً بين نفسه والآخر. كووشيانغ

هذا ما يسميه تشوانغ تسه إتّباع مجريين في آن. كما ذكر في الفصل الثاني ـ فونغ

الحياة والموت يعينهما القدر. تعاقبهما كتعاقب النهار والليل هو تحولات الطبيعة. ثمت شيء ما يخرج عن يد الانسان. وكذلك هو واقع الاشياء. وفي الناس من يعتبر السماء أباً له ويداوم على حبها ـ كم يجب عليهم اذن ان يحبوا ما هو اعظم من السماء؟

يقصد التاو ـ فونغ.

وفيهم من يرى حاكمه فوقاً له ويضحي لذلك بحياته من اجله ـ كم يجب عليهم اذن ان يفعلوا مع من هو اكثر حقيقة من الحاكم.

يقصد التاو ـ فونغ

حينما تجف الينابيع ينحشر السمك في اليابس ليندّي بعضه بعضاً بما حوله من الرطوبات ويُبقى على نداوته بتقاسم اللزوجة في جلده.

الاخلاقيون الذين يصلحون العالم بالاحسان والاستقامة ـ فونغ
انما الافضل له ـ السمك ـ أن ينسى بعضه بعضاً في الانهار والبحيرات.
الناس ينسى بعضهم بعضاً في التاو ـ فونغ.

يمدح الناس ياو ويذمون تشيه لكن الأفضل لهم أن ينسوهما ويتمثلوا طرائقهم المختلفة. يحملنا العالم في ابداننا، يكدح بنا طيلة العمر، يعطينا السكينة في شيخوختنا ويتركنا نستريح في الموت. ذلك ما يجعل حياتنا طيبة وموتنا طيب ايضاً. الزورق يمكن ايداعه في شاخه[٢] والشبكة في البحيرة. ويعتبر ذلك اسلم بما يكفي لهما. لكن في منتصف الليل قد يأتي رجل شديد الأسر فيحملها على ظهره. الجاهل لا يرى ان المسألة لا تكمن في كيفية الحفظ، /الشيء الصغير في الكبير/ حيث يكونان دائماً عرضة للضياع. ولكن اذا انت خزنت العالم في العالم لا يبقى مجال لفقدانه. هذا هو الصدق[٣] الاكبر للاشياء.

ذاك هو الصدق العظيم للاشياء. ان التمسك بالصورة البشرية مصدر للمتعة. لكن هناك في المجرى اللانهائي الوف الصور المساوية في الصلاح، وانه لنعيم لانظير له ان تقع تحت هذه التحولات التي لا تحصى. ومن هنا يقوم الحكيم برحلاته داخل ما لا يخشى عليه الفقدان ويبقى معه حتى النهاية.

"يقوم الحكماء بالترحل في دروب التحولات ويتبعون مجرى التجديد اليومي. الاشياء تتبدل معهم والتبدل لانهائي وكذلك الحكماء لا يتناهون فهم يفقدون الحياة ويدومون في الموت. ومعنى ذلك انهم باقون على الدوام" ـ كوو شيانغ.

أولئك الذين يعدون الموت المبكر، العمر الطويل، البداية والنهاية حسنات

كلها يجب ان يكونوا هم المتبوعين. ما أوسعه ذلك الذي ترجع اليه جميع الاشياء ويعتمد عليه الارتقاء العظيم!

تبين هذه الفقرة ان رحلة الصادق تعتمد في الواقع على اللاشيء كما ورد في الفصل الاول ـ فونغ

للتاو واقع ودليل ولكن لا فعل ولا صورة. وهو قد يتحول ولكن لا يمكن تلقيه. يسع الامساك به ولا تسع رؤيته. يوجد بواسطة /ومن خلال/ نفسه. ووجوده سابق للسماوات والارض، بل هو موجود على مدى الابدية ـ هو الذي يمنح الآلهة الوهيتها والعالم وجوده.

"التاو لا يمنح الآلهة الوهيتها، إنما هي الهية بذاتها. وبذلك فهو يجعلها الهية بعدم جعلها كذلك. التاو لا ينتج العالم فالعالم ينتج نفسه وبذلك فالتاو ينتج العالم بعدم انتاجه له" ـ كووشيانغ.

هو فوق السمت لكنه غير عالي. هو تحت النظير(نجم) لكنه غير واطيء. سابق للسماوات والارض لكنه غير قديم. هو أقدم من أقدم الغابرين لكنه غير قديم.

"يبين ذلك ان التاو هو في كل مكان، ومن هنا فهو في اعلى مكان لكنه غير عالي. وفي اوطأ مكان لكنه غير واطيء. هو في الازمنة السحيقة لكنه هو نفسه غير قديم... موجود في كل مكان، ومعدوم في كل مكان" ـ كوو شيانغ.

[صيغة أخرى من ترجمة نيدهام :

للتاو واقع ودليل ولكن لا فعل ولا صورة. ينفذ خلال الاشياء ولا يمكن تلقيه. يتحقق ولا يُرى. وجد نفسه وبواسطتها قبل السماء والارض. هو الذي اعطى الارباب الوهيتهم ومكّن العالم من الظهور. ليس عالياً مع انه

في السمت، ولا واطئاً مع أنه في الحضيض. ورغم سبقه للسماوات والارض فهو غير قديم. ورغم انه اقدم من كل الحكماء فهو غير قديم.]

حصّله شي وي[٤] فعادل به السماوات والارض. وحصّله فو شي[٥] فتوغل في اصل المادة وحصّله الدب الاكبر فلم ينحرف عن مداره قط والشمس والقمر فلم تتوقف حركتهما قط. وحصّله كان بي فدخل به الى جبال كون لونغ (قلب العالم) وفَنغ بي فقام برحلته الى النهر العظيم، وتْشين وو فاتخذ منزله في جبل تاي والامبراطور الاصفر وبه ارتقى الى السماوات السديمية وتشوان شو[٦] فأقام في القصر المعتم. ويوشيانغ فحاذى القطب الشمالي. وحصّلته شي وانغ مو[٧] فأعطيت مقعدها في جبل شاو كوانغ ولم يعرف احد بدايتها ولم يعرف احد نهايتها. وحصّله الجد بنغ شو فعاش من زمان شون الى زمان الامراء الخمسة، وحصّله فو يويه[٨] فصار كبير وزراء ووتونغ وتحكم في الامبراطورية كلها، وبعد ان مات امتطى كوكبة تجرها كوكبة اخرى ووضع نفسه في مدار النجوم.

هذه الفقرة تقدم وصفاً شعرياً للتاو ومحصليها ـ فونغ

سأل نان يوتسه كْوَي، نيوتشو كيف يكون له وجه طفل وهو الشايب؟

فأجاب: لأني تعرفت على التاو

فساله نان بو: أيمكنني معرفة التاو؟

رد نيوتشو: كلا من أين لك. لست ذلك الانسان المؤهل لفعله. اذكر لك بوليانغ بي الذي كانت له عبقرية حكيم ولكن ليس التاو. أنا عندي التاو ولست عبقرياً. فاردت ان اعلّمه حتى يصبح حكيماً بحق. ان تعليم تاو الحكيم الى انسان ذو عبقرية يبدو امراً ميسوراً. ولكن كلا، لقد واصلت

تعليمه، وبعد ثلاثة ايام بدأ يصبح قادراً على عدم اعتبار جميع المواد الدنيوية. وبعد ان صار عديم الاعتبار لجميع المواد الدنيوية واصلـ.ت تعليمه وبعد سبعة ايام بدأ يصبح قادراً على عدم اعتبار الأشياء البرانية. وبعد ان صار قادراً على عدم اعتبار الاشياء البرانية واصلـ ت تعليمه وبعد تسعة ايام بدأ يصبح قادراً على عدم اعتبار وجوده الشخصي. واذ توصل الى عدم اعتبار وجوده الشخصي صار متنوراً. واذ صار متنوراً صار قادراً على تحصيل رؤية الواحد. واذ صار قادراً على تحصيل رؤية الواحد صار قادراً على تجاوز الفرق بين الماضي والحاضر. واذ صار قادراً على تجاوز الماضي والحاضر صار قادراً على ولوج المملكة التي يتعادل فيها الموت والحياة. وهي الحالة التي يكون فيها تدمير الحياة ليس موتاً وزيادتها ليست حياة. واخذ عندها يتبع كل شيء ويتلقى كل شيء وصار كل شيء في نظره تحت التدمير وكل شيء تحت الانبعاث. وتسمى هذه الحالة: "السكينة في الاضطراب" وهي التي تعني الكمال.

برغم وضعه الروحاني الموصوف اعلاه لا يزال يتكيف طبيعياً للحياة مع الناس. ان انسحاب الناسك ليس ضرورياً لاستكمال الانسان الصرف - غايلس.

[صيغة اخرى للنص عن الاستاذ هيوز :

بوليانغ يي له مواهب حكيم وليس له تاو حكيم. وانا عندي تاو حكيم وليس المواهب.. اردت ان اعلمه على امل ان يصير حكيم حقيقي: امسكته ثلاثة ايام في التعليم صار بعدها قادر على عدم الالتفات الى عالم الانسان. واذ بلغ هذا الطور امسكته سبعة ايام صار بعدها قادر على عدم الالتفات الى الاشياء البرانية من كل ضرب. واذ بلغ هذا الطور امسكته تسعة ايام

صار بعدها قادر على عدم الالتفات الى وجوده هو. وبعد ذلك حصل له التنور وبحصوله في طور التنور صار قادراً على رؤية الاحدية. واذ صار قادراً على رؤية الاحدية صار قادراً على ان لا يكون له ماضي وحاضر. واذ صار بلا ماضي وحاضر صار قادراً على الوصول الى اللاموت واللاحياة ، الحالة التي لا يكون فيها تدمير الحياة موتاً والزيادة في الحياة حياة. وبوصفه شيئاً فقد كان على الدوام في صحبة مع الاشياء وعلى الدوام يرحب بها. على الدوام يتدمر وعلى الدوام يتكمل. ان اسم هذا الطور هو طفل شبيه بالسلام والانسان الذي في هذا السلام هو طفل في طريق الاكتمال (اكتمال الطفولة)]

سأل نان بوتسه كوي: من أين تعلمت هذا؟

رد نيو تشو: الكتابة من التعلم، التعلم من الفهم، الفهم من الادامة، الادامة من الانكباب، الانكباب من التمتع، التمتع من الخفي، الخفي من اللاتسمية، اللاتسمية من اللامتناهي.

تصف هذه المحاورة مساق تحصيل التاو ـ فونغ

قال تسه سّو، تسه يو، تسه لي، وتسه لاي لبعضهم بعضاً:

من هو القادر على ان لا يجعل رأس وجوده شيئاً، والحياة عموده الفقري والموت ذيله، من هو الذي يعرف ان الموت والحياة، الوجود واللاوجود، شيء واحد ـ ذلك الانسان سيكون صديقنا.

ابتسم الاربعة واتفق بعضهم مع بعض وصاروا بذلك اصدقاء.

لم يمر وقت طويل حتى مرض تسه يو وذهب سّو لعيادته. قال المريض: ما أعظمه صانع الاشياء. بفضله صرت على هذا الجانب من التشوه.

كان ظهره قد احدودب واحشاؤه في اعلى بدنه، وكتفاه اعلى من رأسه، وعظام رقبته طالعة في السماء، وبالجملة فكل تفاصيل بدنه تقع خارج النسق. ومع ذلك كان ذهنه ياسراً وسليماً. تطلع الى بئر ونظر الى منعكسه وقال: أوه ... صانع الأشياء جعلني على هذه الصورة الشائهة.

فسأله تسه سو: وهل تنفر منها؟

اجاب: كلا. لماذا انفر منها. لو تحولت ذراعي اليسرى ديكاً لجعلتها دليلي على ساعات الليل. ولو تحولت اليمنى قوساً لاصطدت بها طيراً وشويته. ولو تحول ردفي عجلة وروحي حصاناً لامتطيته ولم تبق لي حاجة الى جواد. لمّا جئنا فلأنها كانت المناسبة لولادتنا وحينما نرحل فنحن نتبع ببساطة مجرى الطبيعة. ان من يكون رابط الجأش في الحدث الموافق ويتبع مجرى الطبيعة لا يحيك فيه الحزن والفرح. اولئك هم الناس الذين اعتبرهم القدماء احراراً من القيود... والذين لا يقدرون على فك انفسهم يترددون في شباك الاشياء. زد عليه ان حقيقة ان الاشياء الجزئية لا تتغلب على الطبيعة هي حقيقة معترف بها من وقت طويل. فلماذا انفر من حالي؟

ثم مرض تسه لاي وتفاقم مرضه حتى اقترب من الموت. ولما جاءه تسه ليعوده وجد زوجته واولاده يبكون من حوله فصاح بهم: هص! تنحّوا عنه لا تشوشوا مسيرة الطبيعة. ثم اتكأ على الباب وقال: الطبيعة اكبر. ماذا ستصنع منك؟ هل ستجعلك في كبد فأرة؟ هل ستجعلك في ذراع حشرة؟

اجاب تسه لاي: حيثما يطلب الولد من والده ان يذهب شرقاً أم غرباً، جنوباً ام شمالاً فهو يطيع الامر ببساطة.. الطبيعة، الين، اليانغ ليست الا والدي الانسان. اذا عرضتْ علي الموت بسرعة ولم ألبّي وكنت مستنكفاً وعاصياً، فالخطأ ليس منها. العالم يحملني في يدي يكدح بي طيلة عمري،

يعطيني السكينة في الشيخوخة، والراحة في الموت. مايجعل حياتي حسنة يجعل موتي حسناً. هنا سبّاك جليل يسبك معدنه. لو ان المعدن نط وقال: يجب ان تجعلني سيف مويه[9] لاعتبرها السبّاك الجليل نقصان براعة. والآن لو أنني، وقد اتخذت الصورة البشرية مرة، قلت: يجب ان أكون انساناً يجب ان أكون انساناً لاعتبرني صانع الاشياء عديم الذوق. لو افترضنا العالم مصهراً والطبيعة سبّاكاً جليلاً فأي مكان فيها غير ملائم لوجودنا فيه؟ نموت في صمت ونعيش في سكون.

هذه القصة تترسم بالملموس نظرية اخفاء العالم في العالم ونظرية استقلال الانسان الكامل التي وردت في الفصل الاول ـ فونغ.

كان تسه سانغ هو، ومَنْغ تسه فان، وتسه تْشين تشانغ[10] اصدقاء. قال بعضهم للآخر: من بوسعه ان يرتبط في اللاارتباط ويتعاون في اللاتعاون؟ من بوسعه ركوب السماوات والتجوال في السحب مبحراً في اللانهاية ويصبح ذاهلاً عن الوجود دوماً والى الابد من غير نهاية؟

نظر الثلاثة الى بعضهم وابتسموا. وبصمت اومأوا بالموافقة وصاروا اصدقاء.

بعدها بقليل مات تسه سانغ هو. وقبل دفنه سمع به كونفشيوس فارسل (مريده) تسه كونغ للمشاركة في التأبين. ومضى تسه كونغ فرآى احد الاصدقاء يردد اغنية والآخر يعزف على المزهر. كانوا يغنون معاً في تناغم:

الا، الا سان هُو

سان هو لقد عدتَ

للحق يا سان هو

ولم نزل نحن

بعدك في الناسِ

الا الا سان هو

واسرع تسه كونغ اليهم ليقول: اخاطر بالسؤال ان كان من اللائق الغناء في حضرة الجثمان؟

نظر الرجلان الى بعضهما ثم قالا: ماذا يعرف هذا الرجل عن معنى اللياقة! وعاد تسه كونغ من فوره ليخبر كونفشيوس ثم يسأله: اي صنف من الناس هؤلاء؟

خلواً من الثقافة يعتبرون اجسامهم غريبة عليهم. يغنون في حضرة الجثمان من دون تغير في الوجوه. لا ادري ماذا اسميهم. أي صنف من الناس هم؟

رد كونفشيوس : هؤلاء يسافرون خارج عالم الانسان. وانا اسافر داخله. وليس بين هذين السبيلين خطوط مشتركة. لقد اخطأت اذ ارسلتك لتشارك في التأبين.

انهم مرافقو صانع الاشياء، يترحلون مع وحدة العالم، يعتبرون الحياة ملحقاً الصق بهم، وافرازاً زائداً عليهم، ويرون الموت انفصال الملحق وطرحاً للمفرزات. وبهذه النظرات أنّى لهم ان يفهموا فوقية الحياة ودونية الموت؟ اجسادهم عندهم تركيب من عناصر شتى مستعارة وهم يسكنونها موقتاً. ينسون اكبادهم ومراراتهم ويتجاهلون آذانهم وعيونهم. ينتهون ويبدأون من غير ان يدروا لا نهاية ولا بداية. ينزّون بلا وعي خارج العالم الوسخ متجولين في مملكة اللافعل. كيف يتأتّى لهم اقلاق انفسهم بالعرفيات من اجل الناس العاديين؟

وسأله تسه كونغ:

ان كان الأمر هكذا فلماذا تهتم انت يا معلمي بالعرفيات؟

رد كونفشيوس: انا مدان من الطبيعة. وعلى اي حال فهذا امر مشترك بيننا. قال تسه كونغ: اخاطر بالطلب منك ان تقدم لي شرحاً اضافياً فقال كونفشيوس: السمك ينعم بالماء والناس ينعمون بالتاو. والسمك تألف البرك فيكون اغتذاؤها ملائم لها. والناس إذ ينعمون بالتاو لا يفعلون شيئاً فتكون حياتهم "اكتفاء ذاتي". وهكذا قيل: السمك ينسى بعضه بعضاً في الانهار والبحيرات والناس ينسون بعضهم بعضاً في التاو.

وسأل تسه كونغ: هل لي ان سأل عن الانسان غير السوي؟

قال كونفشيوس: الانسان غير السوي غير سوي عند الناس، سوِيّ عند الطبيعة. ولذلك قيل: الانسان الدون تجاه الطبيعة هو الفوق بين الناس والانسان الفوق تجاه الطبيعة هو الدون عند الناس.

سأل ين هوي كونفشيوس: لما توفيت ام منغ سون تساي[١١] بكى من غير دمع، لم يشعرِ فؤاده بالمصيبة. وفي مدة الحداد لم يظهر جزعاً. ورغم ذلك فهو معدود النائح الافضل في دولة لو. أترى الانسان قادراً على كسب السمعة بدون أساس؟ امر يدهشني حقاً.

قال كونفشيوس: منغ سون تساي من الكمَّل. هو اكثر تقدماً من المعرفة. بعض الناس يقيسون الموت بالحياة ولا يرون الفارق بينهما. حسنٌ هذا الامر، لكن تبقى مقارنة. منغ سون لا يعرف ما الحياة وما الموت. ولا يدري أيهما يفضل على الآخر. فهو يتبع التصيرات وينتظر مالم يقع بعد.. زد عليه اننا الآن في تصير فمن اين لنا ان نعرف مالم يقع بعد؟ اننا نتحول

الآن الى مالم يقع بعد فكيف نعرف ما هو واقع وشيكاً؟ قد تكون انت وأنا في حلم لم نستيقظ منه بعد. عند منغ سون يوجد تحول في الصورة ولكن بلا معضلة في الذهن. تبدل في الاقامة ولكن ليس موت حقيقي. كان يبكي ويتبع ببساطة مثال الآخرين. كان يرى في كل شيء نفسه، من أين له ان يعرف ان شيئاً من بين اشياء اخرى هو بالخصوص ما يدعى نفسه الخاصة به؟ انت ترى نفسك في المنام طيراً وتحلق في الجو، تراها سمكة وتغوص في الماء.لا يسعنا ان نقول ان كان المتكلم الآن يقظان ام حالم؟ الشعور الرائق يسبق الابتسام. البسمة بالاكراه مش طبيعية. بالبقاء مع الطبيعة والمضي مع سيرورة الارتقاء ستلج في الخواء، الطبيعي ، والواحد.

توجه لي أر تسه لرؤية شويو(١٢) . قال شويو: كيف استفدت من ياو؟

اجاب: ياو قال لي ان علي التحلي بالاحسان والاستقامة وان أميز بوضوح بين الصح والغلط. قال شويو: اذن ماذا تريد هنا؟ ان كان ياو قد وسمك بدعوة الاحسان والاستقامة وثبّتك على التفريق بين الصح والغلط كيف يسعك التجوال في درب الحرية واليسر، درب المنعة الغير منتظمة والغير هادفة، درب الارتقاء الدائب في التغير؟

قال يي أر تسه: قد يكون. الا اني اميل الى الطواف حول المسورات.

رد شيو: كلا. حين يكون الانسان اعمى لا يعنيه تقييم جمال الصورة البشرية. او سحر الالوان. ان استهانة وو تشوانغ بجمالها وليانغ بقوته ونبذ الامبراطور الاصفر لمعرفته ـ كل هذا انما كان بواسطة سيرورة اللف والدق المتواصلة. من أين لك ان تعرف ان صانع الاشياء لم يطمس معالم هيئتي او يسبب تفكيك اوصالي الى حد اني قد اتبعك، وقد استرجعت كمال صورتي، لتكون معلمي؟

رد شويو:آه ذلك مالم نعرفه بعد. إلا أني أوجزه لك. آه يا سيدي! آه يا سيدي! يمزق كل الاشياء الى قطع وهو لم يعدل بعد. تصل بركاته الى جميع الاجيال لكنه غير محسن. هو اقدم كثيراً من الاشياء لكنه ليس قديماً. يغطي السماوات، يدعم الارض ويصمم شتى الصور بجميع الاشياء الا انه غير حاذق. وانا فيه اقوم برحلتي.

تقدم هذه الفقرة وصفاً لطبيعة التاو. التاو يترك كل شيء يقوم بفعله الخاص به. نجاحه او فشله هو نتاج فعله الخاص به. وبسبب ذلك قيل ان التاو يفعل كل شيء بعدم فعل شيء - فونغ.

قال ين هوي: لقد احرزت بعض التقدم

فسأله كونفشيوس: ماذا تقصد.

اجاب: انا قد نسيت القلبية الانسانية والاستقامة.

عقب كونفشيوس: حسن جداً لكنه غير كافي.

وفي يوم آخر رآه كونفشيوس فقال له: لقد احرزت بعض التقدم.

وسأله كونفشيوس: ماذا تقصد؟

اجاب: نسيت الطقوس والموسيقى

عقب كونفشيوس: حسن جداً لكنه غير كافي.

وفي يوم آخر رآه فقال له : لقد أحرزت بعض التقدم

فسأله: ماذ تقصد.

فأجاب: انني اقعد في النسيان الكلي.

عند هذه النقطة بدّل كونفشيوس قَسَماته وقال: ماذا تقصد بالقعود في

النسيان الكلي؟

اجاب: اوصالي عديمة الاعصاب وزكانتي في العتمة. انا قد نبذت بدني وانخلعت من معرفتي فصرت مع اللامتناهي. ذلك ما ادعوه بالقعود في النسيان الكلي.

وسأله كونفشيوس: ان كنت قد صرت واحداً مع اللامتناهي فلم يبق لديك تحبيذ او استهجان شخصي. ان كنت قد صرت واحداً مع الارتقاء العظيم فأنت اذن تساير تبدلاته. وان كنت قد حققت هذا بالفعل فعلي ان اقتفي خطاك.

وصف آخر لحالة التجربة الخالصة ـ فونغ.

كان تسه يو وتسه سانغ صديقين. وحدث ان امطرت الدنيا لعشرة ايام حسوماً فقال تسه يو: اخشى ان يكون تسه سانغ في ورطة. وأعدّ له بعض الاطعمة ومضى اليه وعند وصوله الى الباب سمع شيئاً ما بين الغناء والعويل مصحوب بصوت مزهر يقول: "أو أبي. أو يا إنسان! وبدا ان الصوت يخرج بالكاد والتلفظ بالكلمات كاللهاث. فدخل تسه يو وقال: لماذا تغني بهذه الطريقة؟

اجاب تسه سانغ: احاول ان افكر. من الذي جاء بي الى هذا الترم؟ لكني افكر عبثاً. ابي وامي يصعب عليهما ان يرياني فقيراً. السماوات تغطي كل شيء بالتساوي، الارض تمسك جميع الاشياء بالتساوي ايضاً. فكيف تجعلني في هذا الفقر؟ انني أتساءل لكي اعرف ماهو ولكن بلا جدوى. لعله القدر على اي حال ذاك الذي القاني في هذه الحافة.

الهوامش

(١) هو بو تشيه: ضم الهاء وسكون الواو. بو : باء باريس ، تشيه بامالة الياء . بو بي : باء باريس .شن توتي: فتح الشين.

(٢) شاخة: ساقية فرعية من نهر او جدول. مفردة عراقية من أصل صيني يعني النهر الصغير

(٣) الصدف مقابل(تجن) وآمل ان لا يفهم من الصدق والصادق حيثما ورد في هذه النصوص معناهما العامي واليومي. فالفلسفة الصينية تستعملهما لما هو حقيقي ومتأصل ـ تجن: بإدغام التاء بالجيم مع كسرة خفيفة ونون ساكنة مؤكدة في النطق.

(٤) شي وي، فوشي : نجمان.

وي: بفتح الفاء

(٥) كان بي: هو روح الجبال . وفنغ بي روح الانهار.

بي: باء باريس. فنغ بفتح الفاء

(٦) تشوان شو حاكم خرافي

(٧) شي وانغ مو: روح خرافية

(٨) فو يويه(سكون الياء وفتح الواو واشمام الياء حركة فتح تنتهي بالسكون في الهاء) كبير وزراء في أسرة شانغ. ووتونغ من ملوك الاسرة(شانغ ثاني الاسر في تاريخ الصين في الالف الثاني ق.م.)

(٩) مويه: سيف مشهور في الصين كسيف ذو الفقار عند العرب.

(١٠) هو بضم الهاء.فنغ بفتح الميم وسكون النون والنبر عليه بقوة. تشين بسكون الشين وفتح الياء.

(١١) منغ سون تساي: فتح الميم، تساي: سكون التاء

(١٢) أر بفتح الهمزة. شو يو بمد الواوين

الفصل السابع
الملك الفيلسوف
لاقامة (حكومة) الملوك (الحقيقيين)

الى ان يكون الفلاسفة ملوكاً، او يكون للملوك والامراء روح وسلطان الفيلسوف وتجتمع العظمة السياسية والحكمة في واحد... لن تصحو المدن من العلل ـ ولا الرس البشري كما اعتقد ـ ومن ثم ستكون لدولتنا امكانية الحياة ومشاهدة ضوء النهار. كانت هذه فكرة افلاطون وكذلك معظم فلاسفة الصين. ويبدو ان عناوين وانساق "الفصول الداخلية" السبعة لكتاب تشوانغ تسه تحمل نفس الاهمية.. ان الفصل الاول يتحدث عن حالة الحرية المطلقة، والثاني عن المساواة المطلقة. ومن يحصل على هذه الحالات يسعه تهذيب حياته والعيش مع الآخرين في عالم الانسان. وتكون فضيلته مكتملة. وبهذه الفضيلة يؤثرطبيعياً في الناس. ويصبح بالتالي معلماً عظيماً، والمعلم العظيم يكون ايضاً هو الملك. ان "العظمة السياسية" ينبغي ان تكون تاج الحكمة والفلسفة حكمة في المبدأ وملوكية في الممارسة ـ فونغ.

تقابل يه تْشويه[١] مع وانغ يي وألقى عليه اربع اسئلة لم يجب على اي منها. وفي هذه كان يسه تْشَويه شديد الارتياح ومضى يقفز ويتلوى الى بو يي تسه ليخبره.

قال بويي تسه: هل عرفت ذلك من قبل؟ الامبراطور شون ليس كفأً

للامبراطور تاي[٢]، شون لا يزال يلزم الاحسان لتوجيه الناس. وقد كسبهم. ولكن لا يزال في رأسه ما يميز به بين ماهو انسان وما هو ليس كذلك ولم يتخلص قط من هذا التمييز. الامبراطور تاي ينام في سكينة ويستيقظ في بساطة قانعة. مرة كان يرى نفسه حصاناً ومرة ثوراً. معرفته كانت صادقة، فضيلته اصيلة ولم يغرق ابداً في التمييز بين ماهو انسان وما هو ليس كذلك.

يُظهر ذلك انه في عالم اللاتمايز تتجوهر التاوية ـ فونغ.

ذهب تْشين وو لكي يرى البهلول تْشيه يو[٣] الذي سأله: ماذا أخبرك تسونغ شيه منذ وقت مضى؟

اجاب تشين وو: قال لي ان الحاكم يجعل من نفسه قدوة وينظم الناس بالقوانين والمعايير. وبهذه الحالة لا احد يغامر بالعصيان ويأبى التحول.

قال تشيه يو: هذا مفسد للفضيلة. عندما يسعى الحاكم لحفظ نظام العالم بهذه الطريقة يكون كمن يخوض في البحر، يشق طريقاً في النهر او يجعل البعوضة تحمل جبلاً على ظهرها. حينما يعمل الحكماء لتنظيم العالم لا يهمهم ما يجري خارج الطبيعة البشرية، يتركون كل انسان يساير سجيته الخاصة الموافقة له. كل واحد يفعل ما يقدر عليه فعلاً. الطير يحلق عالياً حتى يتفادى الشراك والسهام. الفارة تتخذ جحرها تحت مكان القرابين لتتجنب خطر الاختناق بالدخان او الحفر عليها. هل تعرف الحقائق المتعلقة بهذه المخلوقات؟

هذه القصة تبين ان كل شيء له قابليته الطبيعية. حتى الطير الصغير والفأرة الصغيرة لديها طريقها الطبيعي في الاحتماء وتدبير الامور. الطريقة المثلى في الحكم هي ان تدع الاشياء لوحدها، تتركها تفعل ما تقدر عليه ـ فونغ.

كان تيان كَن مسافراً الى جنوب جبل يين. وكان قد وصل الى نهر لياو عندما التقى مع حكيم لا اسم له فقال: اسألك ان تدلني كيف يُحكم العالم.

اجاب العديم الاسم: اغرب عني انت من الدون. أي سؤال مزعج تلقي علي؟ انا في صحبة صانع الاشياء وحينما اشعر بالارهاق اركب على طير اليسر والفراغ جارياً خارج العالم، اتجول في قاع اللامكان واعيش في سلطان اللاشيئية. لماذا تأتي لتزعجني بمشكلة وضع العالم في انتظامه؟

كرر تيان كَن سؤاله فأجاب العديم الاسم:

قم برحلة في البساطة الخالصة. مهوي نفسك مع اللاتمييز. ساير سجية الاشياء ولا تعترف بتحيز شخصي وعندها سيكون العالم في سلام.

ذهب يانغ تسه تشو لرؤية لاوتسه وقال له: هنا رجل نبيه متين، واضح الرؤية، وزكين، وكدود في معرفة التاو أيمكن عده حاكماً عاقلاً؟

اجاب لاوتسه: بالمقارنة مع الحكماء يكون مثل هذا خادماً او صانعاً حقيقياً، فهم يكدحون بعضلاتهم ويُنهكون اذهانهم. ان النمر والفهد يصادان لجمال جلودهما وذكاء القرد والكلب يؤدي بهما الى السلاسل ايمكن لهذه المخلوقات ان تقارن بالحاكم العاقل؟

بدا يانغ تسه تشو جازعاً وهو يرد: ايمكنني المغامرة بالسؤال عن حكم الحاكم العاقل؟

اجاب لاوتسه: في حكومة الملك الفيلسوف تكون انجازاته هي الاعظم في الدنيا لكنها تبدو ليست انجازاته هو. نفوذه يمتد الى جميع الاشياء ولكن لا احد يعتمد عليه.

الروحاني لاانجاز له، كما قيل في الفصل الاول، فهو يدع كل انسان يقوم بعمله تبعاً لقابلياته ـ فونغ.

لا احد يستطيع اعطاءه اسماً لكن كل واحد يتمتع بما لديه.

"الحكيم لا اسم له" كا قيل في الفصل الأول ـ فونغ.

الملك الحكيم هو من يقف في الخفاء ويقوم برحلته في اللاموجود.

"الانسان الكامل لا نفس له. كما ذكر في الفصل الاول ـ فونغ.

كان في دولة تَشنغ عرّاف عجيب يدعى تشي شْين(٤) يعرف كل شيء من ولادة وموت الناس، المكاسب والخسائر، النكد والسعادة، العمر المديد والعمر القصير ـ يتنبأ بالسنة والشهر واليوم في دقة فوق طبيعية... وكان اهل تشنغ يلوذون به. فذهب اليه ليه تسه فلما رآه انوخذ به. وفي عودته قال لصاحبه هُوتسه: لقد تعودت ان اعتبر مذهبك يا سيدي كاملاً وانا الآن اعرف ماهو اكثر كمالاً.

تبين هذه القصة تبعاً لكوو شيانغ، الوجوه المختلفة للانسان الكامل. ان الانسان الكامل "ساكن في المضطرب" كما قيل في الفصل الاخير. بكلمة اخرى انه ساكن في النشاط. فتكون هنا اربع وجوه : السكينة، النشاط، توازن السكينة والنشاط ثم السكينة في النشاط ـ فونغ.

قال هو تسه:

كنت قد علمتك صفة مذهبي ولكن ليس جوهره. اتظن انك قد تمكنت منه؟ بدون ديك في مدجنتك اي بيض سيضع دجاجك؟ انك تكشف مذهبك للناس للحصول على الثقة. هذا هو السبب في قدرة هذا الرجل على تأويل فراستك. خذه معك وأريه اياي.

في اليوم التالي توجه ليه تسه مع تشي شين لرؤية هوتسه فلما رآهم هتف تشي شْين: الا! ان معلمك موّات، لن يعيش اكثر من عشرة ايام. انا ارى امراً غريباً من حوله فهو يبدو كالرماد المبلل.

دخل ليه تسه واخذ يبكي حتى ابتل رداؤه. ثم ابلغ هو تسه ماقاله العراف فقال هوتسه: لقد أريته نفسي في صورة التراب. كنت عديم الحركة مثل الجبل، قد يكون رآني ووظائفي الطبيعية متوقفة. حاول أن تأتي به مرة اخرى.

هذا أحد مناحي الانسان الكامل - فونغ

في اليوم التالي جاء ليه تسه ومعه العراف مرة اخرى لرؤية هوتسه. ولما خرجا. قال العراف لليه تسه: لحسن الحظ ان معلمك جاءني الآن. هو اليوم احسن. حي تماماً. واعتقد ان توقف وظائفه الطبيعية هو شيء مؤقت. ودخل ليه تسه فأخبر هو تسه فقال الاخير: لقد أريته نفسي في صورة السماء. الشهرة والكسب الحقيقي لا يدخلان في عقلي. إن وظائفي الطبيعية تنبع من اعماق كياني. لعله رآني ووظائفي الطبيعية في كامل نشاطها. حاول أن تأتي به مرة اخرى.

هنا منحى آخر للانسان الكامل - النشاط فونغ.

في اليوم التالي جاء ليه تسه مرة اخرى ومعه العراف لرؤية هو تسه. ولما خرجا قال العراف معلمك غير متماثل ابداً. لا يمكنني فهم فراسته. لننتظر الى ان يصير سوياً حتى اعيد فحصه.

دخل ليه تسه على هو تسه وابلغه فقال: أريته نفسي في الانسجام العظيم حيث لا شيء متفوق على اي شي. لعله رآى ميزان وظائفي الطبيعية. اينما

دار الماء من حول الاطوم فثمت دردور (سويرة) واينما دار من عائق مجراه فثمت دردور واينما اندفع خارجاً فثمت دردور هناك تسعة اشكال من الدردور بأسماء مختلفة ذكرت ثلاثة منها فقط. حاول أن تأتي به مرة اخرى.

هذا منحى اخر للانسان الكامل ـ توازن الهوادة والنشاط. ان عقل الانسان الكامل يقارن هنا بالدردور. قال كوو شيانغ: يعني تشوانغ تسه بالدردور تساوي الهوادة مع الصمت. ليس للماء عقل وهو يتبع دوماً طبيعة الاشياء. ومن ثم، ومع وجود فارق بين الجريان والتعويق، بين حركة الأطوم ورقص التنين فإن الماء نفسه هو ما هو في حالة الصمت دوماً. ولا يفقد ابداً هوادته وصمته. وهكذا الانسان الكامل: حينما يطلب منه ان يفعل شيئاً فهو ناشط. واذا لم يطلب منه فهو ساكن. ومع الفارق بين النشاط والسكون فهو على الدوام في هدوء باطني. ولتوضيح ذلك ذكر تشوانغ تسه الاوضاع المختلفة للماء. مقرراً ان وجود تسعة اوضاع مختلفة للماء مع اختلاط النسق واللانسق هو غرار لما يجعل لكائن في الاعلى دائماً بسيط، يتمتع بنفسه، وينسى الفعل. فونغ.

في اليوم الثاني جاء ليه تسه بصحبة العراف لرؤية هو تسه. ولكن قبل ان يستقر في مكانه فقد العراف السيطرة على نفسه وهرب. قال هوتسه: الحقه. فلحقه ليه تسه ولم يظفر به فعاد وقال لهو تسه: اختفى ضاع.. لم اظفر به.

قال هو تسه: اريته نفس متغيرة بدون ان تفقد جوهرها. تابعته بالفراغ في مرونة. لا ادري من هو وماذا هو تبعاً للاشياء اتغير. تبعاً للاشياء اجرى ولذا فقد هرب.

هذا وجه آخر للانسان الكامل ـ النشاط في الهوادة. قال كوو شيانغ: حين يكون الانسان الكامل ناشطاً يشبه السماوات، وحين يكون في الهوادة يشبه الارض. واذا يفعل شيئاً ما فهو كالماء الجاري، وحين لا يفعل شيئاً فهو كالدردور الصامت. ومع الفارق بين الماء الجاري والدردور الصامت، بين حركة السماوات وعدم حركة الارض تبقى كل هذه طبيعية لا مصطنعة. ومن هنا حين رأى العراف الانسان الكامل جالساً وقد نسي نفسه ظن انه موات. ولما رآه ناشطاً كالسماوات ظن انه عاد الى الحياة. وفي الحقيقة ان الانسان الكامل يستجيب للاشياء البرانية بذهن غير واعي ويتطابق باطنياً مع العقل. هو يمضي صُعُداًوصَبَباً مع التحولات وتبعاً للتغير في الوجود، فتكون له من ثم القدرة على التصرف في الاشياء والسير مع الزمن حتى النهاية ولذلك تعذر فهمه على العراف ـ فونغ.

هنا اقتنع ليه تسه انه لم يحصل بعد على تعليم حقيقي. فانقلب الى بيته ولم يخرج منه ثلاث سنوات. كان يطبخ لزوجته ويطعم الخنازير كما لو كان مختصاً باطعام الناس.

نسي الفارق ما بين المواقع الاجتماعية، والفارق ما بين الناس والحيوانات.ـ فونغ

لم يكن لديه ولع خاص بأي شكل مخصوص من العمل.

اعتبر جميع الاشياء متساوية ـ فونغ.

خلع المصنوع وانكفأ الى المطبوع. وقف في العالم كأنه كتلة من التراب. وفي وسط الاختباط والاضطراب بقي مع الواحد حتى النهاية. لا تكن صاحب شهرة. لا تكن ممتلئاً بالخطط. لا تكن منشغلاً بالشغل. لا تكن سيداً للمعرفة.

دع كل شيء يعتني بنفسه ـ فونغ.

مهوي نفسك مع اللامتناهي. قم بالرحلة في الخواء. مارس بالتمام ما تستلمه من الطبيعة. ولاتأخذ شيئاً في المقابل. بكلمة واحدة: كن خاوياً.

ذهن الانسان الكامل يشبه المرآة. لا يتحرك مع الاشياء ولا يستبقها. يستجيب للاشياء ولا يتحصلها. ومن ثم فهو قادر على التعامل بنجاح مع الاشياء، من دون ان يتأثر بها.

حاكم البحر الجنوبي يسمى التغير. حاكم البحر الشمالي يسمى اللايقين. اما حاكم المركز فاسمهالبدائية. التغير واللايقين يلتقيان دائماً في اقليم البدائنية، الذي يعاملها على الدوام باللطف مصمماً على شمولهما بالشفقة. وقد قالا: كل انسان لديه سبعة ثقوب للرؤية، والسمع، والأكل ، والتنفس. البدائية وحدها لا تملك شيئاً منها. لنحاول تثقيب شيء منها (البدائية) فثقبوا له كل يوم فتحة وفي اليوم السابع ماتت البدائية.

[صيغة اخرى للنص الاخير مأخوذة من ترجمة هيوز:

سلطان البحر الجنوبي يسمى اللاقناعة (مع الاشياء كما هي). سلطان البحرالشمالي يسمى الدورة. سلطان المركز يسمى الشواش. ين الوقت والآخر يتلاقى اللاقناعة مع الدورة في اقليم الشواش،الذي يعاملها بروح الضيافةالعالية. خطط السلطانان لرد اللطافة الى الشواش فقالا: الناس لهم سبعة ثقوب وصديقنا هنا ليس له شيء منها. فلنحاول ان نثقب له بعض الثقوب. فأخذا يثقبان في كل يوم ثقباً وفي اليوم السابع مات الشواش.

الهوامش

(١) يه تشويه: فتح الياء. تشويه: سكون التش وامالة الياء

(٢) امبراطور خرافي

(٣) تشين: سكون التش وفتح الياء. تشيه: سكون التش وامالة الياء. شيه: كسر الشين. والهاء صامته

كن: بفتح الكاف.

(٤) شين: سكون الشين وفتح الياء

تشنغ: بفتح التش. هو: بضم الهاء

زيادات ليست
في ترجمة فونغ يولان

من الفصل الثاني عشر

[يرجح الاستاذ إي. آر. هيوز. ان هذا الفصل وما يليه من الفصول التي اقتبسناها من ترجمته هو من تحرير الكتاب التاويين في اوائل اسرة الهان (الأول ق.م) ولو اننا نجدها تحمل في نفس الآن تاثيرات تشوانغ تسه ولغته ومنهجه العام. ولعل محرريها قد اضافوها الى الفصول السبعة التي حررها تشوانغ تسه بنفسه لهذا الاعتبار - هـ.]

شاسعة كالسماء والارض هي التغيرات التي تعمها على السواء. ان العديد مما هو بحكم الاشياء يهيمن عليها واحد مفرد. وان الكبير الجليل كمجموع السواد الاعظم يكون الحاكم عليه هو السيادة.. تنبع السيادة من سلطان[1] الشخصية في انسان وتتكمل في السماوات. ومن هذا التوكيد نجد ان في الماضي كان السلطان السري في حكم جميع الناس هو اللافعل، اللافعل الذي ليس سوى القدرة المميزة للسماوات.

استعمل الكلام الذي يعكس التاو وستكون السيادة الحاكمة على الناس سيادة صادقة: لها مراتب في المجتمع تعكس التاو ويكون العدل بين الملك والرعية واضح منطقياً: استعمل القدرة التي تعكس التاو ينتج الموظفون في كل مكان السلم والانتظام. لانه بالتاو والصورة المحوّمة لها تستجيب جميع

المخلوقات لبعضها البعض. وبنفس المعنى يكون ما يتخلل السماوات والارض هو سلطان الشخصية وما هو ناشط في جميع المخلوقات هو التاو. ان سَوْس الناس من فوق يتم من خلال جملة واجبات والقدرة على ملاءمتها مع العدل هي المهارة المتحصلة. والمهارة تتجارى مع جملة الواجبات، وهذه الواجبات مع العدل، والعدل مع السلطان الروحي في انسان، وهذا السلطان الروحي مع التاو والتاو مع السماء. وبنفس المعنى يكون الافراد الذين يغذون مجتمعهم كله ليس لديهم رغبات وهكذا يكون المجتمع باكمله مليئاً: ذلك انهم يمارسون اللافعل فتتغير جميع المخلوقات، ذلك انهم راسخو البقاء، والاواصر بين جميع الاسر منتظمة.وكما جاء في "السجل" - "كن متوغلاً مع الوحدة تتحقق جميع الواجبات بتمامها:لا تفكر في النجاح الفردي تخدمك الاسماء والارواح.

قال السيد (كونفشيوس). هذه التاو التي تعمل باقبال وادبار في جميع المخلوقات كم هي شاملة في هيمنتها. لايملك الانسان المبدئي الا ان يفتح قلبه لها. اننا نقول "سماوات" حينما نفكر في الفعل بدون فعل، كما نقول "سلطان روحي" حينما نفكر بقول اشياء من دون اي شيء، كما نقول "احسان" حينما نفكر في محبة الناس ونجعل الاشياء لحسابهم، كما نقول "عظمة" حينما نفكر في ايجاد الانسجام بدل التنافر، كما نقول "أناة" حينما نفكر في فعل شيء لازعاج خصومنا، كما نقول "ثورة" حينما نفكر في احتياز جميع ضروب الاشياء ، كما نقول "ابتداء" حينما نفكر في انسان متمسك بفضيلته، كما نقول "واطد" حينما نفكر في تقدم فضيلته نحو الاكتمال. او "معصوم" حينما نفكر به في وفاقه مع التاو، أو "كامل" حينما نفكر في كونه لا يستعمل القسر ضد اي شيء. اذا كان الانسان المبدئي

واضحاً في هذه النقاط العشرة جعلته يؤدي واجباته بالتمام ووسّعت من افقه الذهني: وسوف تنهمر بكليتها في افعاله وتستظهر الطبيعة جمعاء[٢][؟]

ان انساناً من هذه الشاكلة هو من يدفن الذهب في الجبال ويرمي اللئاليء في البحر. فهو لايرى فائدة في هذه البضاعة الدنيوية ويبقى بعيداً عن الابهة والاحتفال. ولا يفرح بالعمر الطويل ولا يحزن بالموت في غير اوانه. لا يفخر بالرخاء ولا يخجل من الفقر. وبوصفه ملكاً فهو لا يحتجن مكاسب جيل كمنحة له. ولا يعني عرشه عنده جلال الشهرة بل جلال الفهم بأن الوجود كله هو مستودع مفرد يتماثل فيه وجه الموت ووجه الحياة[٣].

في البداية الكبرى كان اللاشيء. واللاشيء لا اسم له. في نقطة الشروع للأحدية (أحدية الكون) كان هناك أحدية فقط ولا صورة ملموسة. هذا الطور يمكن وصفه بالسطان الروحي (في العمل) ثم اخذ العديم الصورة يتشعب ويستمر في ذلك. هذا يمكن اعتباره "مقدار الجزئي". (بهذين السلطانين) كان هناك سيل غير متقطع من التأثير عند العمل هو ماجعل الاشياء الجزئية تعيش وتستظهر خواصها المميزة. وهذا ما نعتبره "صورة". اطار الصورة يحمي الروح فيها. ولكل روح غرار لابد من اتباعه. وهذا ما نعتبره (طبيعتها).وحين تتطور طبيعة الشيء الى الكمال تكون عودة الى السلطان الروحي (الذي يأتي الوجود من خلاله). والآن فهذا السلطان حين يكون في ذروته يتساوى مع نفسه عند البداية. وحيث يكون سواء فهو غير مشروط (بالمكان والزمان) وان يكون غير مشروط يكون جلياً وينتج "الاتحاد ما بين منقار الطير وغنائه" والاتحاد ما بين منقار الطير وغنائه هو

جزء من الاتحاد مابين السماوات والارض[٤] وهذا الاتحاد يعم المنظومة باكملها: شيء ما غير واعي تحت السطح يمكن اعتباره سلطان (الهي)، هو ما يجمع (كل شيء) في استجابة كبرى.

ألقى السيد (كونفشيوس) سؤالاً على لاوتان (لاوتسه): ناس يتعاطون على التاو كما لو كانوا ينتقدون بعضهم بعضاً قائلين عن شيء انه ممكن وعن اخر غير ممكن او هذا حق وهذا باطل، كما يفعل الجدليون[٥]، الذين يقولون ان الصلابة والبياض لا يجتمعان كما لو انك تستطيع فصل الاشياء ميكانيكياً! ايجوز ان نسمي مثل هؤلاء الناس حكماء؟

اجاب لاوتان: انهم قليلو الشأن. ايدي ماهرة في المشغل، تكدح في حالة من عدم الطمأنينة، ولهم شبه بالكلاب التي تلقيها مهارتها في اصطياد الثعالب وغيرها في متاعب، وبالسعادين في الاعيبها الذكية التي تلقي بها خارج الجبل والغابة (محيطها الطبيعي) ياتشيو[٦] سأخبرك شيئاً لا تطيق فهمه او الكلام بشأنه. هناك فئام من الناس لهم رؤوس واقدام وليس لهم اذهان او آذان. ولكن بين الكائنات لا يوجد واحد فرد يمكنه العيش من غير بدن منظور من نوع ما. فحركات هكذا كائن وسكناته، حياته وموته، كلها متناقضة مع ماهو بواسطته موجود[٧].

ان لدى الانسان بعض الضوابط للسيطرة (على نفسه)، ان يكون غير واعي للاشياء (بوصفها خارج ذاته)، ان يكون غير واعي للسماوات (بوصفها خارج ذاته) فهذا يعني عدم وعي الذات. والانسان الغير واعي لذاته هو من يوصف بولوج السماوات.

****

قال تشي تشه (الحاد الذكاء في إبانه) ان حكومة الحكيم العظيم في المجتمع العظيم توجد احتياجات كبيرة في قلوب الناس ـ ممكنة اياهم على اجراء المباديء المتنورة، وتبديل عاداتهم لازالة الذهن السرّاق عنهم. ولدى كل واحد منهم ارادة فردية للمضي من عزم الى عزم، بحيث يبدو كما لو أن طبيعة الفرد تفعل لنفسها ولا يعرف الناس مصدر التأثير. مثل هذا الحكيم يرتقي بلا شك الى مقاس ياو أو شون في الهام الناس: لماذا يجب عليهم ان يكونوا خدماً مثل الزوجة ـ البنت[٨]؟ رغباتهم متوافقة مع السلطان الروحي فيهم وقلوبهم راسخة.

هيوز

الهوامش

(١) سلطان: مقابل الصيني تْشَون لي والانجليزي power واللفظ الصيني حاصر في دلالته على مجموع القدرة والدليل والحجة التي يتضمنها اللفظ العربي. انظر الآيات، ٧١/ اعراف ، ٦٨/يونس ، ٩٦/هود ، ٤٠/يوسف ، ١٠/ابراهيم، ١٥/ الكهف، ٤٥/المؤمنون، ١٥/صافات كمثال على المعنى المحدد هنا لكلمة سلطان.

(٢)عبارة ملتبسة وضع هيوز امامها علامة استفهام

(٣) ليس هذا ولا ما تقدمه في الفصول من كلام كونفشيوس ولا مذهبه وانما استنطقه الكاتب التاوي لتعزيز افكاره. كما سيفعل المتصوفةالمسلمون مع النبي محمد في جيلهم - هـ.

(٤) يستند هذا النص الى خفيّة الترابط ما بين شكل منقار ما والتغريدة الصادرة عنه - هيوز

(٥) لاحظ الاستاذ هيوز ان الجدليين لم يكونوا في عهد كونفشيوس من غير ان يشكك في هذا الحوار بينه وبين لاوتسه. وقد بيّنا في الهامش الاسبق ان التاويين استنطقوا كونفشيوس لاغراضهم وان مايرد عنه في كتاب تشوانغ تسه لا يصلح للتوثيق - هـ.

(٦) الاسم الشخصي لكونفشيوس - هـ.

(٧) لاحظ مخاطبة لاوتسه لكونفشيوس باسمه دون اللقب مما يعزز عدم الثقة بالرواية التي يظهر فيها لاوتسه في مظهر المتفوق المتسيد على كونفشيوس!

(٨) الزوجة – البنت، من عواقب الفقر في الصين القديمة. كانت العائلة التي تعجز عن اعالة بناتها تقدم البنت لعوائل موسرة وهي صغيرة لتخدم العائلة بوصفها كنة المستقبل. وعندما تكبر تتزوج من ابن العائلة التي خدمتها لكنها تكون زوجة من الدرجة الثانية في مقام يشبه مقام الجواري - هـ.

من الفصل الثالث عشر

تاو السماوات، تاو امبراطور ما، تاو حكيم ما، تفعل كسيرورة لكن ليس بتكتيل كل شيء دونما تمييز. ومن هذه الحقيقة تأتي الى الوجود المخلوقات الشديدة التنوع، والاخلاص لامبراطورية امبراطور ما، والبيعة الكونية المقدمة لحكيم ما. الانسان الذي يفهم السماوات والمتضلع في موهوبات الحكماء كما في القوى الطبيعية الفاعلة في فضيلة السيادة، مثل هذا الانسان يفعل من ذاته، بعدم وعي، في هوادة كلية. هوادة الحكيم ليست تلك التي قيل عنها انها "الكينونة في السلم" وهي ان تكون صالحاً وبالتالي في سلام. كلا، فليس في الطبيعة ما يشده ذهنه فهو في حال الهوادة المبتغاة. اذا كان الماء في حالة سكون يُظهر الشعر في ذقن الانسان واجفانه، وبمنسوبه الميت يسهّل على النجار الاسطى ان يتخذه غراراً. اذا الماء بقي صافياً (في سكونه) فماذا نقول عن قضايا الروح في صلتها بذهن الحكيم؟ هو انعكاس السماوات والارض، مرآة جميع المخلوقات. ان تكون في حالة سكينة، قانع، منسجم، خامل، فهذه هي حالة التوازن في السماوات والارض وفي قلب السلطان التمييزي للتاو. من هنا يكون الاباطرة والحكماء في راحة. في راحة، ثم مطلق السراح، ثم مخلص. مخلص، ثم شديدالمعاناة..وبذلك يتأكد لي انه لا شيء اكثر أُلوهة من

السماوات، لا شيء اغنى من الارض، لا شيء اعظم من الامبراطور"[1]، وهكذا ينبغي التأكيد ان السلطان الروحي للامبراطور يكافيء السماوات والارض.

(في المجتمع) تكون الجوهريات من اختصاص وفعل الحاكم واللاجوهريات للمحكومين، مثلما ان القرارات الهامة (كمثال) هي من اختصاص وفعل السيد والتفاصيل من اختصاص وفعل وزيره. استعمال القوة المسلحة غير جوهري للسلطان الروحي. المكافآت والعقوبات ، نشدان الربح والخوف من الخسارة، قوانين العقوبات الخمسة، هذه كلها هي اللاجوهري لمباديء البلاد. انماط الطقوس والاوزان والمقاييس، الحسابات، التصنيف، وتعريف النقاط الصغيرة، هذه كلها هي اللاجوهري للحكومة.. اصوات الآلات وارتداء الحلل، هذه هي اللاجوهري في الموسيقى والرقص. مدة الحداد المعينة والتمييز في ملابس الحداد هي اللاجوهري في الحزن على الموتى. هذه اللاجوهريات الخمسة تتطلب اهدار الطاقة الروحية وارهاق الذهن. والناس الذين يمتثلون لها في الوقت هم بالضبط تلاميذ اللاجوهريات. كانت هذه الامور لدى الغابرين لكنهم عارضوا اي اتجاه لتضخيم اهميتها.

ان الغابرين الذين توصلوا الى فهم التاو الاكبر كانوا قد توصلوا قبلها الى فهم السماوات. وجاء سلطان التاو تالياً على ذلك. وبالتوصل الى فهم سلطان التاو جاءت القلبية ـ الانسانية والعدالة ثم جاءت ادامة التمايز الاجتماعي وتصنيف الاشياء... ثم الاستعمال المسؤول لها(؟)[2] ثم اختبار الجيد والرديء ، ثم التمييز بين الحق والخطأ ثم المكافآت والعقوبات، ثم تحدد لكل من الجاهل والمتكلم مكانه الصحيح، وللنبيل والعامي مواقعهم

الملائمة، والفاضل والشرير يتصرف كل منهما تبعاً لقدرته. هذا هو ما يوصف بأنه التوازن الاكبر، وذروة الحكم[٣].

الهوامش

(١) نبه العلامة هيوز الى تداخل كونفشيوس شديد في ذهن كاتب الفصل. ويتجلى ذلك في اعلائه شأن الامبراطور. لكن الفصل بمجموعه يصدر عن كنفشة متوّاة ـ هـ.

(١) علامة الاستفهام من وضع الاستاذ هيوز

(٢) كنفشة صارخة وسط عدمية تاوية! ـ هـ

من الفصل الثامن والعشرين
حكايات يفهم منها
انها تدور حول ابطال خرافيين

الهرب من الامرة:

اراد (الملك الحكيم) شون ان يتخلى عن العرش لصالح شان تشوان. فقال الاخير: انا أقف في وسط العالم. في الشتاء ارتدي ملابس فرو وفي الصيف ملابس منسوجة من الحشائش. وفي الربيع اكرب وأبذر حيث يلبي جسدي متطلبات العمل. وفي الخريف اقوم بالحصاد حيث يلبي جسدي مطلوباتي من الاسترخاء والطعام. عند الشروق اخرج للشغل واعود عند الغروب. اتجول طليقاً ما بين السماوات والارض وقلبي مطمئن. لماذا ازعج نفسي بالمجتمع العظيم؟ قد خيبتني بعدم معرفتك اياي. وهكذا رفض العرش ومضى بعيداً الى قلب الجبال ولم يعرف احد الى أين ذهب ليعيش.

ملك حكيم:

كان تاي وانغ شان فو يعيش في بين . ولما هاجمه الهمجيون من قبيلة

تي عرض عليهم فدية من الفرو والحرير. لكنهم لم يقبلوها. فعرض عليهم خيلاً وكلاباً فلم يقبلوا. فعرض لئالئ ويَشب فلم يقبلوا، فما كانوا يريدونه هي اراضيه. وعندها قال لشعبه: "لن يسعني العيش مع انسان سبّبت الموت لأخيه الاصغر وابنه. كذلك كنت قد سمعت ان على المرء ان لا يستعمل وسائل تغذية الحياة لاجل الاضرار بها". وانصياعاً لهذا المبدأ ومعتمداً على اعوانه(؟)[١] خرج من مكانه وجرى الناس خلفه. وانتهت مسيرتهم الى اقامة دولة جديدة عند قدمي جبل تشي.

يمكن القول بشأن تاي وانغ شان فو ان قدرته اتسمت بتبجيل الحياة. والانسان الذي يتمكن من تبجيل الحياة برغم موقعه العالي وثروته لا يسمح لما يغذي الحياة ان يضر بشخصه. وهو ايضاً برغم الفقر والموقع الواطي لا يسمح للحصول على مكسب ان يضع قيداً على بدنه. وعلى العكس من هذا اهل عصرنا من المسؤولين الاكابر وابناء النبالة الذين فشلوا فشلاً مزدوجاً في ذلك. فما ان يحصلوا على مكسب لا تهمهم المخاطرة بابدانهم.

العرش الذي لا يسوى ذراعاً:

تخاصمت اقطاعيتا هان و وي وغزت احداهما الاخرى فجاء الحكيم تسه هوا تسه الى تشاوشي صاحب اقطاعة هان فألفاه مثيراً للغم فقال: لنفرض ان جميع اصحاب الاقطاعات وقعوا اتفاقاً بحضورك مقررين ان قطع اليد اليسرى يسبب مرضاً قاتلاً لليد اليمنى وان قطع اليد اليمنى يسبب مرضاً قاتلاً لليد اليسرى لكن الشخص الذي يقطع يده هو الذي يحكمهم جميعاً ـ هل عظمتك مستعد لقطع احدى يديك؟ اجاب تشاو:

كلا. فعقب تسه هوا تسه: حسناً. من هذه النقطة تكون ذراعان اهم من تملُّك بلاد بأكملها. وبالطبع فإن البدن بأجمعه أهم من الذراعين وحدهما، بينما اقطاعة هان اقل اهمية من البلاد ككل. ومع ذلك فأنت تعرض بدنك للخلل وتلحق الاذى بحياتك لخوفك من الفشل[٢].

العزف على العود من داخل الازمة:

كان كونفشيوس محصوراً في مضيق بين اقطاعتي تشن وتْساى[٣]. مرت عليه سبعة ايام دون طعام سوى صُبّة اعشاب من دون اي رز. وظهر الاعياء على محياه لكنه انسدح في الدار يداعب اوتار مزهره. وكان ين هْوي[٤] في الخارج يلتقط الاعشاب الفاخرة. فجاء تسه لو وتسه كونغ وتكلما معه قائلين: ان السيد قد انتُزع من موطنه وانهم ازالوا كل اثر له في وَي وقطعوا شجرته في سونغ... وهو الآن نهب لكل الايدي في تشن وتساي. معروف انه ليس من الجرم ان يُقتل سيدنا وانه لا حاجز يمنع من اغتياله ومع ذلك فهو يواصل العزف والغناء دون توقف. ترى الا يشعر الانسان المبدئي بالاساءة التي تلحق به؟

لم يرد ين هْوي وانما توجه الى كونفشيوس لابلاغه، فألقى مزهره وقال متنهداً: هذان الاثنان صغيرا العقل. اذهب وجئ بهما الي لأني اريد ان اتحدث معهما. ولما وصلا قال تسه لو: "مثلما هي الاشياء الآن قد يقال عنا باننا قد بلغنا الحد".

رد كونفشيوس: ماذا تقول؟ ان التكثر بالتاو هو معنى التكثر. ان تستقيم مع التاو هو معنى ان تكون مستقيماً. وانا هنا لكي اؤكد تاو القلبية -

الانسانية والعادلة، اواجه معضلات عالم مضطرب. ماذا فعلت حتى اكون مستقيماً؟ على هذه الشاكلة، تفحص فؤادك. ولا تكن محبطاً بشأن التاو. عندما تأتي الصعوبات لا تضيع سلطان التاو الروحي. في الشتاء فقط حيث الصقيع والجليد تكون لدينا وسائل لمعرفة قيمة الصنوبر والسبريس. وهذه الازمة في تشن وتساي هي فرصتي السانحة. أليس كذلك؟ وادار ظهره بالتحية منقلباً الى ساباطه ليواصل العزف فيه.

هيوز

الهوامش

(١) علامة الاستفهام من هيوز ـ هـ

(٢) قال فقيه الخليفة: اترى لو احتبس بولك اكنت تفديه بملكك؟ قال: نعم. قال: فما قيمة ملك لايسوى بولة؟

(٣) تشن: بفتح التش. تساي بسكون التاء

(٤) ين هوي: كسر الياء من ين وسكون الهاء من هوي

من الفصل الثالث والثلاثين

فن الحكم بالتاو

"نظرية المجتمع العظيم"

في المجتمع العظيم يوجد الكثير من انصار فن الحكم، وكل واحد يعتبرما لديه شيئاً لا يسمح بزيادة. السؤال هو: أيٌّ من كل هذا يأتي فن التاو الذي تكلم عنه حكماء الغابر؟ الجواب: ليس من مكان...مرة اخرى يجب ان نسأل: كيف ينزل الالهي (في الانسان) عليه؟ كيف يظهر نور العقل؟ (الجواب هو ثمت شيء ما هو ما يستدعي [يجلب] الحكماء [الصادقين] الى الظهور وينتج الملوك [الصادقين]. ومصدر هذا كله هو في‌الواحد.أن تكون على صلة لا تنقطع مع الارومة الأَبَوَيْنية (لكل الحياة) هذا هو ما يراد به "الانسان السماوي". ان تكون على صلة لا تنقطع مع القوة المنشئة (في كل الطبيعة) هذا هو ما يراد به "انسان فوق طبيعي" .ان تكون على صلة لا تنقطع مع الحقيقية [الصادقية](عن الحياة) هذا هو ما يراد به "الانسان الكامل". ان تجعل السماء هي الأرومة الابوينية (لكل الحياة؟) وجذر (الخير كله) هو قوة الشُخوصة، والتاو هو الباب (لكل الحكمة؟) مثلما ايضاً ان يساوق [يتابع] التغيرات والتصيرات وهي تجري (في الوجود) هذا هو ما

يراد به "ان تكون حكيماً". وان تجعل القلبية الانسانية رئيفة، والعدالة مبدأ، و(روح) الطقوسية العالية ديدناً يومياً، والموسيقى قوة الانسجام في المجتمع، وان تكون كذلك شفيقاً بكل خلوص نية، انسان لانسان، هذا هو ما يراد به "ان تكون انسان مباديء" وهكذا، عن طريق الاحكام العامة يصنع التفريقات، وعن طريق الاسماء يصنع الدلائل(كمعرفة ماهي طبيعة الشيء) وعن طريق الخبرة الشخصية يصنع التجربة، وعن طريق الاستقصاء يجعل المحاكمات في دقة حاصل الجمع. هذا هو مناط الارتباط ما بين المئة مسئول (في المجتمع) وبهذا فهُم [المئة مسؤول](*) يمحضون واجباتهم اهتماماً صارماً، يجعلون اكساء واطعام الناس مبدأهم المرشد(**) [وهذا] مع انتاج الفائض وخزنه في مكان أمين، ويكرسون اهتماماً أخصّ للمسنين والضعفاء، للعديمي الاب والارامل. ان لديهم جميعاً نظاماً لاعزاز البشر(***)".

هيوز.

الهوامش

*المئة مسؤول، كناية عن الكثرة وليست مقصودة للعدد.

** قارن مع قول عبد القادر الجيلي، "نظرت في الاعمال كلها فلم اجد افضل من اطعام الطعام. وددت لو أن الدنيا في يدي لأطعمها الجياع".

*** العبارات ما بين الاقواس والقويسات من النص الانجليزي. وقد وضعت لإكمال النص الذي كتب في الاصل الصيني بعبارات مختزلة. وما تحته خط من الانجليزي ايضاً. وحصرت انا بين قوسين مضلعين ما استدعاه الايضاح او الاكمال او الترجيح.

ـ شخوصة، مصدر شخص.مثل رجولة من رجل ومروءة من مرء. اخترتها هنا مقابل PERSONALITY تبعاً لاستدعاءات السياق ومنحى كلام الفيلسوف.

من جوهر التاوية ومنحاها الاجتماعي

.. انها المعرفة المصنوعة المش ـ طبيعية هي التي سببت جميع الشرور في هذه الدنيا والتعاسة التي عمت اهلها.. اختراع القوس والسهم والرمح سبّب الشقاء لطيور الجو. واختراع الصنارة والشبكة جلب الشقاء الى السمك في الماء. واختراع الفخ والشراك والزبية ادخل الشقاء على ذوات الاربع في آجامها. واختراع السياسة والمغالطة (السفسطة) والفنون والطقوس والقوانين جلب الشقاء للبشر.

لنرجع الى الطبيعة، نحوّل اليشب واللؤلؤ الى طحين حتى نقطع دابر السراق. نحرق العقود ونكسر الاختام فيعود الناس الى نبلهم. نتخلص من المقاييس والاوزان فلن تبقى حروب. نحطم بحزم جميع المؤسسات المصنوعة للحكمة يستعيد الناس وضعهم الطبيعي. نلغي سلالم الالحان نكسر الآلات الموسيقية يستعيد الناس وضعهم الطبيعي. نبطل موازين الألوان واصول الاصباغ، نقلع عيون الصباغين يستعيد الناس رؤيتهم الطبيعية. نمنع استعمال الفرجار والمربع، نكسر اصابع النجارين يستعيد الناس ممتلكاتهم[1]. نطرد أهل القانون، نلجم المتنطعين. ننفي تلاميذ

كونفشيوس مع مواضعاتهم المصنوعة تعود السجايا الضائعة الى ممارسة فعلها الخفي الموحّد للانسان.

اجل! لنرجع الى الطبيعة تكن نهاية جميع الفلاسفة المخادعين.

من : ليو ويغر

A History of the Reigious Beliefs

And philosophicpl Openions in china

Hsien - Hsien Press 1927.

p 199 - 200

ـ لاحظ جموح لغة التاويين خارج قوانين المنطق ليسهل عليك ادراك ان تشاونغ تسه لا يريد المعنى في دعوته الى قلع عيون الصباغين وكسر اصابع النجارين وانما الدلالة ـ هـ

الهوامش

(١) الاشارة هنا الى وسائل فرز الممتلكات وتعيين المقتنيات والنص ربما ينطلق في ذلك من التمسك بالحالة المشاعية للتملك ـ هـ

فرضية في الارتقاء

من الفصل الثامن عشر

كان السيد ليه يأكل على قارعة الطريق لما وقع نظره على جمجمة عمرها مئة سنة. فانتزع نصل عشبة واخذ يؤشر على الجمجمة قائلاً: آه انت وأنا. نحن ندرك انه لا حياة هنا ولا موت. هل انت حقاً في مرد شئ؟ وأنا حقاً في سعادة وبهجة؟ بذرة ما تحتوي على جرثومة. ولما تتشرب بالماء تتجرثم(؟)(*) فاذا حصلت على بيئة ملائمة من الماء والتربة تصبح وا يين تشيه بي . واذا خامرتها الحياة تصبح الـ لينغ تشياو. واذا حصل اللينغ تشياو على دمنة كافية يصبح الـ وو تسو وتصبح جذور الوو تسو يرقة (دودة) بينما تصير الاوراق فراشات تتحول بعد وقت قصير الى حشرات. ولما تخامرها الحياة تحت الدفء تكون صورتها شبيهة بالهيكل ويصبح اسمها تشو (تنويعة من الجداجد؟) وبعد الف يوم يصير(الجد جد) طيراً اسمه كان يو كو. ويتحول لعاب الكان يوكو الى سّو مي، يصبح بدوره شيه سْشي(**) (ذباب الطعام؟) ويتنشأ الـ يي يو من الشيه سشي والـ هوانغ كوانغ من التشيو يو والـ موو نجوي من الـ فوتشوان . واذا تطعم يانغ تشي بخيزرانة كبيرة ليس لها جذور تنتج تشينغ فينغ ينتج عنه بدوره نمر، ينتج هو

بدوره حصاناً ومن الحصان يتولد الانسان. ومع الوقت يعود الناس الى الجرثومة، اذ ان عشرات الوف المخلوقات تأتي من الجرثومة ثم ترتد اليها.

هيوز

ملحوظة: أسماء الاحياء الواردة في هذا النص مجهولة من الشراح، ووضع الاستاذ هيوز بعض ترجيحاته ما بين قوسين. لكن تسلسل الارتقاء واضح هنا في مفهومه العام الذي اراده تشوانغ تسه اومحررو كتابه. فهو يبدأ من الجرثومة، أدنى صور الحياة، ويتطور الى يرقات وحشرات تنتج عنها بمرور الوقت كائنات حية ارقى حتى تصل الى النمر ثم الى الحصان ومنه الى الانسان. واختياره الحصان لذكائه وقبوله التأديب كما يقول الارتقانيون المسلمون الذين وضعوا الحصان في المراتب العليا، ولو انهم جعلوه ادنى مرتبة من القرد الذي يقع في مسلسل الارتقاء الاسلامي في اعلى شجرة الحياة قبل ظهور الانسان ـ هـ

الهوامش

* تتجرثم: اقتراح هيوز لترجمة المقطع الوارد في هذه العبارة. وقد نقل عن العالم الصيني ما سشو لون ان معنى المقطع مجهول.

(**) سشي، سشو... الحرفان المزدوجان س ش مع تسكين السين وضعتهما لمحاولة اداء تقريبي لصوت صيني بين السين والشين. وهو الذي يكتب بالحرف اللاتيني في صورتين: X و Hs وهذا الصوت يتحول في لهجات الجنوب الى سين خالصة.

ضبط الاسماء الواردة في النص:

وا ين تشيه بي: الباء هي باء باريس.

سومي: بتشديد السين.

جوي: سكون الجيم وكسر الواو

من الفصل الثامن عشر

لما توفيت زوجة تشوانغ تسه جاءه فيلسوف المنطق صديقه هْوي شيه ليعزّيه. ولشد ما كانت دهشته لما رأى تشوانغ تسه جالساً على الصعيد وهو يغني وسأله هوي شيه كيف يكون على هذا القدر من عدم الشفقة على زوجته فأجاب.

حين ماتت لم اتمالك نفسي من التأثر أول الأمر. وفي الحال، مع ذلك، تفحصت القضية من بدايتها الحاسمة: في البداية الحاسمة لم تكن عائشة ولم تكن لها صورة ولا حتى مونة. ولكن لسبب او آخر صارت لها مونة، ثم صورة، ثم حياة. والآن وفي تغير أبعد، لاحق، ماتت. ان السيرورة في جملتها تشبه تعاقب الفصول الاربعة، الربيع، والصيف، والخريف والشتاء. وبينما هي الآن ترقد في مقصورة الكون العظمى: فإن بكائي عليها وولولوتي ستجعلني جاهلاً بقوانين الطبيعة. وهكذا كففت عن التفجع لها.

- في شرح كوو شيانغ:

مع جهله شعر بالحزن. ولما فهمها لم يعد فريسة الغًم.. تشوانغ تسه يعلم الانسان تبديد الانفعال بالفعل.

من ترجمة فونغ يولان خارج
الفصول السبعة

تذييل

كوو شيانغ والتقدم في الفلسفة

يرى كثير من الناس (من الغربيين ـ هـ) ان تاريخ الفلسفة الصينية لم يشهد تقدماً كبيراً. ويأتي هذا الانطباع من ان معظم فلاسفة الصين كانوا ممن سماهم تشوانغ تسه "اتباع الغابرين" وذلك انهم عبروا عن افكارهم ليس باسمائهم وانما من خلال اقاويل القدماء كما لوكانت جاهزة لديهم. وهكذا بدت كتاباتهم وكأنها شروح. لكن شراحاً من هذا القبيل كانوا في الحقيقة فلاسفة وتمتعت فلسفتهم بقيمة حقيقية. [1]

في الفلسفة الغرباوية اعتاد الفلاسفة على التعبير عن افكارهم باسمائهم. وتعطي الدراسة السطحية الانطباع بوجود تنوع كبير وتقدم كبيرين. لكن استقصاء متأنياً يظهر ان التنوع والتقدم لم يكن بالهوالة التي تظهر للنظر، الغير فاحص. لقد قال وليم جيمس ان الذرائعية هي اسم جديد لفلسفة قديمة. ان تسمية فلسفة قديمة باسم جديد هي سنة جارية عند فلاسفة الغرب. بينما اعتاد فلاسفة الشرق (يقصد فلاسفة الصين ـ هـ) على تسمية فلسفة جديدة حيثما جاءت على ايديهم، باسم قديم. فان تكن هكذا سنة قد اتبعها فلاسفة الغرب فإن الذرائعيين لن يدْعوا انفسهم اكثر من كونهم

شراح لبروتاغوراس وكتاباتهم شروح لأقواله: الانسان مقياس جميع الاشياء، وان يكن برجسون لم يعتبر نفسه اكثر من شارح ليهراقليطس وكتاباته شروح للهراقليطية عن التغير، فإن المتابع السطحي يرى في تاريخ الفلسفة الغربية القليل من التقدم. والحقيقة ان الذرائعية والبرجسونية هما فلسفتان حقيقيتان. انا لاانكر ان الفلسفة الغرباوية لا سيما الحديثة تحت تأثير تطور العلم الحديث، هي اكثر تنوعاً وتقدماً من نظيرتها الصينية (بشرط القدم ـ هـ). واقول ببساطة إن التنوع والتقدم ليس بالهوالة ولا بالضآلة التي يبدوان عليها[٢].

يمكن ان نرى ما بين تشوانغ تسه وكوو شيانغ[٢] تطور التاوية نحو النضج. ان التخطيطات النيئة واللغة الشعرية للأول يعبر عنها لدى الثاني بصيغ واضحة وتبيينات مصمَّمة. وما هو فكرة عند تشوانغ تسه يصبح عند كوو شيانغ مبدأ ناضج. من يقول ان التقدم لا وجود له في عملية نمو الدجاجة من البيضة[٣]؟

واستظهر كوو شيانغ الى جانب ذلك افكار جديدة تأتي في تناغم مع الروح العام للتاوية لكنها جديدة بمعنى انها مما لم يقله لاوتسه او تشوانغ تسه.. وفيما يلي عرض موجز لفلسفة كوو شيانغ بالتقابل مع فلسفة الاباء..

١ ـ انكر كل من لاوتسه وتشوانغ تسه وجود اله. وهما على ان كل شيء في العالم انتج نفسه تلقائياً. وقد حظيت هذه الفكرة بمعالجة كاملة في "شروح" كوو شيانغ الذي اكد انه لا خالق للاشياء. وخشية من ان يأخذ بعض الناس مطلق التاو على انه شكل من الخالق، قال ان التاو هو اللاشيء. وفي شرحه على عبارة لتشوانغ تسه في الفصل الخامس ان التاو يعطي الألوهة للآلهة حيث يتم ايجاد العالم. قال كوو شيانغ.

"التاو لا شيء. فأنىّ له ان يعطي الالوهة للآلهة حيث يتم ايجاد العالم؟ هو لم يعطي الآلهة الوهتها بل هي إلهية بنفسها. وبذلك فالتاو تجعلها إلهية بعدم جعلها كذلك. التاو لا يوجد العالم وانما العالم يوجد نفسه. وبذلك فالتاو يوجد العالم بعدم ايجاده.. التاو في كل مكان لكنه هو لا شيء في كل مكان."

وفي شرحه على الفصل الثاني والعشرين قال كوو شيانغ.

"في الوجود ما هو السابق للاشياء؟ قد نقول انها الين واليانغ. لكن الين واليانغ هما نفسيهما اشياء. فما هو السابق للين واليانغ؟ قد يقال انها الطبيعة. لكن الطبيعة هي ببساطة طبائع الاشياء (طبيعتها). قد نقول ان التاو هي السابق للاشياء. لكن التاو ليست شيئاً. وحيث انها لا شيء كيف تكون سابقة للاشياء؟ نحن لا ندري ماهو السابق للاشياء، فالاشياء في خلق مستمر. ويعني هذا ان الاشياء هي ما هي تلقائياً. ليس من خالق لها".

يرى كوو شيانغ ان الوجود ليست له بداية ولا نهاية. فهو لا يمكن ان يكون موجود اللاكائن ولا هو بالممكن له ان يتحول الى اللاكائن. قال في نفس الفصل:

"ليس فقط لا يمكن للاكائن ان يصبح كائن بل الكائن لا يصبح لا كائن. ومع ان الكائن قد يتغير بآلاف الطرق فمن غير الممكن ان يحول نفسه الى اللا كائن. وبالتالي ليس هناك زمن لم يكن فيه كائن. الكائن موجود ابدياً "

ويسوق كوو شيانغ براهين اخرى لدعم نظرية النشوء التلقائي ففي شرحه على نص في الفصل الرابع عشر يقول: "قد يقال اننا نعرف اسباب

اشياء معينة. ويبقى سؤال. ماهو سبب الاسباب؟ اذا استمرينا في طرح الاسئلة مرة بعد مرة فلا بد لنا ان نقف عند شيء ما وجد تلقائياً وتحدد الماهو فيه بنفسه ولا يسعنا ان نسأل عن سبب هذا الشيء. اننا نستطيع فقط أن نقول هو ذاك."

سنبقى في النهاية اذن محمولين على تبني النظرية القائلة بأن الاشياء أوجدت نفسها بالتلقاء وحددت الماهو فيها بنفسها. ومادمنا، كما يقرر كوو شيانغ، قد تبنينا هذه النظرية فلماذا لا نتبناها عند البداية الحاسمة؟ اذا نحن فعلنا ذلك فلن نحتاج الى السؤال عن سبب اي شيء. ولن نحتاج الى السؤال عن شيء لاجواب عليه. ببساطة يمكننا القول ان كل شيء هو ماهو تلقائياً. قال في شرحه على الفصل الثاني:

"يقول بعض الناس ان شبه الظل ناتج عن الظل وان الظل ناتج عن الصور الجسمانية والصور الجسمانية ناتجة عن الخالق. ولي ان اسأل ان كان الخالق ايس أم ليس؟ ان يكن ليس فكيف استطاع خلق الاشياء؟ وإن يكن ايس فمعناه ببساطة انه واحد من الاشياء فكيف يمكن لشيء ان يكون خالق لشيء آخر؟ من هنا لا وجود لخالق وكل شيء خلق نفسه بنفسه. وهذا هو السبيل السوي للوجود".

٣ ـ حينما يقول كوو شيانغ أن كل شيء ينتج نفسه وماهيته بالتلقاء فهو يعني عدم الاحتياج الى الخالق... ولا يتضمن هذا القول نفي العلاقات بين الاشياء. فالعلاقات عنده من الضروريات. قال في شرحه على الفصل السادس:

"حين يولد الانسان على ضعفه وضآلته فهو يمتلك الخصائص اللازمة لوجوده. ومهما تكن حياته تافهة فهو يحتاج الى الوجود باجمعه كشرط

لكينونته. ان جميع الاشياء في الوجود، كل ماهو موجود، يكون له تاثير عليه. ولو نقص شرط واحد لانتقض وجوده ولو انخرق مبدأ واحد لانتقضت حياته".

والفكرة هي انه حيثما وجدت شروط او ظروف معينة فإن اشياء معينة تنشأ لا محالة. الا انها لا تنتج عن خالق او اي "فرد" آخر. بكلمه اخرى، تنتج الاشياء عن ظروفها في العموم وليس عن شيء آخر بالخصوص. الاشتراكية مثلاً تظهر حينما تتوفر شروط اقتصادية معينة. وتبعاً لما يعرف بالتفسير المادي للتاريخ فالاشتراكية لا تنتج عن ماركس او انجلز او عن بيانهما (الشيوعي). وبهذا المعنى نقول: كل شيء ينتج عن ذاته وليس عن الآخر[٤]

على ان القول بأن كل شيء ينتج نفسه اذا فسر بهذه الطريقة لا تبقى فَضْوة للارادة الحرة. قال كوو شيانغ في شرحه على الفصل الخامس:

"ان حياتنا لم تكن عن رغبة منا..في ايام عمرنا، دورة المئة عام (ما يمكن ان يبلغه عمر الانسان ـ هـ) فإن ما نفعله من جلوس ونهوض ومشي وقيام وعمل وراحة وكسب وخسارة، وما عندنا من شعور وغريزة ومعرفة وقدرة، كل ذلك، كل ما عندنا وما ليس عندنا، كل ما نفعله وما نلقاه لم يكن هكذا لأننا اردنا ان يكون هكذا بل بفعل الطبيعة واسبابها".

وفي شرح آخر في نفس الفصل:

"لم نأت الى الحياة بالصدفة. ولا بالصدفة كانت حياتنا ما هي عليه. الكون شديد الامتداد، والاشياء هائلة العدد. وفيها وبينها كنا تماماً ما نحن عليه. ولا يند عن هذا الحكم العام لا الدولة ولا الحكيم ولا الأشد بأساً ولا

الاكثر عقلاً. ما هو لسنا نحن لا نستطيع فعله. وماهو نحن لا نستطيع الا ان نكونه. مالا نفعله (ماليس لنا ان نفعله؟ ـ هـ) لا نستطيع ان نفعله. ما نفعله (ماهو لنا ان نفعله ـ هـ) لا يسعنا الا فعله. دع كل شيء يكون ماهو عليه تنعم بالسلام.″

هذه الحتمية تصدق على الظواهر الاجتماعية ايضاً. يقول كوو شيانغ في شرحه على الفصل السادس ″لا شيء الا وهو طبيعي... السلم أو الاضطراب، النجاح أو الفشل.. كل اولئك منتوج الطبيعة لا الانسان″.

ومقصده من ″منتوج الطبيعة″ هو النتيجة اللازمة لظروف او شروط معينة. ان تأسيس حكومة روسيا السوفيتية، كما يقول الاشتراكيون، لم يكن انجازاً لافراد معينين بل هو النتيجة الضرورية لشروط اجتماعية واقتصادية محددة.. يقول كوو شيانغ في شرحه على الفصل الرابع عشر:

″ان مجرى التاريخ ملزوزاً بظروف معاصرة، هو المسؤول عن الازمة الحاضرة. وليس مرجعه الى افراد معينين، بل الى العالم في كليته. ان نشاط الحكماء لا يقلق العالم بل العالم يضطرب من ذاته.

٤ ـ ينظر كوو شيانغ الى العالم في جريانه. قال في شرحه على الفصل السادس:

″التغيير قوة، قوة غير ملحوظة باشد ما تكون، فهو ينقل السماوات والارض الى الجديد. يسوق التلال والجبال الى نفض القديم. القديم لا يتوقف دقيقة ويأتي الجديد في الحال ـ جميع الاشياء تتغير في كل هنيهة.. كل ما نلقاه يمضي بعيداً في السر. نحن انفسنا لا نكون في الماضي كما نحن في الحاضر.

ونحن الآن نواصل المضي مع الحاضر ولا يسعنا الابقاء عليها (نفوسنا)".

المجتمع بدوره في جريان.. تتبدل حاجات البشر كل هنيهة. المؤسسات والاخلاق الصالحة في وقت ما قد تكون طالحة في وقت آخر. قال كوو شيانغ في شرحه على الفصل الرابع عشر: "ان مؤسسات الملوك السابقين كانت تلبي حاجة الوقت. واذا استمرت قائمة مع تبدل الزمن تكون عبئاً على الناس وتصبح مصطنعة".

وفي شرحه على الفصل التاسع:

"ان الذين يقلدون الحكماء انما يقلدون ماكانو قد فعلوا. لكن ما فعلوه انما هو شيء قد فات ولم يعد يلائم الوضع الحاضر. فهو عديم القيمة ولا ينبغي اقتفاؤه. الماضي ميت والحاضر حي. ومن يريد العيش مع الميت لن يعيش".

وفي شرح آخر على الفصل الثاني عشر قال كوو شيانغ في معرض كلامه عن الحكيم شون والملك وو:

"كان هذان الحكيمان معنيين بوضع العالم في حال الانتظام عند الاضطراب. وقد قام احدهما بذلك بوسائل سلمية والآخر بالقوة العسكرية وكان اختلافهما بسبب اختلاف الزمن. ولم يكن بينهما تفاوت بين الفوقية والدونية...".

يتبدل المجتمع مع الظروف. وعندما تتبدل الظروف يلزم ان تتغير المؤسسات والاعراف والا كانت مصطنعة وعبئاً على الناس. وانه لأمر طبيعي ان تنتج المؤسسات والاعراف الجديدة نفسها. ان القديم والجديد

يختلفان لان الزمن يختلف. وليس فيهما ماهو فوقي او دوني. ولم يكن كوو شيانغ ضد المؤسسات والاعراف (باطلاق) خلافاً للاوتسه وتشوانغ تسه بل هو ضد ما استنفد منها وتحول الى مؤسسات واعراف مصطنعة.

٥ ـ حين يقع التغير في الظروف الاجتماعية تُنتج المؤسسات والاعراف الجديدة نفسها. وتركها في سيرها يعني اتباع ماهو طبيعي. قال في شرحه على الفصل السادس:

"حين يسيل الماء من عالٍ الى خفض لا يمكن مقاومته. وحين تتجمع الاشياء الصغيرة مع الصغيرة والكبيرة مع الكبيرة فلا سبيل لمقاومة الميل. وحين يكون الانسان فارغاً وبدون تحيز تشمله جميع الاشياء في حكمتها ـ ماذاسيفعل من يتولى قيادة الناس ويواجه هذه التيارات والاتجاهات؟ يمنح ثقته لحكمة الوقت، يعتمد على ضرورة الظروف، ويترك الدنيا تدبر شؤونها بنفسها[٥]".

وهذا هو اللافعل بعينه قال في شرحه على الفصل الحادي عشر:

"اللافعل لا يعني ان لا نفعل شيئاً. بل ان نترك كل شيء يفعل ما يفعله ففي ذلك ارضاء لطبيعته"

وفي شرحه على الفصل الثالث عشر:

"النجار حين يحفر الخشب يكون في اللافعل، الا انه يكون في الفعل باستعماله الفأس. الامير يكون في اللافعل حين يدبر الامور الا انه يكون في الفعل بالسيطرة على الوزراء. يمكن للوزراء تدبير الامور بينما الامير يسيطر على الوزراء. الفأس يمكنها حفر الخشب بينما النجار يمكنه استعمال الفأس... لكل شيء ميدانه. العالي والواطي كلاهما يملك امكنته الموافقة. هذا هو كمال مبدأ اللافعل[٦].

وفي شرحه على نفس الفصل يقول كوو شيانغ:

" بمقارنة المنصب الاعلى مع الاوطأ، يكون الامير اكثر استمتاعاً والوزير اكثر انشغالاً. بمقارنة الزمن الغابر مع الحاضر كانت الامور في زمان ياو وشون ابسط وفي زمان يو وتانغ اعقد. لكن مادام كل شيء ضمن طبيعته فاللافعل هو سمة كل حالة."

ونظراً للتبدل في الظروف، فإن عقدة الحياة الحديثة تنتج نفسها بالتلقاء. فهي طبيعته لا اصطناعية. ويعارض كوو شيانغ دعوة لاوتسه وتشوانغ تسه للعودة الى البدائي. قال في شرحه على الفصل التاسع:

"ينبغي على السائق الجيد ان يترك حصانه يؤدي كامل قدرته. والسبيل الى ذلك اعطاؤه الحرية. بعض الناس يدربون الخيل بوسائل مصطنعة ويستخدمونها الى مدى خارج قدرتها. وبهذه الطريقة يستهلكون قواها فتموت. لو اننا تركنا الخيل تفعل ما تقدر عليه غير قاسرين الحصان البطيئ ان يكون سريعاً ولا السريع ان يكون بطيئاً وامتطيناها عبر العالم كله لكانت تتمتع برحلتها معنا. يظن بعض الناس حين يسمعون بوجوب ترك الحريةللخيل انها يجب ان تبقى برية. وحين يسمعون نظرية اللافعل يحسبونها تعني ان الاضطجاع خير من المشي. سوء فهم يبتعد كثيراً عن غرض تشوانغ تسه".

نجد لدى كوو شيانغ ايضاً تأويلات اخرى للبدائي والبسيط كما في شرحه على الفصل الخامس عشر حيث يقول:

"ان كان المقصود بالبدائي عدم التحوير فالانسان الذي لم تتحور خواصه هو الاكثر بدائية حتى لوكانت له القدرة على فعل اشياء كثيرة. وان

كان المقصود بالبساطة عدم الامتزاج فان صورة التنين وسمات العنقاء تكون هي الابسط رغم ان جمالها ساحق بالكلية. من جهة اخرى نجد انه حتى جلد الكلب او الماعز لا يكون بدائي وبسيط اذا مزجت خواصه الطبيعية او حورت بعناصر اخرى".

٦ ـ عارض لاوتسه وتشوانغ تسه الحكماء. ان كلمة حكيم في الادبيات التاوية لها معنيان، هما الانسان الكامل او الانسان الحائز على معرفة متنوعة متفرعة. وقد هاجم لاو تسه وتشوانغ تسه المعنى الاخير ومن يتشح به من الناس. ويلوح لنا من المقتطفات الآنفة ان كوو شيانغ لا يعارض ان يصير بعض الناس حكماء وانما ينتقد من يقلد الحكماء: افلاطون ولد وهو افلاطون، وغوته ولد وهو غوته وعبقريتهما طبيعية مثلما هي صورة التنين او سمات العنقاء. وهما في البساطة والبدائية شأن أي شيء آخر في الطبيعة. ومعنى ذلك انهما لم يخطئا في كتابة "الجمهورية" و"فاوست" فقد اتبعا في عمل هذا طبيعتهما الخاصة بهما ـ يقول كوو شيانغ في الشرح على الفصل الثالث:

"نقصد بالمعرفة لنشاط الخارج عن القدرة الطبيعية للفرد. وما ليس كذلك لا يسمى معرفة(٧). المطلوب من الفرد ان يتصرف ضمن المجال الملائم لقدرته الطبيعية ولا يسعى لتجاوزها. ان الفرد القوي بالطبيعة يمكنه تحمل عبء ثقيل دون ان يشعر بالوطأة ومن هو حاذق بالطبيعة يدبر الامور على اختلافها ولا يشعر بالانشغال"

فالمعرفة عند كوو شيانغ لها تعريف خاص. وتبعاً له فإن "جمهورية" افلاطون "وفاوست" غوته او حتى فتوحات نابليون هي ببساطة تعبير تلقائي عن عبقريتهم، عن قابليتهم الطبيعية. لا وجود لعناصر معرفة باطلاق.

المقلدون فقط هم الذين لهم معرفة. ويبدو كوو شيانغ منكراً للتقليد لثلاثة اسباب:الاول انه غير مجدي. جاء في التعليق على الفصل الثالث عشر:

"احداث الغابر توقفت عن الوجود. ومع ان بالامكان تسجيلها فليس في وسعنا استخدامها مرة اخرى. ومن ثم ينبغي الكف عن المحاكاة، والعمل تبعاً لطبائعنا والتغير مع الوقت. وهذا هو السبيل الى الكمال.

واذ يكون كل شيء سيالاً فالغابر مختلف عن الحاضر والواحد عن الآخر. ان اوضاعنا ومعضلاتنا وحاجاتنا تتبدل مع اللحظة. وينبغي ان يكون لنا في كل يوم طرائق جديدة لمواجهة اوضاعنا الجديدة. كما ان الاوضاع والمعضلات والحاجات الخاصة بالافراد المختلفين تختلف هي الاخرى في نفس اللحظة. وهكذا يجب ان تكون طرائقهم. فما جدوى المحاكاة؟

الثاني ان المحاكاة الصارمة غير ممكنة. الانسان ملزم بان يكون ماهو.. جاء في شرحه على الفصل الخامس:

"جئنا الى الحياة ليس لاننا نرغب في ذلك. يسعى بعض الناس بجهد قاصد ليكونوا فنانين عظام الا انهم لا يفلحون ابداً. فالفنانون العظام يصبحون كذلك تلقائياً ومن غير معرفة الكيفية. ويسعى البعض بجهد قاصد ان يكونوا حكماء لكنهم لا يفلحون ابداً، فالحكماء يصبحون حكماء تلقائياً ومن غير معرفة الكيفية. على انه ليس من العسير فقط تقليد الفنانين والحكماء بل اننا لا نستطيع ان نكون معتوهين او كلاب بمجرد الرغبة والسعي الى ذلك".

كل شيء يجب ان يكون ماهو عليه. لا يمكن لواحد ان يكون الآخر.

الثالث ان التقليد ضار. قال في شرحه على الفصل الثاني:

"نجد بعض الناس غير راضين عن طبيعتهم ويتصرفون في منأى عنها محاولين ماهو مستحيل من دون ان يحققوا اي نجاح. ان الدائرة لا يمكنها محاكاة المربع وليس لدى السمكة اي فرصة لتصبح طيراً. هم قد يقلدون شيئاً جيداً او جميلاً ولكن بقدرما يحاولون البعيد تبتعد عنهم غاياتهم. وبقدر ما تزداد حصيلة معارفهم يفقدون من طبائعهم".

وفي شرحه على الفصل العاشر.

"طبيعة كل شيء لها حد. اذا الانسان زينت له نفسه ان يتجاوز طبيعته ضاعت. وعليه ان لا يقع تحت الاغراء وان يعيش تبعاً لذاته لا للآخر. وعندئذ يمكنه ان يحفظ تكامل طباعه"

ليس بالامكان محاكاة الآخرين بنجاح.هناك بالعكس احتمال ان تضيع الطبيعة في مساعي خرقاء كهذه. واذ تكون المحاكاة بلا جدوى وغير ممكنة وضارة فما الداعي اليها؟ لمذا يتوجب العيش وفقاً للذات لا للغير؟ ان العيش وفقاً للذات هو اللافعل. وهو وحده السبيل الى السعادة. ان السبب الذي يجعل معظم الناس غير قادرين على مقاومة الاغراء الخارجي هو عدم معرفتهم بتساوي الاشياء. هم لا يعرفون انه "من جهة تماثلهم تكون جميع الاشياء واحدة". وبسبب هذا الجهل تكون لهم افضليات وارجحيات باطلة في ضوء العقل.

يجب على المرء ان يرى الواحدية في الاشياء ويتمهوى معها. ومن يقدر على ذلك هو الانسان الكامل.

٧ ـ ثمة نقاط يمكنني اعتبارها المميزات الخاصة لفلسفة كوو شيانغ. لقد اجتازت التاوية عقبات عديدة بفضل مفاهيمه الجديدة. ومع ان افاداته

في بعض الاحيان شكلية ومتصلة بغرض عملي فقد قدم مساهمات منظورة للتاوية خاصة والفلسفة في العموم. ورغم ان فلسفة كوو شيانغ كما رأينا للتو أوغل في الطبيعاني والحتمي من لاوتسه وتشوانغ تسه فهي ليست اقل في باطنيتها. ويمكن رؤية ذلك في الاوصال المسهبة من "شروحه" والتي ترجمت مع نصوص تشوانغ تسه هنا. ان عظمة كوو شيانغ تكمن في الطبيعاني والباطني معاً.

يصعب القول الى اي مدى تاثر كوو شيانغ بالبوذية. هو تاوي على أي حال. وثمت الى ذلك العديد من الفروق الجذرية بين التاو والبوذا. فبينما ترى البوذية مثلاً ان كل شيء باطل وغلط ترى التاوية ان كل شيء حق وحقيقي. والميتافيزيقيا البوذية مثالية والتاوية واقعية. وفي البوذية تكون النوفانا حالة ميتافيزيقية. وفي التاوية يكون عالم التجربة الخالصة معرفياتي. ومن هنا ورغم باطنية التاوية العميقة فهي لا تتصادم مع العلم(٨).

هناك اخيراً اشكال تريخي فيما اذا كانت شروح كوو شيانغ صحيحة النسبة اليه ـ لقد اتهم بانتحال شروح معاصره شيانغ شيو. ولا تعنينا هذه التهمة كثيراً لاننا نتحدث عن الفلسفة لا التاريخ ولا فرق عندنا ان يكون صاحبها كوو شيانغ او شيانغ شيو فهي من قبيل ما دعاه تشوانغ تسه: ثلاثة في الصباح. او : اتباع مجريين مرة واحدة...

ملحوظة:

فيما يخص العلاقة بين شروح كوو شيانغ وشيانغ شيو، بينت البحوث اللاحقة انها كانت سيرورة تكامل بين الفيلسوفين اذ اعتمد كوو شيانغ على شروح اولية من تشيانغ شيو فوسعها واضاف اليها ما جعلها تشكل تطويراً

اساسياً لمقولات التاويين الاوائل. هنا اذن ما يصبح اعتباره دور مشترك بين الفيلسوفين وليس في الامر سرقة او اختلاس. ان بعض الرواة من الاوساط الفلسفية والعلمية في ازمنة وامكنة شتى، ينزعون الى تضخيم علاقة تكامل من هذا القبيل الى اتهام بالسرقة مدفوعين بالرغبة في اثارة ضجة حول فيلسوف او عالم او اديب مرموق ـ هـ.

الهوامش

(١) يشبه فلاسفة الصين في هذا المنحى افلاطون في حواراته التي استنطق بها سقراط ولكن بافكار افلاطون وفلسفته الحقيقية. وهذه سنة لدى قدماء الفلاسفة من اليونان ظهرت ايضاً في اسلوب التفلسف الصيني. ومن بعده في كلام وكتابات صوفية الاسلام الذين تكلموا في القضايا الشائكة عن طريق استنطاق رموز الاسلام والعلوم الاسلامية كمحمد والصحابة وأئمة البيت والفقهاء الاربعة ـ هـ.

(٢) كوو شيانغ: يلفظ كوو بكاف مضمومة مع واو ممدودة ـ هـ.

(٣) مثال يصدق على تطور الفكر والحضارة في عموم آسيا.. التقدم حاصل من الادنى (البيضة) الى الارقى(الدجاجة) لكنه دوراني حيث الدجاجة تعود فتنتج بيضة. وكان هذا محيط الابداع الآسيوي، والذي كان في حاجة الى عمودية اوربا لكي تتطور الدجاجة الى طيارة ـ هـ.

(٤) كتب فونغ يولان هذا النص عام ١٩٢٨ وهو يبدو موافق على النظرية الماركسية بهذا الشأن رغم أنه غير شيوعي ـ هـ.

(٥) القليل من تدخل الدولة والمؤسسات ـ هـ.

(٦) تبدو هذه المماحكات قريبة من فكرة التوليد عند المعتزلة. ومفادها لو ان أحداً رمى آخر بسهم فمات الرامي قبل وصول السهم الى المرمي، الذي قتله السهم في نفس

الآن. فهل يعتبر الميت هو القاتل؟ الجواب ان الفعل يكون للسهم الذي تولدت فيه القدرة على القتل من حركة الرامي قبل موته. فالسهم هو الفاعل الحقيقي وليس راميه - هـ.

(٧) ترد المعرفة هنا كمضاد للطبيعة البشرية، كواحدة من المؤسسات المصطنعة التي فرضتها الحضارة. هـ.

(٨) المقارنة بين البوذية والتاوية فيها إعضال، لأن البوذية دين والتاوية فلسفة. ويبدو على اي حال ان الاستاذ فونغ يولان راعى اشتراكهما في الباطنية مع اتجاه البوذية الى التفلسف في عصر لاحق لعصر المؤسس. والفروق التي اوردها اعلاه هي الفروق المألوفة بين الدين والفلسفة. كما ان الاشتراك في الباطنية لا يوجب التماثل. فالتصوف الاسلامي الملحد كان أكثر باطنية من التصوف المؤمن (فضلاً عن الايمان الديني) وبقدر ما ابتعد التصوف عن الدين كان اقرب الى الروحاني والباطني - هـ.

الفهرس

老子/庄

هذا الكتاب

... وهكذا
يوم تتويج الامبراطور
أو تنصيب الوزراء الثلاثة
لا تبعث هدية من اليشب
أو فصيلاً من أربعة خيول
بل الزم مكانك وأظهر التاو

تأسيس شخصية حرة للمثقف يستقل بها عن سلطة الدولة وسلطة المال، هو الجوهر الأرقى لمدرسة التاو منذ بزوغها في القرن الخامس قبل الميلاد. وفي هذا الكتاب ترجمة للمصدرين الأساسيين لهذه المدرسة الكبرى التي تتكامل مع التصوف القطباني الاسلامي في تعاليها على السلطتين.. ان صوت الحكمة الشرقية متجاوباً من على طرفي آسيا الشرقي والغربي، داعياً الانسان الى الخروج من أسر العبودية الى فضاء الحرية المطلقة حيث تكون مرحلة المثقف الكوني تتويجاً لصراع الفلاسفة مع عناصر الانحطاط التي يزرعها الحكام في أعماق الوجدان البشري.

نصوص مجهولة تعرض على القارىء العربي للمرة الأولى.

الناشر

老/庄

التوزيع



بيسان

هاتف 865126 ـ ص . ب 13/5261 ـ بيروت